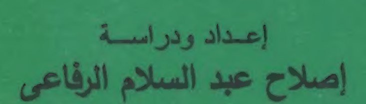
تقريب التراث

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى







إعداد ودراسة

إصلاح عبد السلام الرفاعى



إشراف ومراجعة

الدكتور : عبد الصبور شاهين



مركز الأهرام للترجمة والنشر



تقريب التراث

إحياء علوم الدين

تقريب التراث

(١)

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

إعـداد ودراسـة
إصلاح عبد السلام الرفاعى

إشراف ومراجعة
الدكتور : عبد الصبور شاهين

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ــ شارع الجلاء ــ القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ــ تلكس ٩٢٠٠١ يوان

المحتويات

صفحة

صفحة

☐ الربع الرابع: المنجيات صفحة

تصدير

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ،

وبعد ، فهذه سلسلة « تقريب التراث » تضع بين أيدى القراء عيون تراثنا الخالد فى مضمون جلى ، وصورة محببة ، وشكل مخدوم ، حتى تصل ما بين ماضى أمتنا وحاضرها .

ولقد لوحظ بحق أن أعمال السالفين على قيمتها وأهميتها أصبحت بعيدة عن متناول الجيل الجديد من المثقفين ، نتيجة مجموعة من الظروف المعقدة ، تتصل بتصارع وسائل الثقافة ، وتزاحم مصادر التوجيه ، وغزارة الإنتاج الثقافى المعاصر ، وضغوط العوامل الاقتصادية فى نفس الوقت ، وبذلك تباعدت المسافة بين الجيل الجديد وتراثه ، وهو تباعد يؤدى إلى إحدى ظاهرتين فى المستوى الثقافى ، فإما أن يؤدى إلى نوع من الانفصام الثقافى يهدد واقع الأمة ، وإما أن يؤدى إلى مرض الأنيميا الثقافية الذى يهدد مستقبلها ، وبين الانفصام والأنيميا علاقة طردية ، كلما ازداد عمق الأول استفحل خطر الثانى .

لقد كان جيلنا يتنافس فى قراءة آثار السابقين فى كتبهم الضخمة إلى جانب إنتاج المعاصرين ، فقرأنا الجاحظ والمبرد ، والأصفهانى ، وقرأنا الغزالى ، والشاطبى ، والشافعى ، وقرأنا ابن الأثير والطبرى ، وقرأنا أشعار الجاهليين والإسلاميين ، وحفظنا من هذا كله طائفة صالحة كانت لنا زادا على الطريق ، إلى جانب معايشة القرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين ، وذلك دون تقصير فى ملاحقة إبداع الشعراء والكتاب المحدثين كشوقى وصبرى والبارودى وحافظ ، وكالرافعى والمازنى والعقاد وطه حسين وغيرهم .

وميزة تراثنا العربى الإسلامى أن لغته لاتتقادم ، فهى دائما واضحة بقدر كاف ، لكل من يقرؤه ، حتى إن بعض الكتابات القديمة تبدو وكأن كتابها معاصرون ، نظرا إلى سهولة تراكيبها ، وجدة معانيها ، وذلك بعكس ما كتب فى الإنجليزية مثلا منذ قرن أو قرنين ، فإن دارسيها لا يستطيعون متابعة قراءته دون الاستعانة بمعجم كلاسيكى يفك الرموز ويشرح المتغيرات ، ويكشف عن المعانى والاستعمالات التى لفها الغموض ، فنحن فى العربية نعيش تراثنا كما نعيش حاضرنا .

لقد شغلت مشكلة الأجيال الصاعدة بال القائمين على مؤسسة الأهرام ، دفاعا عن هذه الأجيال ، فكان هذا العمل الكبير الذى تقدمه تحت عنوان « تقريب التراث » ، محاولة لوضع الكتب الضخمة ، والمؤلفات الكبيرة الذائعة الشهرة ، والبعيدة عن متناول الأيدى الكثيرة ــ تحت أيدى الجمهرة الغفيرة من القراء ، إسهاما منها فى تثقيفهم ، ووصلهم بالتراث الخالد ، الذى باعدت بينهم وبينه ظروف الحياة ، وتغيراتها السريعة ، وتياراتها المتصارعة .

وقد كان المنهج الذى رسم لهذه السلسلة دقيقا وملتزما ، فأما الدقة : فإن الهدف الذى قصدنا إليه هو تقديم الكتاب القديم فى فكرته الأساسية ، ومضمونه الكامل ، بانتقاء النصوص المعبرة عنه ، مع المحافظة التامة على حروف المؤلف ، دون أدنى مساس بلغته ، حتى يكون التقريب أمينا على لغة التراث الخالدة .

وأما الالتزام فقد حاولنا بقدر الجهد أن نخدم هذه النصوص بشرحها ، وإزالة غموضها وتحقيقها إذا لزم الأمر ، والتعليق عليها بما يبين مقاصدها ، بحيث يقترب القارىء من خلالها من الكتب الأصول ، وتنمو بينه وبين مراجع التراث العربى والإسلامى صداقة وطيدة ، ويتحرك فى أعماقه شوق إلى لقائها وقراءتها ، فإذا احتاج إلى أحد هذه المصادر أو المراجع الثمينة كانت لديه مسبقا فكرة وافية عنه ، وتقرير كامل عن الموضوع والمنهج ، والمعالجة التفصيلية ، والبناء الفكرى ، والأدبى والأسلوبى .

ثم إن محتوى هذا « التقريب » لم يتوقف عند مجرد اختيار النصوص المحررة ، بل لقد قام كل مؤلف بدراسة شاملة لشخصيته المختارة فى إطار عصرها ، وإنتاجها

العلمى ، ودرس موضوع كتابه الذى يقربه ، وما ورد عليه من مدح أو قدح ، وعلاقة ذلك كله بتيارات المعرفة فى عصرنا ومناهجها ، وبذلك تضم أعداد هذه السلسلة كتابين فى جلد واحد ، أو قل : رئتين فى صدر واحد .

وقد استقر اختيارنا على أن تبدأ سلسلة « تقريب التراث » بمجموعة من كتب الفكر والتراث الاسلامى ، تيمنا بها من ناحية ، وتغذية لوجدان القارىء بما يفيد عقيدته وفكره الدينى من ناحية أخرى ، فلاشك أن الحاجة العقائدية قد أصبحت فى عصرنا تتقدم سائر الحاجات ، وهى فى الواقع حجر الزاوية فى بناء شخصية الإنسان السوى ، الإيجابى ، والإسلام بين أيدينا أمانة نؤديها إلى الأجيال الجديدة ، ولكن بلغة جديدة .

ليس معنى هذا أننا اقتصرنا فى اختيارنا على الكتب الدينية المحضة ، فإن المجموعة الأولى تتضمن مستويات المعرفة الإسلامية على اختلافها تقريبا ، وإن كان طابعها العام دينيا :

فأول الكتب هو « إحياء علوم الدين » للامام الغزالى فى الفكر الإسلامى العام .
والثانى هو « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية فى العقيدة .
والثالث هو « شرح الحكم العطائية » لابن عباد الرندى فى التصوف
والرابع هو « الرسالة » للإمام الشافعى فى الثقافة الأصولية .
والخامس هو « معانى القرآن » للفراء فى الثقافة اللغوية .
والسادس هو « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة فى الثقافة البلاغية .

والكتاب الذى اخترناه لبدء هذه السلسلة هو تقريب « إحياء علوم الدين » ، ولا يجهل أحد ما لكتاب الإحياء من قيمة علمية وثقافية عامة ، كما أنه معروف للكافة ، مطروح فى كل مكان ، ولكن العيب هو أن الكتاب بحاجة الى تحقيق يدقق نصوصه ، ويفسرها تفسيرا يدنيها من القراء ، كما يصوب ما فيه من أخطاء وتحريفات ، ونحن نعتقد أن كتابنا هذا قد تولى هذه المهمة فيما اختار من نصوص الإحياء ، فقد تبين عند تأمل هذه النصوص أن بعض تراكيبها غامض لا يتضح المراد منه ، وأنه بحاجة إلى تدقيق يزيل هذا الغموض ، كما أن كثيرًا من الآثار يحتاج إلى

تعليق وتحقيق أو إيضاح ، وقد تولت الأستاذة الفاضلة إصلاح الرفاعى القيام بهذه المهمة سواء أكان اعتمادها على ما قدمه الحافظ العراقى ، أم كان على مراجع أخرى لزمها الرجوع إليها ، فأهدت إلى القراء بعملها هذا جهدا أمينا خالصا ، يتسم بالمثابرة ، وبالإمتاع ، وبالاقتصار والاستيعاب ، مع الإشارة إلى بعض التصويبات ، والصمت عن أكثرها ، زهادة فى الادعاء ، واختصارا فى التعليق . وهو نموذج لما سوف يتحقق من المنهجية فى تقريب الكتب الأخرى .

ولسوف يجد القارىء فى صدر الكتاب دراسة لها عن الغزالى وعصره ، وحياته وأعماله ، وكتابه الإحياء ، وما يتعلق به من قضايا ، وما تخلله من مآخذ ، وهى دراسة التزمت فيها المؤلفة جانب الحق ، ووضعت أمورا كثيرة فى دائرة الضوء ، ودفعت عن الغزالى بعض ما وجه إليه من نقد ، وذلك دون تعصب أو تجاوز .

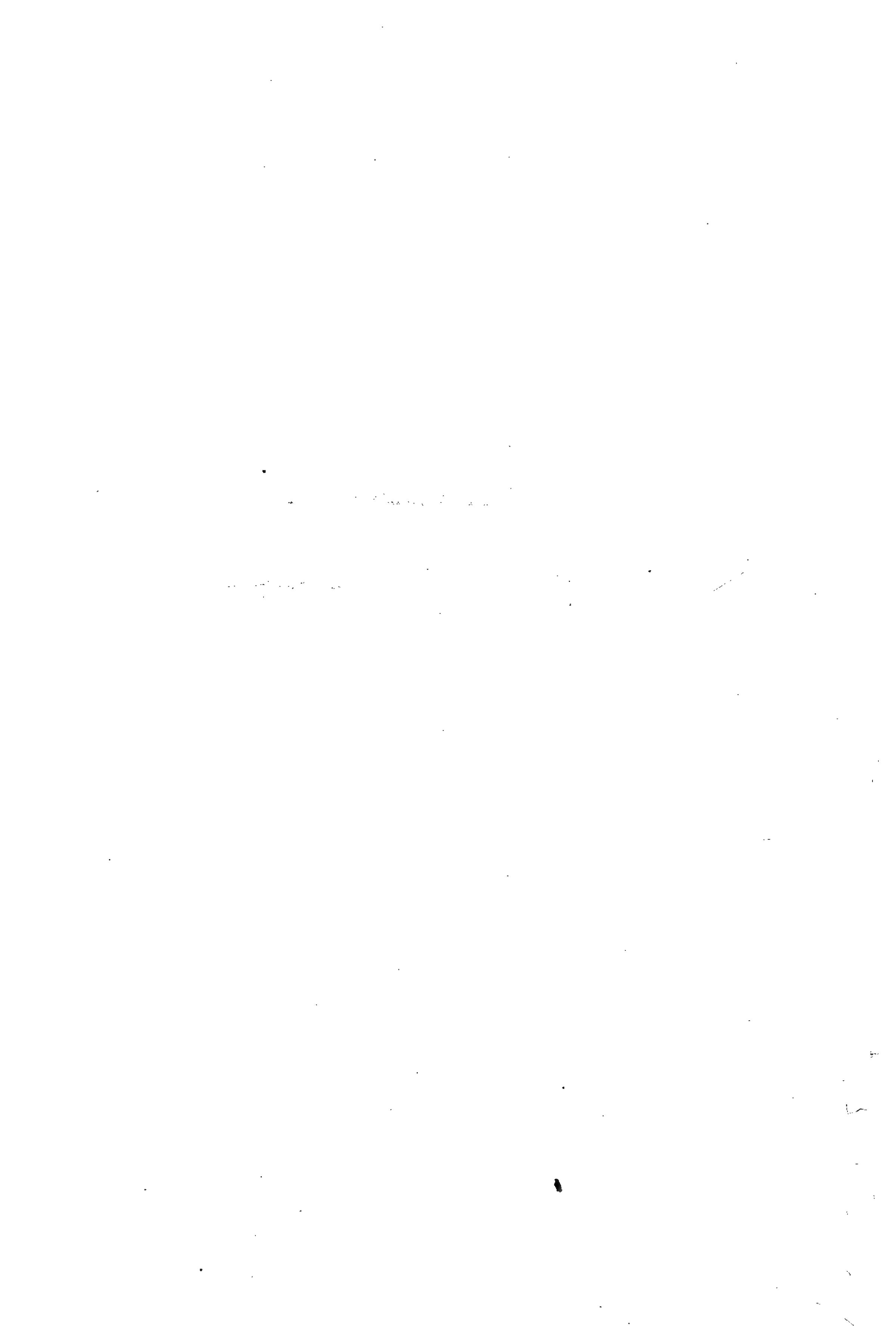
وإنا لنرجو أن يكتب الله لهذه السلسلة المباركة بلوغ أهدافها ، و أن تحقق لقرائنا الأعزاء ما يرجون من اقتنائها ، من ثقافة تنير العقول ، وتهدى القلوب ، وتقوم السلوك ، فتكون كما قال الله تعالى : « كَلِمة طَيبةً ، كَشَجَرةٍ طيبةٍ ، أصلُهَا ثَابتٌ ، وَفَرْعُهَا فى السَّماءِ ، تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإذنِ رَبِّها » . حقا ، إن أجمل ما فى الحياة كلمة طيبة على الطريق ....

والله من وراء القصد .

عبد الصبور شاهين

مقدمة

الغزالي وعصره وكتابه



عصر الغزالي

ولد الغزالي في القرن الخامس الهجرى ، في العصر العباسي الثاني ، حيث بدأت الخلافة الإسلامية المترامية الأطراف في الانقسام ، فظهرت دول في المشرق وأخرى في المغرب ، ومن الدول التي سيطرت على أجزاء من الخلافة الإسلامية في الشرق « دولة السلاجقة » .

ويطلق على السلاجقة : التركمان ، أو الخزر ، أو الأتراك ، أو الغزّ ، وقد انحدروا أفواجا غير معروفي الأصل ، ليست لهم قيادة موحدة ، متّجهين ناحية الغرب ، وكل همهم الاستقرار في خراسان وما وراء النهر ، بعد ضغوط سياسية واقتصادية دعتهم إلى هذه الهجرة ، وترك الوطن إلى المجهول — وظلّوا على هذه الحال قرابة قرنين من الزمان حتى جاء القرن الرابع الهجرى ، وظهر فيهم رجل قوى يدعى « سلجوق » فوحّد هذه القبائل التركمانية المتفرّقة وجمّعها تحت زعامته ، فخضعت لسلطانه ، كما حكمها أبناؤه وأحفاده من بعده لمدة قرن ونصف من الزمان تقريبًا ، ودخل السلاجقة الإسلام وتعصبّوا للمذهب السنّى الذى كان منتشرا في هذه البلاد ، بفضل كل من السامانيين[1] والغزنويين[2] الذين كانوا من أهل السنة .

وعندما قامت الحروب بين الغزنويين والسامانيين انضمّ السلاجقة للسامانيين وساعدوهم ، ولكنّ هزيمة السامانيين كانت السبب في القضاء على السلاجقة إلى حين ، حتّى مات السلطان محمود الغزنوى ، فبدأ نجم السلاجقة في الصعود مرة أخرى على يد « طغرل بك » الذى أعلن قيام دولة في خراسان ونسبها إلى سلجوق (٤٣٢ هـ) ، واعترف بها الخليفة العباسىّ (القائم بأمر الله) ، واتّسع نفوذها ، حتى قال ابن طباطبا في كتابه « الفخرى » : إنّ السلاجقة احتلّوا خوارزم وطبرستان

---

(١) تكونت الدولة السامانية في تركستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان (٢٦١ : ٣٨٩ هـ) .

(٢) تكونت الدولة الغزنوية في غزنة وايران وما وراء النهر والهند (٣٤٩ : ٥٧٩ هـ) .

وأذربيجان ووقفوا على أبواب العراق بعد قضائهم على البويهيين فى فارس[1] .

وعندما دخل طغرل بك بغداد فى سنة (٤٤٧ هـ) أحسن الخليفة استقباله ، وخلع عليه وخاطبه بملك المشرق والمغرب ، واستقرّ الرأى على أن يذكر فى الخطبة اسم القائد السلجوقى بعد اسم الخليفة ، ثم اسم « الملك الرحيم » ملك بنى بويه .

ولكن الزمن لم يمهل هذا الملك الرحيم ، فسجن وحذف اسمه من الخطبة ، وانتهى عهد بنى بويه ليبدأ عهد بنى سلجوق فى بغداد تحت راية العباسيين .

قال ابن تغرى بردى : وهذا أول مُلك السلجوقيين[2] .

وكان الولاء والاحترام هما ما يدين به السلاجقة تجاه خلفاء بنى العباس أصحاب المذهب السنىّ مثلهم ، ولذا فقد استردّ الخليفة العباسى مكانته ، وعاد لبغداد عاصمة الخلافة ازدهارها وعزّها ، وصارت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة العباسى بسلطاته الدينية ، أماّ بنو سلجوق فقد جعلوا عاصمتهم السياسية فى نيسابور من إقليم خراسان .

وكان للسلاجقة الفضل الأكبر فى إيقاع هزائم كبرى بالجيوش البيزنطية وفتح آسيا الصغرى ، وطرد سلطان الروم منها نهائيا . ويقول الدكتور أحمد شلبى : وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا ، فكان من العوامل التى أدّت إلى الحروب الصليبية ، كما أن الأتراك العثمانيين كانوا ضمن الطوائف التى اشتركت فى المعارك ضد الروم ، وقد سمح لهم السلاجقة بالاستقرار فى بعض ما فتحه المسلمون فى آسيا الصغرى مما كان نواة لتكوين الإمبراطورية العثمانية فيما بعد . وبفتح آسيا الصغرى كان سلطان السلاجقة يمتدّ من بلاد ما وراء النهر إلى البحر المتوسط ، وأصبحت البلاد الأسيوية الإسلامية كلها تحت حكم شخص واحد ، وكان امتداد هذه السلطة قد وصل مداه[3] .

وعندما تُوفى طغرل بك فى رمضان سنة ٤٥٥ هـ ، تولّى الملك بعده ابن أخيه

---

(١) الفخرى ص ٢٥٥ . وموسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٨ ص ٩٩ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٣ .

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى حـ ٨ ص ١٠١ .

ألب أرسلان سنة ٤٥٧ هـ ، وهو أول من لقب « بالسلطان » ، وفى عهده تولّى الوزارة الحسن بن إسحاق أبو على الطوسى ، الملقب « بقوام الدين نظام الملك » ، وكان وزيرا حازما عالى الهمّة ، وافر العقل ، عارفا بتدبير الأمور محباً للعلم والعلماء ، وقد بقى فى خدمة ألب أرسلان عشر سنوات ، إلى أن توفى عام ٤٦٥ هـ ، فتصارع أولاده على السلطة ، وظهر دور نظام الملك فى توطيد الحكم لملكشاه ، وخاض فى سبيل ذلك كثيرا من المعارك ، ولذا اعتبره ملكشاه والدا ، ولقّبه « أتابك »[١] ، حيث انصرف هو للصيد والعبث ، فى حين انصرف نظام الملك إلى حمل أعباء الدولة من قيادة سياسية وعسكرية وثقافية[٢] فقد كان ذا موهبة عظيمة حتّى قال عنه ابن عقيل[٣] : كانت أيامه دولة أهل علم[٤] ، وقد استمرّت وزارة نظام الملك لبنى سلجوق ثمانية وعشرين عاما ، حتى قتله شاب ديلمى من الباطنية ، على مقربة من نهاوند ، فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ (أكتوبر ١٠٩٢) .

ومن أعظم منجزات الوزير نظام الملك إنشاؤه المدارس النظامية ، وهى من أقدم الجامعات فى العالم ، وكانت فى بغداد وبلخ ونيسابور وهرات وأصفهان والبصرة ومرو وآمل والموصل .

يقول السبكى : إنّه كان لنظام الملك فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ، وقد قام الإمام الغزالى بالتدريس فى كل من المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور[٥] .

فى هذا الجو التاريخى ، وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وفى العصر العبّاسى الثانى فى ظل الدولة السلجوقيّة ــ ولد الإمام الغزالى ، صاحب « إحياء علوم الدين » .

---

(١) هذا اللقب مكون من كلمتين : (أتا) ومعناها : أب ، و (بك) أى : السيد ، فهو السيد الوالد كما أن (أتاتورك) هو أبو الترك ، ثم تطور التركيب فصار لقبا مجردا .

(٢) ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٧٠ .

(٣) هو أبو الوفا البغدادى ، عالم العراق وشيخ الحنابلة ، توفى سنة ٥١٣ هـ ــ الأعلام جـ ٤ ص ٣١٣ .

(٤) الأعلام جـ ٢ ص ٢٠٢ .

(٥) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٧ .



الحياة الثقافية في عصر الغزالي

يعتبر العصر السلجوقى عصر ازدهار فى العلوم العربية ، ونهضة فى الثقافة الإسلامية والمعارف الإنسانية ، ففى سنة ٤٥٧ هـ بدأ قوام الدين نظام الملك الوزير العالم فى وضع أساس المدارس التى سمّاها باسمه « النظامية » فى كل مدن العراق وفارس . وبدهىّ أن يختار لمدارسه الرجال الأكفاء فى كل مجالات المعرفة ، فكان الإمام الغزالى من ألمع أساتذة هذه المدارس .

وقد ظهر فى هذا العصر نجوم فى العلوم والفنون تركوا آثارهم على جبين الحضارة الإسلامية غررا على مرّ الزمان .

ومن هؤلاء عمر بن إبراهيم الخيام النيسابورى (المتوفى عام ٥١٥ هـ) وهو الشاعر الفيلسوف عالم الرياضيّات والفلك ، الذى بلغت شهرته ذروتها بمقطوعاته الشعرية « الرباعيات » التى كتبها بالفارسية ونقلت إلى لغات كثيرة .

ومنهم الحريرى[1] (٤٤٦ : ٥١٦ هـ ــ ١٠٥٤ : ١١٢٢ م) الأديب الكبير صاحب المقامات المسمّاه « مقامات أبى زيد السروجى » وصاحب « درة الغوّاص فى أوهام الخواص » ، وله ديوان رسائل وشعر كثير .

ومن علماء عصر الغزالى الذين نبغوا فى التأليف : الميدانى النيسابورى المتوفّى (٥١٨ هـ ــ ١١٢٤ م) الأديب البّحاث صاحب مجمع الأمثال ، الذى لم يؤلف مثله فى موضوعه .

وهناك علماء سجّلوا أعظم ما كتب فى التّصوف والملل والأديان فى ذلك العصر ، وعلى رأسهم عبد الكريم بن هوازن النيسابورى المعروف « بالقشيرى » (٣٧٦ : ٤٦٥ هـ ــ ٩٨٦ : ١٠٧٦ م) صاحب « لطائف الاشارات » فى التفسير ، « والرسالة القشيرية » فى التصوّف .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٦٦ .

وإمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن يوسف بن محمد الجوينى (٤١٩ : ٤٧٨ هـ ــ ١٠٢٨ : ١٠٨٥ م) من أصحاب الإمام الشافعى ، بنى له نظام الملك نظامية فى نيسابور ليدرس فيها ، فبقى فيها ما يقرب من ثلاثين عاما[١] ، له مصنّفات كثيرة منها : " الرسالة النظامية فى الأركان الاسلامية " ، " والبرهان فى أصول الفقه " ، " ونهاية المطلب فى دراية المذهب " فى فقه الشافعية ، وغيرها . قال عنه الإمام السبكىّ : ولا يشكّ ذو الخبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام ، والأصول ، والفقه ، والخلاف ، والجدل[٢] ، وهو أحد شيوخ الإمام الغزالى كما سيأتى .

وأبو الفتح الشهرستانى (٤٧٩ : ٥٤٨ هـ ــ ١٠٨٦ : ١١٥٣ م) ، من فلاسفة الإسلام ، كان إماما فى علم الكلام وأديان الأمم ، ومن كتبه " الملل والنحل " فى ثلاثة أجزاء .

لقد نبغ علماء وعلماء فى الفقه والحديث واللغة والفلسفة والأدب والتاريخ ، فى علوم الدين وفى علوم الدنيا ، وازدهرت فارس كما ازدهرت مصر والشام والمغرب والأندلس بالعلماء المسلمين فى كل المجالات ، أجناسهم مختلفة ، لكن انتماءهم إسلامىّ ، ولذلك فإنّ المؤرخين يعتبرون العصر العبّاسى الثانى أعظم العصور نهضة للغة العربية ، وسموا بآدابها ، ونبوغا فى علومها ومعارفها .

---

(١) وفيات الاعيان جـ ٣ ص ١٦٨ . والصواب أنه بقى بها حوالى اثنين وعشرين عاما .
(٢) طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٧١ .

ترجمة الغزالي

اسمه ومولده : هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، لقبه زين الدين ، ولد بطوس فى ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، وهى ثانى مدينة فى خراسان بعد نيسابور التى تبعد عنها نحو عشرة فراسخ[١] ، وهى تشتمل على بلدتين ، يقال لإحداهما : '' الطابران '' ، وللأخرى : '' نوقان ''[٢] ، فتحت فى أيام عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، وبها قبر الإمام على بن موسى الرضا إمام الشيعة ، وقبر هارون الرشيد الخليفة العباّسى[٣] .

كان أبوه يغزل الصوف ويبيعه بدكانه بطوس ، ومن ثمّ لقب بالغزالى ، أو الغزّال بالتشديد ، نسبة إلى مهنة أبيه ، ويرى بعض المؤرخين أن لقبه بالتخفيف نسبة إلى '' غَزَالَة '' وهى ضاحية من ضواحى طوس .

ومماّ حكى الغزالى أن أباه كان يجالس المتفقهة ، ويسأل الله أن يرزقه ابنا فقيها ، ويجالس الوعاظ ويسأل الله أن يرزقه ابنا واعظا ، فاستجيب له فى محمد وأحمد .

ولماّ حضرت والده الوفاة أوصى بولديه محمد وأحمد[٤] إلى صديق له متصوف ،

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام . (الإحياء جـ ٢ ص ٢٦١ .) والميل ١٦٠٩ مترا ، فالفرسخ ٤٨٢٧ مترا .

(٢) معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٩ .

(٣) وموقعها الآن هو مدينة (مشهد) ، وهو تغير أشار إليه لو سترانج فى كتابه بلاد الخلافة الشرقية ، قال : وفى سنة ٦١٧ هـ — ١٢٢٠ م دمرت جحافل المغول مدينة طوس تدميرا لم تنهض منه بعد ذلك أبدا ، وإنّما نشأ بعد ذلك عمارة إلى جوار مشهد الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، ومن ثمّ ظهرت مدينة مشهد مدينة كبيرة منذ القرن الثامن الهجرى ، تحيط بها قبور عظيمة من بينها قبر الغزالى إلى شرق ضريح الإمام الرضا وقبر الفردوسى .

أنظر مؤلفات الغزالى ص ٢١ .

(٤) هو أحمد بن محمد مجد الدين الغزالى ، واعظ توفى سنة ٥٢٠ هـ — سنة ١١٢٦ م . قال عنه السبكى : كان واعظا تنفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره . طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٤ .

وأعطاه ما ادخره من مال يسير قائلا : إن لى لتأسفا عظيما على عدم تعلمى الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين ، فعلمهما ولا عليك أن تنفذ فى ذلك جميع ما أخلفه لهما .

وأشرف عليهما الوصى الصالح[1] ، وعلمهما الخط ، إلى أن فنى ذلك النزر اليسير ، الذى كان قد خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفى القيام بقُوتِهماَ ، فقال لهما : اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصْلَحُ ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم ، فيحصلَ لكما قوت يعينكما على وقتكما .

ففعلا ذلك ، وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما[2] . قال الغزالى : فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه ، وتحصيل القوت :... وتعلمنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله[3] .

وفى هذه المدرسة أخذ الغزالى وأخوه شيئا من الفقه على الإمام أحمد بن محمد الرازكانى .

أسفـاره ورحــلاته

إلى جرجان :

كانت أولى رحلات الإمام الغزالى بقصد التعلم والمعرفة ليأخذ ــ فيما قيل ــ عن الإمام أبى نصر الإسماعيلى ، ولكن الدكتور عبد الرحمن بدوى يرجح أنه تلقى فى هذه الفترة عن أبى القاسم الإسماعيلى ، نظراً إلى أن أبا نصر توفى فى ربيع الآخر سنة ٤٠٥ هـ ، فلا يمكن أن يكون الغزالى قد حضر دروسه ، وقد قال ابن عماد عن أبى القاسم الإسماعيلى : إنه صدر عالم نبيل وافر له يد فى النظم والنثر .[4]

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٣٢ .
(٢) شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٠ .
(٣) الاحياء جـ ١ ص ٥٦ . وطبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٤ .
(٤) مؤلفات الغزالى ص ٤ .

أمّا الإمام السبكى فيذكر أنه سافر إلى جرجان ، إلى الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلّق عنه التعليقة[1] ، ثم رجع إلى " طوس " ، قال الامام أسعد الميهنى[2] : فسمعته — أى الغزالى — يقول : قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيّارون[3] جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت إلىّ مقدّمهم وقال : ارجع ويحك ! وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىّ تعليقتى فقط ، فما هى بشىء تنتفعون به . فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ قلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدّعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلّم إلىّ المخلاة . قال الغزالى : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى . فلماّ وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علىّ الطريق لم أتجرد من علمى . وقد روى هذه الحكاية عن الغزالى أيضا الوزير نظام الملك كما هو مذكور فى ترجمة نظام الملك من " ذيل " ابن السمعانى[4] .

إلى نيسابور

وقدم الغزالى بعد ذلك نيسابور حيث لازم إمام الحرمين — أبا المعالى عبد الملك بن يوسف بن محمد الجوينى (٤١٩ — ٤٧٨ هـ — ١٠٢٨ — ١٠٨٥ م) وكان نظام الملك قد بنى له المدرسة النظامية فى نيسابور . وبملازمته إمام الحرمين برع فى مذهب الإمام الشافعى ، وأصول الدين وأصول الفقه ، والمنطق والحكمة ، والفلسفة والجدل ، وتصدّى للرد على أرباب هذه العلوم وإبطال دعاواهم .

وكان إمام الحرمين يصفه بالبحر المغدق ، لما عرف به من أنه كان شديد الذكاء ،

---

(١) التعليقة فى فروع المذهب : أول كتاب من مؤلفات الغزالى .

(٢) هو أبو الفتح أسعد بن أبى نصر بن أبى الفضل الميهنىّ ، الفقيه الشافعى ، كان إماما مبرزا فى الفقه والخلاف ، تولى التدريس فى نظامية بغداد مرتين ، توفى سنة ٥٢٧ هـ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٧ .

(٣) اللصوص .

(٤) طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٩٦

سديد النظر عجيب الفطرة ، مفرط الإدراك ، قوى الحافظة ، بعيد الغور ، غوّاصا على المعانى الدقيقة .

وعندما توفى إمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ رحل الغزالى إلى '' عسكر نيسابور '' حيث أقام الوزير نظام الملك معسكره ، وهناك لاقى الترحاب والتعظيم ، وناظر الأئمّة والعلماء ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، فاعترفوا بفضله ، وطار اسمه فى الآفاق واشتهر فى الأقطار .

إلى بغداد

وطلب منه الوزير نظام الملك التوّجه إلى بغداد للتدريس فى المدرسة النظامية بها ، فشدّ الرحال إلى بغداد وذلك فى سنة ٤٨٤ هـ ، واستقبل استقبالاً رائعا ، ونال من الاحترام والإجلال درجة عالية ، وفى هذا يقول أحد معاصريه الذين صاحبوه واتصلوا به وهو عبد الغافر الفارسى (المتوفى سنة ٥٢٩ هـ) خطيب نيسابور : .. فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة ، من الاحتكاك بالأئمّة ، وملاقاة الخصوم اللدّ ، ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدى به الحال إلى رسم للمصير إلى بغداد ، للقيام بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية بها ،فصار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق[1] .

وفى بغداد انصرف لدراسة الفلسفة دراسة عميقة ، فطالع كتب الفارابى وابن سينا ، وصنف فى الفسلفة '' مقاصد الفلاسفة '' ، و '' تهافت الفلاسفة '' حيث أبطل مذاهبهم ، وزيف دعاواهم وأبان للمسلمين سوء معتقدهم واعوجاج نظرتهم .

كذلك نظر فى الأصول وفى الفقه وألّف فى كليهما تصانيف ، بعد أن انصرف عن الفلسفة لأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات[2] .

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٠٦ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٣٧ .

ما بعد بغداد

استمر الغزالى فى التدريس فى النظامية ببغداد من سنة ٤٨٤ هـ الى سنة ٤٨٩ هـ ، ثم بدأ فى مسلك الزهد ، وانقطع لطريق الصوفية ، يقول : إنى أخذت الطريقة من أبى على الفارمذى ، وامتثلت ما كان يشيد به من وظائف العبادات واستدامة الذكر ، إلى أن جزت تلك العقبات ، وتكلّفت تلك المشاق[١] . فترك التدريس واستناب أخاه أحمد فى نظامية بغداد ، يقول : فى رجب سنة ٤٨٨ هـ جاوز الأمر حدّ الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطبيبا للقلوب المختلفة إلىّ ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان ، حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى[٢] . وتدبر أمره للخروج للشام ، وكانت رحلته التالية يحدوه الأمل العذب فى المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح ، يقول : ثم أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، فالتجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب .[٣]

لقد كانت رحلة إلى العزلة ، إلى المعرفة ، إلى التصوّف والخلوة والرياضة والمجاهدة ، لتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لله تعالى ، يقول الغزالى : وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلّطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألاّ أعودها أبدا[٤] .

وبدأ هذه الرحلة الميمونة بدمشق ، فكان يعتكف طول يومه فى منارة مسجد

---

(١) المؤلفات ص ٥١١ .
(٢) المنقذ ص ١٤١ .
(٣) المنقذ ص ٣٨ .
(٤) المنقذ ص ١٤٣ .

دمشق الأموى ويغلق بابها على نفسه وانتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ، فكان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه ، ثم توجه إلى الخليل لزيارة مقام ابراهيم ، ثم سار إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد التقى به خلال هذه الرحلة القاضى أبو بكر بن العربى[1] الذى سجّل لقاءه فى قوله : رأيت الإمام الغزالى فى البرية[2] وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة[3] ، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس دروسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم . قال : فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له : ياإمام أليس تدريس العلم ببغداد خيرا من هذا ؟ قال : فنظر إلىّ شزرا وقال : لما طلع بدر السعادة فى فلك الإرادة أو قال : سماء الارادة . وجنحت شمس الوصول فى مغارب الأصول :

تَرَكْتُ هَوَى ليلى وسُعدى بَمْعزِلِ ... وعدت إلى مَصْحُوبِ أولِ منزل
ونادت بِىَ الأشواقُ مَهْلاً فهذه ... منازلُ مَنْ تَهْوَى ، رُوَيْدَك فانزِلِ
غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً فلم أجِدْ ... لِغَزْلِى نساجاً فكسّرت مِغْزَلِى[4]

هل زار الغزالى مصر ؟

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الغزالى قد زار أثناء رحلته هذه مصر والإسكندرية . قال السبكى : ففارق دمشق وأخذ يجول فى البلاد فدخل منها إلى مصر وتوجه

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الأشبيلى المالكى ، أبو بكر بن العربى ، قاضٍ ، من حفاظ الأحاديث ، ولد فى أشبيلية سنة ٤٦٨ هـ ـــ ١٠٧٦ م . ورحل إلى المشرق وبرع فى الأدب ، وبلغ مرتبة الاجتهاد فى علوم الدين ، وصنّف كتبا فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ . ولى قضاء أشبيلية ، ومات بقرب فاس فى ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ ـــ ١١٤٨ م . قال عنه بن بشكوال : ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها .

ومن كتبه : العواصم من القواصم ـــ جزءان ، وأحكام القرآن ـــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٩٧ .

(٢) البرية : الصحراء .

(٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

(٤) شذرات الذهب جـ ٤ ص ١٣ .

منها إلى الإسكندرية فأقام بها مدّة ، وقيل أنّه عزم على المضى إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله ، فبلغه موته ..[1] .

وهذا ما قرره أيضا الصفدى والعينى .

بيد أن الدكتور عبد الرحمن بدوى يرفض هذا الرأى ويقول : وهذه الرواية زائفة كلها لأن يوسف بن تاشفين توفى يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة خمسمائة !! فهى تفترض إذن أن الغزالى كان فى الاسكندرية سنة ٥٠٠ هـ ، وجميع الروايات تؤكد أنه كان فى تلك السنة فى خراسان ، وعلى وجه التخصيص فى نيسابور للتدريس فى نظاميتها ، ولهذا يجب عد مسألة سفر الغزالى إلى مصر والإسكندرية أسطورة زائفة[2] .

ونحن مع الدكتور بدوى فى هذا الرأى ، القائل بأن رحلة الغزالى كانت ما بين دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة ، كما ذكر الغزالى نفسه فى « المنقذ من الضلال » قائلا : ففارقت بغداد وفرقت ما معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الاطفال . . ثم دخلت الشام واقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى إلاّ العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه[3] .

فهو لم يذكر أنه زار مصر والاسكندرية ، ولو كان فعل ذلك لكان جديرا أن يشير إليه فى هذا النص .

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٩ .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ٢٣ .

(٣) المنقذ ص ١٤٤ .

وقد شهدت فترة الترحال هذه نشاطا فى إنتاج الغزالى ، فقد كتب « الرسالة القدسية فى قواعد العقائد » ، وأخذ فى تصنيف كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » فى القدس وأتمّه فى دمشق .

عودته إلى الوطن

ورجع الغزالى إلى وطنه ، ومر ببغداد ، التى شهدت من قبل مرحلة رائعة من حياته ، فدخلها هذه المرة غزاليا آخر ، كان قبل ذلك يبدو فى هيئة الأبهة والعز ، فإذا هو الغزالى المتصوف الزاهد العابد ، يحكى اسماعيل بن على الموصلى الواعظ عن أبى منصور الرزاز الفقيه قال : دخل أبو حامد بغداد فقوّمنا ملبوسه ومركوبه خمسمائة دينار ، فلما تزهد وسافر وعاد إلى بغداد فقوّمنا ملبوسه خمسة عشر قيراطا[1] . وحين عقد له مجلس للوعظ تكلم بلسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتابة الإحياء[2] .

وعاد الإمام إلى « طوس » ولزم بيته ، وآثر العزلة ، وحرص على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة ، وكان يرتزق من النسخ[3] ، إلاّ أن دواعى الحياة لم تساعده على ذلك ، قال : وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير فِىَّ وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال الاّ فى أوقات متفرقة[4] .

وحوادث الزمن التى يقصدها الغزالى هى عدم استقرار الحكم ما بين انتزاع مُلك وقتل وزير وأسر سلطان ، وفوضى يحدثها الغزُ ، حتى ينتهى الأمر بالسلطان سنجر إلى تولية الوزارة لابن نظام الملك الوزير فخر الدين ، فلم يترك الغزالى ينعم بعزلته وبعده عن الناس ، ولكن ألح عليه فى عام ٤٩٨ هـ فى العودة إلى التدريس ، ويؤرخ صديقه عبد الغافر الفارسى هذه الفترة من حياته فيقول : ثم عاد إلى وطنه ملازما

---

(١) مؤلفات الغزالى ص ٥١٢ .

(٢) المنخول ص ٢٣ .

(٣) البداية لابن كثير جـ ١٢ ص ١٧٤ .

(٤) المنقذ من الضلال ص ١٤٤ .

بيته[1] ، مشتغلا بالتفكير ، ملازما للوقت ، مقصودا تقيا ، وذخرا للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ، ولا اعتراض لأحد على أمره ، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجلّ ، فخر الملك « جمال الشهداء » تغمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالى ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته ، فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه[2] الاّ يبقى نفائسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولااقتباس من أنوارها ، وألحّ عليه ، كل الإلحاح ، وشدد فى الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وكان الليث غائبا عن عرينه ، والأمر خافيا فى مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة « النظامية » عمرها الله ، فلم يجد بدا من الإذعان لمولاه .

ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة[3] وافادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه ، وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه ، ومماراة[4] الأقران ، ومكابرة المعاندين[5]

عودة إلى طوس

وفى العاشر من محرم سنة ٥٠٠ هـ قتل أحد الباطنية الوزير فخر الدين على بن نظام الملك ، فلعل الغزالى فكر فى ترك نيسابور لهذا السبب ، أو لعل هناك سببا آخر ، جعله يصر على العودة إلى طوس ، يعمل بها فى نشر المعرفة ، وإفادة طلاب العلم .. وابتنى رباطا ، واتخذ دارا حسنة ، وغرس فيها بستانا أنيقا ، وأنشأ بجوار بيته مدرسة للتعليم ، وخانقاه للصوفية ، ووزع وقته بين ختم القرآن وحفظ

---

(١) دامت مرحلة العزلة هذه عشر سنوات (المنقذ ص ١٥١)

(٢) فطلب منه .

(٣) (ج) شادٍ : وهو المبتدىء فى كل علم .

(٤) مجادلتهم .

(٥) المنقذ من الضلال ص ٨٤ هامش .

الأحاديث ، والتدريس ، ومجالسة الأصدقاء ، حتى إن لحظات حياته كلها كانت فائدة له ولمن معه .

وفـاتـــه

وفى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ ، الموافق الثامن عشر من ديسمبر سنة ١١١١ م لحق الغزالى بالرفيق الأعلى . يقول أخوه أحمد الغزالى : لما كان يوم الاثنين ، وقت الصبح ، توضأ أخى أبو حامد وصلى وقال : علىّ بأكفانى ، فأخذها وقبلها وتركها على عينيه ، وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك . ثم مدد رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار[١] .

ودفن أبو حامد الغزالى بظاهر قصبة الطابران[٢] ـــ احدى بلدتى طوس ـــ إلى شرق ضريح الإمام على بن موسى الرضا ، وبجوار قبر هارون الرشيد .
وهناك فى « مشهد » رفات الغزالى العظيم صاحب المصنّفات التى بهرت الدنيا ، وكشفت غياهب الشبهات ، وأنارت الطريق أمام الناس لقرون وقرون ، رحم الله الغزالى رحمة واسعة ، ورضى عنه وأرضاه ، وأنزله منازل الشهداء والصديقين .

أولاده

لم ينجب الإمام الغزالى سوى البنات ، ولذا لم يذكر التاريخ شيئا عنهن .

مكانة الغزالى

يعتبر الغزالى علما من أعلام الفكر الإنسانى ، فقد بلغ فى حياته وبعد وفاته أرفع مكانة ، جعلت المستشرقين قبل العلماء المسلمين ينهلون من كتاباته ، ويدرسون مصنفاته وتاريخها ، ويعكفون على مؤلفاته التى اقتربت من الخمسمائة ـــ كما جاء

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٠١ .
(٢) العبر للذهبى جـ ٤ ص ١٠ .

فى بعض المراجع ــ دراسة وتحليلا[1] .

وللأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى كتاب بعنوان « مؤلفات الغزالى » بين فيه أن البحث فى مؤلفات الغزالى بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر حين كتب (ر . جوشه R . Gosche) بحثا عن حياة الغزالى ومؤلفاته طبع فى برلين سنة ١٨٥٨ م ، وتناول البحث اربعين مؤلفا للغزالى وحاول أن يحقق صحة نسبها ... وجاء بعد جوشة « مكدونلد DB Macdonald » سنة ١٨٩٩ م . ثم المستشرق « جولد اغناطيوس تسيهر » فى بحثين ظهرا فى سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩١٦ م .

إلا أن أول محاولة جدية لترتيب مؤلفات الغزالى هى التى قام بها « ماسينيون » فى كتابه « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام » الذى ظهر فى باريس سنة ١٩٢٩ م وقسم حياته إلى فترات .

الفترة الأولى من ٤٧٨ هـ إلى ٤٨٤ هـ وفيها الوجيز والمنخول .

الفترة الثانية من ٤٨٤ هـ إلى ٤٨٨ هـ وفيها المقاصد والتهافت والمستظهرى .

الفترة الثالثة من ٤٩٢ هـ إلى ٤٩٥ هـ وفيها الإحياء والمستصفى .

الفترة الرابعة من ٤٩٥ هـ إلى ٥٠٥ هـ وفيها المنقذ والرسالة اللدنية ومعيار العلم .

واعتبر إحياء علوم الدين فى الفترة الثالثة اى من سنة ٤٩٢ : ٤٩٥ هـ .

وعدد الدكتور بدوى بعد ذلك كل من حاول من المستشرقين تناول حياة الإمام الغزالى ومؤلفاته حتى وقتنا الحالى[2] .

---

(١) قال عنه ناشر الإحياء « الشيخ سيد مونى شريف الكتبى » سنة ١٣٢٦ هـ المطبعة العامرة بمصر المحمية : كان رضى الله عنه ضرغاما إلاّ أن الأسود تتضاءل لديه وتتوارى ، وبدرًا تماما إلاّ أن هداه يشرق نهارا ، وبشرا من الخلق إلاّ أنه كالطود العظيم ، وبعضَ الناس ولكن مثلُ ما بعضُ الجمادِ الدرُّ النظيم ، جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء إلى مصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفى بجلاء مقاله ، ويحمى حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله ، حتى أصبح الدين وثيق العرى ، وانكشفت غياهب الشبهات ، وما كانت الآ حديثا مفترى ، هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة يعامل الله فى سره وجهره) .

أنظر مقدمة الاحياء ص ١ ، وطبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٩٢ .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ٩ .

وللغزالى مكانة فى عصره وبين اقرانه ، يقول عنه ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ـ ١٢٠٠ م) : .. قاوم الأقران وصنف الكتب الحسان فى الاصول والفروع التى انفرد بحسن وصفها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها حتى إنه صنف فى حياة أستاذه الجوينى .[١] فنظر أبو المعالى الجوينى فى كتابه المسمى « المنخول » فقال له : دفنتنى وأنا حى ! هلا صبرت حتى أموت .[٢]

... وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل البغدادى وأبى الخطاب ،[٣] وتعجبوا من كلامه واعتقدوه فائدة ، ونقلوا كلامه فى مصنفاتهم .

ويقول عنه ابن كثير فى « البداية والنهاية » : برع فى علوم كثيرة ، وله مصنفات منتشرة فى فنون متعددة ، وكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم به ، وساد فى شبيبته حتى إنه درس بالنظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ وله من العمر أربع وثلاثون سنة .

قال النووى فى « بستانه » عن شيخه التقليبى : احصيت كتب الغزالى التى صنفها ووزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس .[٤]

هذا هو زين الدين وحجة الإسلام الإمام ، عالم الكلام ، عالم الفقه ، عالم الاصول ، إمام الفقهاء على الاطلاق ، وربّانى الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين أوانه . صاحب المصنفات الجليلة الرائعة وعلى رأسها كتاب « إحياء علوم الدين » .

---

(١) إمام الحرمين .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ٥١٠ .

(٣) محفوظ بن احمد الكلوذانى . إمام الحنابلة .

(٤) مؤلفات الغزالى ص ٥٢١ .

مؤلفات الغزالى

ألف الامام الغزالى عشرات الكتب فى الأصول والفقه ومسائل الخلاف وفى الزهد والتصوف ، وفى الرد على الباطنية والرد على الفلاسفة والمتكلمين .

وقد ذكر تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ — سنة ١٣٧٠ م أن مؤلفات الغزالى ثمانية وخمسون مؤلفا[١] .

أمّا الفقيه محمد بن الحسن بن عبد الله الحسينى الواسطى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ — سنة ١٣٧٦ م فقد أحصى ثمانية وتسعين مؤلفا للغزالى[٢] .

أما طاش كبرى زادة المتوفى سنة ٩٦٢ هـ فى كتابه « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » فقد ذكر نحو خمسمائة مصنف للغزالى ، ويروى أنه اجتمع فى خزائن الشيخ أبى اسحاق الشيرازى نحو أربعمائة مؤلف من مؤلفات الغزالى[٣] .

على أن الدكتور بدوى فى كتابه « مؤلفات الغزالى » قسم ما أنتجه الغزالى إلى عدة أقسام :

١ — كتب مقطوع بصحة نسبها للغزالى . وهى تسعة وتسعون كتابا .

٢ — كتب مرجح نسبها للغزالى . وهى واحد وثلاثون كتابا .

٣ — كتب يدور الشك فى صحة نسبها للغزالى . وهى إثنان وعشرون كتابا .

٤ — كتب عبارة عن أقسام من كتب الغزالى أفردت كتبا مستقلة ، أو كتب وردت بعنوانات مغايرة . وهى ستة وتسعون كتابا .

٥ — كذلك ذكر كتبا منحولة وكتبا مجهولة الهوية . اقتربت من الأربعمائة .

٦ — أما المخطوطات التى تنسب للغزالى فهى خمسة وسبعون مخطوطا .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ٤٧١ نقلا عن الطبقات العلية فى مناقب الشافعية .

(٣) مؤلفات الغزالى ص ٤٨١ .

وأكثرها باللغة الفارسية . والذى يهمنا من مؤلفات الغزالى ما أجمع المؤرخون على صحته وهو حوالى سبعين مؤلفا منها :

- « التعليقة فى فروع المذهب » . وهو أول مؤلفات الغزالى كتبها بجرجان عن أستاذه الاسماعيلى .
- « المنخول فى تعليقات الأصول » ، وقد ألفه فى حياة إمام الحرمين الجوينى[1] ، أى فى الفترة الأولى من حياته ، وكان لا يزال متأثرا بالإمام ، وذلك قبل سنة ٤٨٤ هـ .
- « المستصفى من علم الأصول » أو « المستصفى فى أصول الفقه » ، وقد ألفه بعد رحلته التى تصوف فيها واعتزل وعاد إلى التدريس ، وكتب فى مقدمته : ثم ساقنى قدر الله تعالى إلى معاودة التدريس والإفادة فاقترح علىّ طائفة من محصّلى علم الفقه تصنيفا فى أصول الفقه ، أصرف العناية فيه إلى التلفيق والتحقيق ، وإلى التوسط بين الاخلال والإملال ـــ على وجه يقع فى الفهم دون كتاب « تهذيب الأصول » ـــ لميله إلى الاستقصاء والاستكثار ، وفوق كتاب « المنخول » لميله إلي الايجاز والاختصار ، فأجبتهم إلى ذلك مستعينا بالله ، وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق لفهم المعانى . وقد انتهى من تصنيفه فى السادس من محرم سنة ٥٠٣ هـ[2] .
- « مآخذ الخلاف » ، وهو فى المناظرة وطرقها . يقول الغزالى فى كتابه معيار العلم : ولماّ كانت الهمم فى عصرنا مائلة من العلوم إلى الفقه ، بل مقصورة عليه ، حدانا ذلك إلى أن صنفّنا فى طرق المناظرة فيها : « مآخذ الخلاف » أولا ، و « لباب النّظر » ثانيا ، و « تحصين المآخذ » ثالثا ، وكتاب « المبادىء والغايات » رابعا ، وهو الغاية القصوى فى البحث الجارى على منهاج النظر العقلى فى ترتيبه وشروطه وإن فارقه فى مقدماته[3] .
- « مقاصد الفلاسفة » ، وهو كتاب فى بيان اعتقاد الأوائل ، وقد نقل إلى العبرية .

---

(١) المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . (٢) المنخول ص ٢٨ . (٣) مؤلفات الغزالى ص ٢١٦ .

- « تهافت الفلاسفة » ، وقد ألفه بعد « مقاصد الفلاسفة » . قال الغزالى فى مقدمة « المقّاصد » : وسيتضح فى كتاب « التهافت » بطلان ما ينبغى أن يعتقد بطلانه ، ولنفهم الآن ما نحن نورده على سبيل الحكاية مهملا مرسلا من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جدا وتشميرا فى كتاب مفرد نسميه « تهافت الفلاسفة » إن شاء الله . وكان هدفه هو : إثبات أن العقل عاجز كل العجز عن الوصول الى المعرفة الصحيحة ـــ فيما وراء الطبيعة ، اذا لم يتّخذ الوحى هاديا ومرشدا ، ... ، وهو الكتاب الذى رد الفيلسوف أبو الوليد محمد ابن أحمد « ابن رشد » على ما جاء فيه من آراء للغزالى فى كتاب سمّاه : « تهافت التهافت » بعد ظهور كتاب الغزالى بمائة عام تقريبا .

وقد نقل « تهافت الفلاسفة » إلى اللغة العبرية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وإلى اللغة الفرنسية فى القرن التاسع عشر .

وكان تأليفه للكتب الفلسفية خلال إقامته فى بغداد حيث أطّلع على كتب الفارابى وكتب ابن سينا وتصانيف أبى حيّان التوحيدى ورسائل إخوان الصفا[١] ، ودرس سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس . وكان يعيب على الفلاسفة الاسلاميين اتّباعهم فلاسفة الإغريق مع اعترافه بفضلهم .

- « معيار العلم فى علم المنطق » .
- « محك النظر فى المنطق » .
- « معيار العمل » . ويقول الغزالى فى آخر مؤلفه « معيار العلم » : واذا كانت السعادة فى الدنيا والآخرة لا تنال الاّ بالعلم والعمل ، وكان يشتبه الحقيقى بما لا حقيقة له ، وافتقر بسببه إلى معيار ، فكذلك يشتبه العمل الصالح النافع فى الآخرة بغيره ، فيفتقر إلى ميزان تدرك به حقيقته ، فلنصنف كتابا فى « ميزان العمل » كما صنّفناه فى « معيار العلم » ، ولنفرد ذلك الكتاب بنفسه ليتجرد له من لا رغبة له فى هذا الكتاب .[٢]

---

(١) رسائل كتبها خمسة من الفلاسفة خلاصة أبحاث فلاسفة الاسلام مع آراء اليونان والفرس والهند وهى اثنتان وخمسون رسالة

(٢) المؤلفات ص ٧٩ .

وقد ترجم إلى العبرية سنة ١٢٣٥ م تحت عنوان « الميزان الصادق » ، كما ترجم إلى الفرنسية سنة ١٩٤٦ م كرسالة دكتوراه بجامعة باريس ، وقد قال الدكتور بدوى تعليقا على الترجمة العبرية : والمترجم العبرى تلاعب فى نقل بعض النصوص المقتبسة الواردة فى الأصل خصوصا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فقد استبدل بها آيات من الكتاب المقدس وعبارات من التلمود ، فضلا عن ذلك كان يحذف قوله تعالى ، وقال ﷺ ، ويضع بدلا منها : قال أحد الحكماء أو قال بعض الحكماء (ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ و ... وأحيانا يقول : قال أحد الذين ادّعوا النبوة ، وأحيانا يذكر الفاتحة أى السورة الأولى من القرآن على أنها دعاء لأحد الحكماء ص ٩٦ ، وهكذا عبث المترجم العبرى بالنص الأصلى فى كل المواضع التى لا توافق هواه الدينى ، فضلا عن سوء الفهم لكثير من عبارات الأصل ، وهذا مثل بارز لأنواع الترجمات العبرية عن العربية فى ذلك العصر .

- « المستظهرى فى الرد على الباطنية » . وقد ترجمت أجزاء منه إلى الأسبانية .
- وهناك كتاب آخر للرد على الباطنية هو « حجّة الحق » فى توجيه الأسئلة إلى الأئمة ، وذكره الغزالى وعدّه من كتبه التى ألفها فى بيان فساد مذهب الباطنية وقال : إن هذا الكتاب جواب كلام لهم ، عُرِضَ علىّ ببغداد .
- كتاب ثالث فى الرد على الباطنية هو « قواصم الباطنية » أو « مواهم الباطنية » .
- « الرسالة القدسية فى قواعد العقائد » وقد ألفه الغزالى فى القدس .

وهو فصل من فصول كتاب العقائد من الربع الأول فى الإحياء . قال الإمام الغزالى فى مقدمة الفصل : ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس وسميناه « الرسالة القدسية فى قواعد العقائد » وهى مودعة فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

- « الوجيز فى فروع فقه الشافعية» .
- « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » .
- « شفاء الغليل فى القياس والتعليل » (أو بعين مهملة) أى العليل .

وهذه الكتب الثلاثة فى فقه الشافعية .

● « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ، يقص الامام الغزالى حياته الفكرية فى تطورها من الدراسة المستفيضة ، إلى الشك ، ثم إلى اليقين .
ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن المذاهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة والحكمة والحكماء ، ثم من التصوف ، كذلك يشرح فيه مسألة النبوة والطريق الصواب لإحياء الشعور الدينى . وقد كتبه فى أواخر حياته . وقد ترجم إلى الفرنسية والانجليزية والتركية والهولندية .
ونكتفى بذكر هذه النبذة المبسطة عن مؤلفات الإمام الغزالى ، لنبدأ فى بيان غرة كتبه وأعظمها على الإطلاق « إحياء علوم الدين » .

إحياء علوم الدين

يعتبر الإحياء من أهم كتب الغزالى ، أو أهمها على الإطلاق ، فهو من أشهر المصنفات ذكرا ، ومن أعظمها قدرا ، يحتوى على علوم كثيرة من الفقه والعقيدة والتصوف والحكمة ، وكان أساس كتابه معنى كلمة الإخلاص لله بالتوحيد ، والإخلاص للدين بالرجوع إلى حظيرته والعمل بجوهره .

ولم يتم له ذلك إلاّ بالمعرفة والاطلاع والجرى وراء المجهول . ورأى أن يحصر الفرق الطالبة للحق والمعرفة ويدرسها ، وانحصرت هذه الفرق عنده فى أربع ، وهم :

١ ــ المتكلمون وهم يدعون أنهم أهل رأى .

٢ ــ الباطنية ويزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ ــ الفلاسفة وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ ــ الصوفية ويدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة[1] .

فبدأ بدراسة علم الكلام والمجادلة ، ثم درس الفلسفة اليونانية والإسلامية ، وانصرف عنهما لأن العقل كما قال : ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

وظاهر هذا أن الغزالى لم يكن فيلسوفا عقليا وإنما كان حكيما دينيا بالفطرة ، وأنه اتخذ العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول للحال التى هيأته لها الطبيعية ، على أن هذا لا يمنعنا من القول بأن عقله النادر المثال لدى مروره بالفلسفة اليونانية والفلسفة العربية أفاذها واستفاد منها وهذا ظاهر فى مؤلفاته لا سيّما : « مقاصد الفلاسفة » ، « وإحياء علوم الدين » ، « وتهافت الفلاسفة[2] » .

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ٢٢ ومقدمة المنقذ ص ٣٦ .

(٢) تاريخ فلاسفة الاسلام ص ٧٨ .

ثم تحول إلى دراسة أخرى هى دراسة الصوفية ، فقرأ لأبى طالب المكّى[1] والحارث المحاسبى[2] والجنيد[3] والشبلى[4] والبسطامى[5] وغيرهم .

وعندئذ بدأ الصراع مع نفسه ، فهو المرموق العالم الذى يشار إليه بالبنان ، ويحضر حلقته العلية والأكابر ، ويجالس الملوك والوزراء ، فتردد بين شهوات الدنيا ودواعى الآخرة . وانتصر سلوك العارفين الزاهدين فى نفسه ، فسافر إلى الشام وكانت رحلته المعروفة ، التى تمخضت عن أعظم عمل بعد أن أفاض الله عليه بنور إلهى ونفحة سماوية .

يقول الإمام أبو بكر محمد بن العربى فى كتابه « العواصم من القواصم » : ولقد فاوضت فيها[6] أبا حامد الغزالى حين لقائى له بمدينة السلام فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠ هـ . وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية ، من سنة ٤٨٦ هـ إلى ذلك الوقت ، نحوا من خمسة أعوام ، وتجّرد لها ، واصطحب معه العزلة ونبذ كل فرقة ، فتضرع لى بسبب بيناّه فى كتاب « ترتيب الرحلة » ، فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذى سمّاه « بالإحياء لعلوم الدين » فسألته سؤال المسترشد عن

---

(١) هو أبو طالب محمد بن على الحارثى ، الواعظ المكّى ، كان رجلا صالحا مجتهدا فى العبادة من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) ، سكن مكة فنسب اليها ، ورحل إلى البصرة ، واتهم بالاعتزال ، وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٣٨٦ هـ ــ سنة ٩٩٦ م ، له مصنفات فى التوحيد وهو صاحب كتاب « قوت القلوب » . وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٠٣ .

(٢) من أكابر الصوفية ، له تصانيف فى الرد على المعتزلة ، ولد ونشأ فى البصرة ، ومات فى بغداد سنة ٢٤٣ هـ ــ سنة ٨٥٧ م . الأعلام جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٣) الجنيد البغدادى ، نشأ وتوفى فى بغداد سنة ٢٩٧ هـ ــ سنة ٩١٠ م ، صوفى من نهاوند ، ويعرف بالقواريرى ، ويعرف أيضا بالخزار لأنه يعمل الخز ، أول من تكلم فى علم التوحيد فى بغداد ، يعد شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٤) هودلف بن جحدر أبو بكر الشبلى ، وقيل جعفر بن يونس ، الصالح المشهور الخراسانى ، كان فى مبدأ أمره واليا فى دنباوند ، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة ، وصحب الجنيد ومن فى عصره من الصلحاء ، وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر ، نسبته إلى شبلة من قرى ما وراء النهر وراء سمرقند ، ومولده بسر من رأى ، ووفاته ببغداد فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٥) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامى ويقال له بايزيد ، زاهد مشهور أصله من بسطام بين العراق وخراسان ، توفى بها سنة ٢٦١ هـ ــ سنة ٨٧٥ م . الأعلام جـ ٣ ص ٢٣٥ .

(٦) أى فى بغداد .

عقيدته ، والمستكشف عن طريقته لأقف ــ من منتهى تلك الرموز التى أومأ اليها فى كتابه ــ على موقف تام المعرفة ، وطفق يجاوبنى مجاوبة الناهج لطريق التسديد للمريد ، لعظيم مرتبته وسمو منزلته ، وما ثبت له فى النفوس من تكرمته . فقال لى من لفظه وكتب لى بخطه : إن القلب إذا تطّهر عن علاقة البدن المحسوس ، وتجرّد للمعقول انكشفت له الحقائق . وهذه أمور لا تدرك الاّ بالتجربة لها عند أربابها ، بالسكون معهم ، والصحبة لهم ، ويرشد إليه طريق من النظر ، وهو أن القلب جوهر صقيل مستعد لتجلّى المعلومات فيه عند مقابلتها ، عرياً عن الحجب ، كالمرآة فى ترائى المحسوسات عند زوال الحجب ، من صدأ لا يط[1] ، أو ستر من ثوب أو حائط ، لكّنه بتراكم الآفات عليه[2] يصدأ حتى لا يتجلّى فيه شىء ، أو يتجلّى معلوم دون معلوم ، بحسب مواراة الحجاب له من ازورار أو كثافة أو شغف ، فيتخيل فيه مخيلة غير متحلّية ، كأنه ينظر من وراء شف ، ألا ترى إلى النائم إذا أفلت قلبه من يد الحواس وانفك من أسراها كيف تتجلّى له الحقائق ، تارة بعينها وأخرى بمثالها[3] ؟ .

فهو إذن قد بدأ كتابه بالشام بعد أن تزهد واعتزل ، وقرأ وتمحص وتفكر ، فكان الإحياء .

هدف التأليف

تلفت الغزالى حوله فوجد الناس لاهين قد استهواهم الشيطان ، واستحوذت عليهم الدنيا ، ونسوا طريق الآخرة وما سار عليه الصالحون ، ولا دليل من العلماء يرشدهم وينير لهم الطريق بعد أن انطمس المنار وصار المرء يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا ، ولا يسمع من الدين إلاّ قشورا من وعاّظ يستدرجون العوام بالسجع والزخرفة والجدل والسفسطة ، يقول فى أول كتابه الإحياء : فأما طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله تعالى فى كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء

---

(١) فى الأصل (بصدّ الإبط) وما أثبتناه هو الأليق بالسياق . ومعناه : صدأ لاصق .
(٢) أى القلب .
(٣) العواصم ص ٢١ ومؤلفات الغزالى ص ٥٤٦ .

ونورا وهداية ورشدا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا ، ولما كان هذا ثلما فى الدين ملما وخطبا مدلهماً ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً « إحياء علوم الدين » وكشفا عن مناهج الأئمّة المتقدمين ، وإيضاحا لمناهى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح[1] .

أهمية الإحياء

يقول الغزالى فى مقدمة الإحياء : لقد صنّف الناس فى بعض هذه المعانى كتبا ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول : حل ما عقّدوه وكشف ما أجملوه .

الثانى : ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه .

الثالث : ايجاز ما طولوه وضبط ما قرروه .

الرابع : حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام ، لم يتعرض لها فى الكتب أصلا ، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصّه ويغفل عنه رفقاؤة أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم .

ولذا فكل مسلم يعتبر « إحياء علوم الدين » من أعظم وأشمل المؤلفات التى صنفّت فى علوم الدين المختلفة ، وقد تناوله الخطاطون نسخا ونقلا منذ تأليفه إلى الآن ، حتى ذكر الدكتور بدوى[2] ما يقرب من مائة وعشرين مخطوطا للإحياء فى مكتبات العالم من دار الكتب المصرية والأزهر ، وباريس ، واستانبول ومتحف بتافيا للفنون بلاهاى ، وأدنبرة ، والجزائر ، ومشهد وطهران ، وغيرها ... ، وقد طبع طبعات كثيرة ، فى كل من القاهرة ، وطهران ، واستانبول .

---

(١) الاحياء جـ ١ ص ٤ .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ٩٩ .

ولأهمية الكتاب نقلت أجزاء منه إلى لغات عالمية ، فقد ترجم إلى الألمانية وكذلك الفارسية والأسبانية والأردية والتركية .

والغريب أن الكتاب لم يترجم ولا جزء منه إلى العبرية على الرغم من أن كتبا أخرى للغزالى ترجمت إليها كما أسلفنا ، وهو أمر يستحق شيئا من النظر والتعليل .

شروح الإحيـــاء

قام السيد المرتضى الزبيدى[1] بشرح « إحياء علوم الدين » فى عشرة مجلّدات وسمّاه :

« اتحاف السادة المتّقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » ، ذكر فى مقدمته[2] :

... فاقتضى تقديم هذا الكتاب فى الذكر لوجوه : الأول : أن اسمه مبدوء بالألف . الثانى : شرفه على غيره لما فيه من علوم الآخرة . الثالث : شهرته فى الآفاق وسيرورته مسير الشمس فى الاختراق ، حتى قيل لو ذهبت كتب الإسلام وبقى الإحياء لأغنى عمّا ذهب .

وقد ذكر المرتضى أقوالا لكثيرين فى فضل الكتاب ، كما ذكر من نقده وطعن عليه ، ثم ردّ على هذا الطعن .

كذلك قام عبد القادر العيدروس[3] بدراسة وافية عن الإحياء وسمّاها : « تعريف الأحياء بفضل الإحياء » وهى مطبوعة على هامش طبعات عديدة للإحياء ،

---

(١) محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسينى الزبيدى ، الملقب بالمرتضى ، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب ، من كبار المصنفّين ، أصله من العراق وولد بالهند ، ومنشأه فى زبيد باليمن ، رحل إلى الحجاز ومصر ، مولده فى سنة ١١٤٥ هـ — سنة ١٧٣٢ م ، ووفاته فى مصر بالطاعون فى سنة ١٢٠٥ هـ — سنة ١٧٩٠ م . له مؤلفات كثيرة منها « تاج العروس فى شرح القاموس » ، « ومختصر العين » ، « وشرح الاحياء » الأعلام جـ ٧ ص ٧٠ .

(٢) المؤلفات ص ١١٤ عن اتحاف السادة المتقين جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) مؤرخ باحث من أهل اليمن ، سكن حضرموت ثم انتقل إلى الهند ، وتوفى بها سنة ١٠٣٨ هـ سنة ١٦٢٨ م . من مؤلفاته : « الحدائق الخضرة فى سيرة النبى وأصحابه العشرة » ، « وتعريف الأحياء بفضائل الإحياء » الاعلام للزركلى جـ ٤ ص ٣٩ .

وهى أيضا مطبوعة على إحدى طبعات « اتحاف السادة المتّقين » للمرتضى .

وممن اهتمّوا بدراسة « الإحياء » وقاموا بالدفاع عنه جلال الدين السيوطى ، فقد نسخ مؤلفا بعنوان « تشييد الأركان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ومازال مخطوطا بدار الكتب برقم ٥٣٠ , ٥٣٢ , ١٢٢ مجاميع م . و ٤٨ علم الكلام[1] .

تلخيصات الإحيـــاء

وللإحياء ستة وعشرون تلخيصا ظهرت بالعربية حتى الآن ، ومن ثم نذرك أهمية هذا الكتاب ، وإحساس الباحثين على مر الدهور بضرورة تناوله ، وبعض هذه التلخيصات مازال مخطوطا فى مكتبات العالم فى القاهرة وبرلين ، وبشاور وتونس وطهران واستنبول ، والظاهرية بدمشق ، وباريس والعراق وغيرها .

وأول هذه الملخصات ما ظهر بعنوان « لباب إحياء علوم الدين » وقد قام باختصاره أحمد بن محمد الغزالى[2] (أخو المصنف) .

وفى أواخر القرن السادس الهجرى لخص ابن الجوزى[3] « الإحياء » فى مؤلف سماه : « منهاج القاصدين » .

وفى القرن التاسع الهجرى صنف العلامة الحافظ العراقى[4] كتابا أطلق عليه : « المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من أخبار » ، وهو

---

(١) مؤلفات الغزالى ص ١١٣ .

(٢) المتوفى سنة ٥٢١ هـ .

(٣) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى القرشى البغدادى ، الفقيه الحنبلى الواعظ : علامة عصره فى التاريخ والحديث ، كثير التصانيف ، مولده ووفاته ببغداد فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، نسبته إلى « فرضة الجوز » كتبه أكثر من أن تعد . يقال انه جمعت براية أقلامه التى كتب بها حديث رسول الله فحصل منها شىء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذى يغسل به بعد موته ، ففعل ذلك ، فكفت وفضل منها . وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤١ .

(٤) هو عبد الرحيم بن الحسين أبو الفضل المعروف بالحافظ العراقى ، بحاثة من كبار حفاظ الحديث ، أصله من الكرد من « أربل » تحول صغيرا إلى مصر مع أبيه ، فتعلم ونبغ فيها ، قام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين ، توفى بالقاهرة سنة ٨٠٦ هـ ــ سنة ١٤٠٤ م . الأعلام جـ ١ ص ٣٤٤ .

عبارة عن تخريج الأحاديث النبوية التى وردت فى الإحياء . فذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه ، أو ضعف مخرجه ، وبيان ما ليس له أصل فى كتب الأصول[1] .

كذلك فى نفس القرن اختصر أبو عبد الله شمس الدين محمد بن جعفر المعروف بالبلالى كتاب « إحياء علوم الدين » إلى نصف عشر حجمه[2] باسم « مختصر علوم الدين » وهناك مختصر لنفس البلالى هذا باسم « مختصر الإحياء » .

---

(١) الاحياء جـ ١ ص ١ هامش .

(٢) مؤلفات الغزالى ص ١١٨ .



تقسيم الإحياء

سار الغزالى فى تنظيم تصنيفه على طريقة فريدة ، لم يسبق إليها ، فقد قسم المؤلف كله إلى أربعة أرباع :

١ ـــ الربع الاول : العبادات
٢ ـــ الربع الثانى : العادات
٣ ـــ الربع الثالث : المهلكات
٤ ـــ الربع الرابع : المنجيات

ثم قسم كل ربع من هذه الارباع إلى عشرة كتب ، وكل كتاب مقسم بالتالى إلى أبواب ، تكبر وتصغر حسب الموضوع ، والابواب محتوية على فصول تطول وتقصر أيضا .

وهذا تقسيم سريع لمصنف إحياء علوم الدين :

الربع الأول : العبادات

الكتاب الأول

■ **العـــلم**

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول : أ ـــ فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل .
ب ـــ فضيلة العلم .
ج ـــ فضيلة التعلم .
د ـــ فضيلة التعليم .
هـ ـــ فى الشواهد العقلية .

١

الباب الثانى : أ ــ فى العلم المحمود والمذموم .
ب ــ بيان العلم الذى هو فرض عين .
جـ ــ بيان العلم الذى هو فرض كفاية .

الباب الثالث : أ ــ فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها .
ب ــ بيان الوجه الذى يكون به بعض العلوم مذموما .
جـ ــ بيان تبديل أسامى العلوم ، وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة .
د ــ بيان القدر المحمود من العلوم الشرعية ، والقدر المذموم منها .
هـ ــ بيان علة ذم العلم المذموم .
و ــ بيان ما بدل من ألفاظ العلوم .
ز ــ بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة .

الباب الرابع : أ ــ سبب إقبال الخلق على علم الخلاف .
ب ــ تفصيل آيات المناظرة والجدل وشروط إباحتها .
جـ ــ بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رحمهم الله .
د ــ بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق .

الباب الخامس : أ ــ فى آداب المتعلم والمعلم .
ب ــ بيان وظائف المرشد المعلم .

الباب السادس: فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء والسوء .

الباب السابع : أ ــ فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه .
ب ــ بيان تفاوت النفوس فى العقل

الكتاب الثانى

■ قواعد العقائد

وفيه أربعة أبواب :

الباب الاول : فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة .

الباب الثانى : فى وجه التدريج إلى الارشاد وترتيب درجات الاعتقاد .

الباب الثالث : فى لوامع الادلة للعقيدة التى ترجمها المؤلف بالقدس . وهى أربعة أركان :

أ ــ أركان الايمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ومداره على عشرة أصول .

ب ــ العلم بصفاته ومداره على عشرة أصول .

ج ــ العلم بأفعال الله تعالى ومداره على عشرة أصول .

د ــ السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول .

الباب الرابع : فى الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال ، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ، ووجه استثناء السلف فيه . وفيه ثلاث مسائل .

الكتاب الثالث

■ أسرار الطهارة

الباب الاول : فى طهارة الخبث ، وما يتعلق بالمزال والمزال به وكيفية الإزالة .

الباب الثانى : فى طهارة الأحداث ومنها :

أ ــ فى قضاء الحاجة .

ب ــ فى كيفية الاستنجاء .

جـ ــ فى كيفية الوضوء .

د ــ فى كيفية الغسل .

هـ ــ فى كيفية التيمم .

الباب الثالث : فى النظافة والتنظيف من الفضلات الظاهرة ، وهى نوعان :

أ ــ أوساخ ورطوبات مترشحة ، وهى ثمانية .

ب ــ ما يحدث للبدن منها ، وهى ثمانية .

الكتاب الرابع

■ أسرار الصلاة ومهماتها

الباب الاول : فى فضائل الصلاة ، والسجود ، والجماعة ، والأذان ، والخشوع .

الباب الثانى : فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة بالتكبير وما قبله ، وما بعده وهى :

أ ــ القراءة .

ب ــ الركوع ولواحقه .

جـ ــ السجود .

د ــ التشهد .

هـ ــ المنهيات .

و ــ تمييز الفرائض والسنن .

الباب الثالث : فى الشروط الباطنة من أعمال القلب .

أ ــ بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب .

ب ــ بيان الدواء النافع فى حضور القلب .

جـ ــ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر فى القلب عند كل ركن من أعمال الصلاة .

د ــ حكايات وأخبار فى صلاة الخاشعين رضى الله عنهم .

الباب الرابع : فى الإمامة والقدوة .

الباب الخامس : أ ــ فى فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها .

ب ــ فى بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة ، وهى عشر جمل .

جـ ــ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق ، الذى يعم جميع النهار ، وهى سبعة أمور .

الباب السادس: فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد لمعرفتها .

الباب السابع : فى النوافل من الصلوات ، وفيه .

أ ــ ما يتكرر بتكرر الأيام والليالى . وهى ثمانية .

ب ــ ما يتكرر بتكرر الأسابيع .

جـ ــ ما يتكرر بتكرر السنين .

د ــ ما يتعلق بأسباب عارضة ، ولا يتعلق بالمواقيت ، وهى تسعة .

الكتاب الخامس

■ فى أسرار الزكاة

الباب الاول : فى انواع الزكاة وأسباب وجوبها .

أ ــ زكاة الانعام .

ب ــ زكاة المعشّرات .

جـ ــ زكاة النقدين : الذهب والفضة .

د ــ زكاة الركاز والمعدن .

هـ ــ زكاة التجارة .

و ــ صدقة الفطر .

الباب الثانى : فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة .
الباب الثالث : فى القابض وأسباب استحقاقه ، ووظائف قبضه .
الباب الرابع : فى صدقة التطوع ، وفضلها وآداب أخذها واعطائها .

الكتاب السادس

■ فى أسرار الصوم

الباب الاول : فى الواجبات والسنن الظاهرة .
الباب الثانى : فى أسرار الصوم وشروطه الباطنة .
الباب الثالث : فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه .

الكتاب السابع

■ فى أسرار الحج

الباب الاول : أ ـ فى فضائل الحج ، وفضيلة البيت ومكّة المكرمة ، وشد الرحال إلى المساجد .
ب ـ فى شروط وجوب الحج ، وصحة أركانه ، وواجباته ومحظوراته .
الباب الثانى : فى ترتيب أعمال الحج الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع .
الباب الثالث : فى بيان الاعمال الباطنة ، ووجه الاخلاص فى النية ، وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة ، وكيفية الافتكار فيها ، والتذكر بأسرارها ومعانيها .

الكتاب الثامن

■ فى آداب تلاوة القرآن

الباب الاول : فى فضل القرآن وأهله ، وذم المقصرين فى تلاوته .

الباب الثانى : فى ظاهر آداب التلاوة ، وهى عشرة .

الباب الثالث : فى أعمال الباطن فى التلاوة ، وهى عشرة .

الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل .

الكتاب التاسع

■ فى الأذكار والدعوات

الباب الاول : أ ــ فى فضيلة الذكر

ب ــ فى فضيلة مجالس الذكر

جـ ــ فى فضيلة التهليل والتسبيح والتحميد وبقية الاذكار .

الباب الثانى : أ ــ فى آداب الدعاء

ب ــ فى فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جـ ــ فى فضيلة الاستغفار

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة

الباب الرابع : أ ــ فى أدعية مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم

ب ــ فى أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

الباب الخامس : فى الادعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث .

الكتاب العاشر

■ فى ترتيب الأوراد وتفضيل إحياء الليل

الباب الاول : فى فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها .

الباب الثانى : فى الأسباب الميسرة لقيام الليل ، وطرق القسمة لأجزاء الليل ، والأيام والليالى الفاضلة .

الربع الثانى : العادات

الكتاب الأول

■ آداب الاكل

وفيه اربعة ابواب :

الباب الاول : أ ــ آداب قبل الاكل .

ب ــ آداب حالة الاكل .

ج ــ ما يستحب بعد الطعام .

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الاكل .

الباب الثالث : آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين .

الباب الرابع : أ ــ آداب الضيافة

ب ــ آداب ومناهى طبية وشرعية .

الكتاب الثانى

■ آداب النكاح

وفيه ثلاثة ابواب :

الباب الاول : أ ــ فى الترغيب فى النكاح والترغيب عنه .

ب ــ آفات النكاح وفوائده .

الباب الثانى : شروط العقد وأحوال المرأة .

الباب الثالث : أ ــ آداب المعاشرة ، وفيما على الزوج وفيما على الزوجة .

ب ــ حقوق الزوج عليها .

الكتاب الثالث

■ آداب الكسب والمعاش

الباب الاول : فضل الكسب والحث عليه .

الباب الثانى : علم الكسب وبيان شروط الشرع فى صحة هذه التصرفات التى هى مدار المكاسب فى الشرع .
ب ـــ العقود : البيع ـــ الربا ـــ الاجارة ـــ القراض ـــ الشركة .
الباب الثالث : بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملة .
الباب الرابع : الإحسان فى المعاملة .
الباب الخامس : شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته .

الكتاب الرابع

■ الحلال والحرام

وفيه ستة أبواب :

الباب الاول : أ ـــ فضيلة الحلال ومذمة الحرام .
ب ـــ أصناف الحلال ومداخله .
جـ ـــ درجات الحلال والحرام .
الباب الثانى : مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام .
الباب الثالث : فى البحث والسؤال والهجوم والاهمال ومظانها .
الباب الرابع : فى ادرارات السلاطين وما يحل منها وما يحرم .
الباب الخامس : أ ـــ فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم .
ب ـــ حكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم .
الباب السادس : مسائل متفرقة سئل عنها فى الفتاوى .

الكتاب الخامس

■ آداب الألفة والأخوة

وفيه ثلاث أبواب :

الباب الاول : أ ـــ فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها .
ب ـــ بيان البغض فى الله .

٤

جـ ـــ الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته .

الباب الثانى : فى حقوق الأخوة والصحبة .

الباب الثالث : أ ـــ فى حق المسلم والرحم والجوار والملك .

ب ـــ كيفية المعاشرة .

الكتاب السادس

■ آداب العزلة

وفيه بابان :

الباب الاول : نقل المذاهب والاقاويل .

الباب الثانى : فوائد العزلة وغوائلها ، وكشف الحق فى فضلها .

الكتاب السابع

■ آداب السفر

وفيه بابان :

الباب الاول : الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع .

الباب الثانى : فيما لابد للمسافر من تعلمه .

الكتاب الثامن

■ آداب السماع والوجد

وفيه بابان :

الباب الاول : أ ـــ اختلاف العلماء فى إباحة السماع .

ب ـــ الدليل على إباحة السماع .

جـ ـــ حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها .

الباب الثانى : آثار السماع وآدابه .

الكتاب التاسع

■ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وفيه أربعة أبواب :

الباب الاول : وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفضيلته ، والمذمة فى إهماله واضاعته .

الباب الثانى : أركان الأمر بالمعروف وشروطه .

الباب الثالث : فى المنكرات المألوفة فى العادات .

منكرات المساجد ــ منكرات الاسواق ــ منكرات الحمامات ــ منكرات الضيافة ــ المنكرات العامة .

الباب الرابع : فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

الكتاب العاشر

■ آداب المعيشة وأخلاق النبوة

أ ــ تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن .

ب ــ محاسن أخلاقه وآدابه فى الطعام واللباس .

جـ ــ عفوه مع المقدرة وسخاوته وجوده وشجاعته وتواضعه صلى الله عليه وسلم .

د ــ صورته وخلقه ومعجزاته وآياته الدالة على صدقه .

الربع الثالث : المهلكات

الكتاب الأول

■ شرح عجائب القلب

الباب الاول : أ ــ معنى النفس والروح والقلب والعقل .

ب ـ بيان جنود القلب الباطنة .

الباب الثانى : مجامع اوصاف القلب وأمثلته .

ب ـ بيان حال القلب بالإضافة إلى اقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية .

الباب الثالث : أ ـ الفرق بين الالهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق ، وطريق النظار .

ب ـ شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد .

الباب الرابع : أ ـ تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة .

ب ـ ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها .

الباب الخامس : سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب فى التغيير والثبات .

الكتاب الثانى

■ رياضة النفس

الباب الأول : أ ـ بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق .

ب ـ قبول الاخلاق للتغير بطريق الرياضة .

الباب الثانى : أ ـ تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق .

ب ـ علامات أمراض القلوب ، وعلامات عودها للصحة .

جـ ـ الطريق التى يعرف بها الإنسان عيوب نفسه .

الباب الثالث : أ ـ شواهد النقل وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلوب ، ترك الشهوات .

ب ـ مادة أمراض القلوب اتباع الشهوات .

الباب الرابع : أ ـ علامات حسن الخلق .

ب ـ بيان الطريق فى رياضة الصبيان ووجه تأديبهم .

الباب الخامس : أ ـ شروط الارادة ومقدمات المجاهدين .

ب ـ تدرج المريد فى سلوك سبيل الرياضة .

الكتاب الثالث

■ كسر الشهوتين

الباب الأول : أ ــ فضيلة الجوع وذم الشبع .

ب ــ طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن .

جـ ــ آفة الرياء المتطرق إلى من ترك الشهوات وقلل الطعام .

الباب الثانى : أ ــ شهوة الفرج .

ب ــ ما على المريد فى ترك شهوة التزويج .

جـ ــ فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين .

الكتاب الرابع

■ آفات اللسان

الباب الاول : عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت .

الباب الثانى : آفات اللسان والكلام فيما لا يعنيك ، وهى عشرون آفة .

الكتاب الخامس

■ ذم الغضب والحقد والحسد

الباب الأول : أ ــ بيان ذم الغضب وفضيلة الحلم .

ب ــ الأسباب المهيجة للغضب .

جـ ــ فضيلة كظم الغيظ .

د ــ فضيلة الحلم .

هـ ــ القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام .

الباب الثانى : أ ــ معنى الحقد ونتائجه .

ب ــ فضيلة العفو والاحسان .

جـ ــ فضيلة الرفق .

الباب الثالث : أ ــ ذم الحسد وحقيقته ، وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى ازالته .

ب ــ بيان سبب الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب وقلته فى غيرهم وضعفه .

جـ ــ الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب .

الكتاب السادس

■ ذم الدنيا

الباب الأول : المواعظ فى ذم الدنيا .

الباب الثانى : صفة الدنيا بالأمثلة .

الباب الثالث : أ ــ حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد .

ب ــ حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم انفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم .

الكتاب السابع

■ ذم البخل وذم حب المال

الباب الأول : أ ــ ذم المال وكراهية حبه .

ب ــ مدح المال والجمع بينه وبين الذم .

الباب الثانى : أ ــ ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس .

ب ــ علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به القناعة .

الباب الثالث : أ ــ فضيلة السخاء .

ب ــ حكايات الاسخياء .

الباب الرابع : أ ــ ذم البخل .

ب ــ حكايات البخلاء .

جـ ــ حد السخاء والبخل وحقيقتهما .

د ــ علاج البخل .

الباب الخامس : ذم الغنى ومدح الفقر .

الكتاب الثامن

■ ذم الجاه والرياء

الباب الأول : أ ــ حب الجاه والشهرة .

ب ــ ذم الشهرة وانتشار الصيت .

الباب الثانى : أ ــ الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لا حقيقة له .

ب ــ ما يحمد من حب الجاه وما يذم .

الباب الثالث : أ ــ علاج حب الجاه .

ب ــ وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم .

الباب الرابع : أ ــ حقيقة الرياء وما يراءى به .

ب ــ درجات الرياء .

جـ ــ الرياء الخفى .

د ــ دواء الرياء وطريق معالجة القلب منه .

الباب الخامس : أ ــ الرخصة فى قصد إظهار الطاعات .

ب ــ الرخصة فى كتمان الذنوب .

جـ ــ ترك الطاعات خوفا من الرياء .

الباب السادس: أ ــ ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح .

ب ــ ما ينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل .

الكتاب التاسع

■ ذم الكبر والعجب

الباب الأول : أ ــ ذم الاحتيال وإظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثوب .

ب ــ بيان فضيلة التواضع .

جـ ـــ حقيقة الكبر وآفته .

الباب الثانى : أ ـــ بيان البواعث على التكبر والأسباب المهيجة له .

ب ـــ أخلاق المتواضعين فى معالجة الكبر .

جـ ـــ غاية الرياضة فى خلق التواضع .

الباب الثالث : أ ـــ آفة العجب .

ب ـــ علاج العجب على الجملة وتفصيل علاجه .

الكتاب العاشر

■ ذم الغرور

الباب الأول : ذم الغرور وحقيقته وأمثلته .

الباب الثانى : أصناف المغترين ، وأقسام فرق كل صنف .

الربع الرابع : المنجيات

الكتاب الأول

■ التوبـــة

الباب الأول : أ ـــ بيان حقيقة التوبة وحدها .

ب ـــ وجوب التوبة على الفور .

جـ ـــ وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال .

د ـــ اذا استجمعت التوبة شرائطها فهى مقبولة لا محالة .

الباب الثانى : أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد .

الباب الثالث : أ ـــ كيف توزع الدرجات والدركات فى الاخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا .

ب ـــ ما تعظم به الصغائر من الذنوب .

الباب الرابع : أ ــ تمام التوبة .
ب ــ اقسام العباد فى دوام التوبة .
جـ ــ ما ينبغى ان يبادر اليه التائب .
الباب الخامس : دواء التوبة .

الكتاب الثانى

■ الصبر والشكر

الباب الأول : أ ــ حقيقة الصبر ومعناه .
ب ــ الصبر نفس الايمان ، أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف .
جـ ــ دواء الصبر وما يستعان به عليه .
الباب الثانى : أ ــ فضيلة الشكر .
ب ــ حد الشكر وحقيقته .
جـ ــ تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه .
الباب الثالث : أ ــ حقيقة نعمة الشكر واقسامها .
ب ــ وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى ، وتسلسلها وخروجها عن الحصر .
الباب الرابع : السبب الصارف للخلق عن الشكر .
الباب الخامس : أ ــ وجه اجتماع الصبر والشكر على شىء واحد .
ب ــ فضل النعمة على البلاء .
جـ ــ الأفضل من الصبر والشكر .

الكتاب الثالث

■ الخوف والرجاء

الباب الأول : أ ــ فضيلة الرجاء والترغيب فيه .
ب ــ دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء .

الباب الثانى : أ ــ حقيقة الخوف .

ب ــ درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف .

جـ ــ اقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه .

د ــ فضيلة الخوف والترغيب فيه .

هـ ــ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما .

الباب الثالث : أ ــ معنى سوء الخاتمة

ب ــ أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف .

جـ ــ أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين فى شدة الخوف .

الكتاب الرابع

■ الفقر والزهد

الباب الأول : أ ــ حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه .

ب ــ فضيلة الفقر مطلقا .

جـ ــ آداب الفقير فى فقره وفى قبول العطاء .

الباب الثانى : أ ــ تحريم السؤال من غير ضرورة ، وآداب الفقير المضطر فيه .

ب ــ أحوال السائلين .

الباب الثالث : أ ــ حقيقة الزهد وفضيلته .

ب ــ درجات الزهد واقسامه .

جـ ــ تقسيم الزهد فيما هو من ضروريات الحياة .

د ــ علامات الزهد .

الكتاب الخامس

■ التوحيد والتوكل

الباب الأول : أ ـ حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل .
ب ـ حال التوكل .

الباب الثانى : أ ـ ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل .
ب ـ أعمال المتوكلين .
جـ ـ توكل المعيل .
د ـ أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب .

الباب الثالث : أ ـ آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم .
ب ـ ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل .
جـ ـ الرد على من قال ترك التداوى افضل لكل حال .
د ـ أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه .

الكتاب السادس

■ المحبة والشوق والأنس والرضا

الباب الأول : أ ـ حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى .
ب ـ المستحق للمحبة هو الله وحده .
جـ ـ اجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى .

الباب الثانى : أ ـ السبب فى زيادة النظر فى لذة الأخرة على المعرفة فى الدنيا .
ب ـ الأسباب القوية لحب الله .

الباب الثالث : أ ـ معنى الشوق إلى الله تعالى .
ب ـ محبة الله للعبد ومعناها .

الباب الرابع : أ ـ معنى الأنس ومعنى الرضا بقضاء الله .
ب ـ معنى الرضا بقضاء الله .
جـ ـ فضيلة الرضا وحقيقته وتصوره فيما يخالف الهوى .

الباب الخامس : أ ــ الدعاء غير مناقض للرضا .
ب ــ الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح الرضا .
جـ ــ جملة حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم .

الكتاب السابع

■ النية والاخلاص والصدق

الباب الأول : أ ــ فضيلة النية وحقيقة النية .
ب ــ تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية .
جـ ــ النية غير داخلة تحت الاختيار .
الباب الثانى : أ ــ الإخلاص وفضيلته ودرجاته وحقيقته .
ب ــ أقاويل الشيوخ فى الإخلاص .
جـ ــ درجات الشوائب والافات المكدرة للإخلاص .
د ــ حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به .
الباب الثالث : أ ــ الصدق وفضيلته وحقيقته .
ب ــ معناه ومراتبه .

الكتاب الثامن

■ المراقبة والمحاسبة

الباب الاول : أ ــ المقام الأول من المرابطة : المشارطة .
ب ــ المرابطة الثانية : المراقبة .
جـ ــ بيان حقيقة المرابطة ودرجاتها .
د ــ المرابطة الثالثة : محاسبة النفس .
الباب الثانى : أ ــ حقيقة المحاسبة بعد العمل .
ب ــ المهابطة الرابعة : فى معاقبة النفس على تقصيرها .

جـ ـــ المرابطة الخامسة : المجاهدة .

د ـــ المرابطة السادسة : فى توبيخ النفس .

الكتاب التاسع

■ التفكر

الباب الأول : أ ـــ فضيلة التفكر

ب ـــ حقيقة الفكر وثمرته

جـ ـــ مجارى الفكر

الباب الثانى : كيفية التفكر فى خلق الله تعالى .

الكتاب العاشر[1]

■ ذكر الموت وما بعده

الشطر الأول : فى مقدمات الموت وتوابعه :

الباب الأول : أ ـــ فضل ذكر الموت كيفما كان .

ب ـــ الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب .

الباب الثانى : أ ـــ طول الامل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته .

ب ـــ فضيلة قصر الامل .

جـ ـــ مراتب الناس فى طول الامل وقصره .

الباب الثالث : أ ـــ فى سكرات الموت وشدته ، وما يستحب من الاحوال عنده .

ب ـــ الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب الحال عنها .

الباب الرابع : أ ـــ فى وفاة الرسول ﷺ .

ب ـــ فى وفاة الخلفاء الراشدين : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم .

---

(١) ويعتبر هذا الكتاب أكبر كتب الإحياء الاربعين ، فقد وسع ستًا وتسعين صفحة .

الباب الخامس : أ ـــ فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين .

ب ـــ أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين .

الباب السادس : أ ـــ فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر .

ب ـــ حكم زيارة القبور والدعاء للميت .

الباب السابع : أ ـــ فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور .

ب ـــ كلام القبر للميت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال .

جـ ـــ عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وصورتهما .

د ـــ ضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر .

الباب الثامن : أ ـــ منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة .

ب ـــ منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين .

الشطر الثانى : **أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو النار :**

الباب الأول : أ ـــ صفة المحشر وأهله.

ب ـــ صفة العرق .

جـ ـــ صفة طول يوم القيامة ودواهيه واساميه .

د ـــ صفة المساءلة .

هـ ـــ صفة الميزان .

و ـــ صفة الخصماء .

ز ـــ صفة الصراط .

ح ـــ صفة الشفاعة .

ط ـــ صفة الحوض .

الباب الثانى : القول فى وصف جهنم واهوالها وانكالها .

الباب الثالث : أ ــ صفة الجنة وأوصاف نعيمها .

ب ــ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها .

جـ ــ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم .

د ــ طعام أهل الجنة .

هـ ــ أوصاف أهل الجنة .

الباب الرابع : الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى .

ثم يختم الكتاب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك .

منهج الغزالى فى تأليفه

سار الإمام الغزالى فى تصنيف '' الإحياء'' على طريقة واحدة ، فبعد أن قسمه إلى أربعة كتب ، وقسم كل كتاب إلى عشرة أبواب ، جعل كل باب محتويا على مسائل .

وبدأ كل كتاب بمقدمة تأتى دائما على نمط واحد هو : أن يحمد الله ويصلى ويسلم على رسول الله ، ويذكر الله ذكرا حسنا ، بأسلوب مشوق وطريقة جذابة . ويثنى عليه تعالى بما هو أهل له .
ويشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فيما يشبه مقدمات خطب الجمعة ، وهى تتميز بوضوح أثر الصنعة فى أساليبها ، ففيها كثير من السجع والمحسنات البديعية ، ولا ريب أن هذه المقدمات كانت بكثرتها وتنوعها مددا غزيرا للوعاظ والخطباء فى سائر العصور .

أما عرض المسائل فإنه يأتى بالآيات القرآنية المتصلة بالموضوع متسلسلة حسب ترتيب المعانى الجزئية كما تراءى له أن يطرحها ، وليس بترتيبها فى المصحف ، ويتبع الآيات القرآنية بالأحاديث النبوية والآثار بنفس النمط الذى سار عليه فى إيراد الآيات القرآنية .

ويذكر بعد ذلك مأثورات بعض العلماء ، وقصص التابعين ، وحكايات الأولياء الصالحين ، مستعينا ببعض الأمثال والحكم ، متمثلا بأبيات من شعره أو من الشعر الجاهلى أو الأموى أو العباسى ، وهى غالبا غير منسوبة لقائليها . وفى خلال ذلك يكون قد قرر اتجاهه فى معالجة المسألة فى ضوء مجموع النصوص والآثار التى أوردها ، فهو يدل على رأيه باختياره لهذه الآثار النقلية ، كما يدل عليه بتصريحه بهذا الرأى فى نهاية المطاف .

آراء العلماء في نقد « الإحياء »

ولأهمية الكتاب وقيمته الرائعة وفضائله التى لا تحصى جعل بعض العلماء يمحصونه ويقلبونه ، ويغوصون فى أعماقه فينتقدونه ويكشفون عن بعض الأغلاط ، وهذه هى الانتقادات التى وجهها العلماء للإمام الغزالى :

ذكر أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فى كتابة '' المنتظم '' معلقا على كتاب الإمام الغزالى الإحياء : .. وذكر فى كتابه '' الإحياء '' من الأحاديث الموضوعة ما لا يصح غير قليل ، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف ، وإنما نقل نَقْل حاطب ليل[١] . وقد جمع ابن الجوزى أغلاط الكتاب فى مؤلف سماه '' إعلام الأحياء بأغاليط الإحياء ''[٢] .

كذلك ذكر بعض هذه المسائل النقدية فى كتابة المسمى '' تلبيس إبليس '' .

وأرجع ابن الجوزى سبب ذلك إلى أنه صحب الصوفية واطلع على كتاب أبى طالب المكى [٣]، وكلام المتصوفة القدماء .

أما ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) فقد قال عن الإحياء فى كتابه '' البداية والنهاية '' :

... وصنف فى هذه المدة كتابه الإحياء وهو كتاب عجيب يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف ، وأعمال القلوب ، ولكن فيه أحاديث غرائب ومنكرات وموضوعات [٤].

أما شمس الدين أبو عبد الله أحمد بن عثمان الذهبى المتوفى سنة٧٤٨ هـ ، قال

---

(١) مؤلفات الغزالى ص ٢٨٠ .   (٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٧٤ .

(٣) اسم الكتاب (قوت القلوب) وهو فى التصوف .

(٤) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٧٥ .

في المجلد الثاني عشر من سير أعلام النبلاء : وقد رأيت كتاب " الكشف والأنباء عن كتاب الإحياء " للمازرى الذى قال : إن فيه فتاوى ما لا حقيقة له ، وفيه كثير من الآثار عن النبى ﷺ ـــ لفق فيه الثابت بغير الثابت ، وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله .

وعلى الرغم مما أصدره هؤلاء العلماء من أحكام قاسية على الإحياء وصاحبه ، فإن مكانة الغزالى وتأثير كتابه الإحياء لا يمكن إنكارهما فى توجيه الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى بعد الغزالى ، كما أن ما أخذ على الغزالى لا يعدو أن يكون جزئيات تعرض لها بالنقد أولئك العلماء ، ونهض منهم أيضا من قوّم هذه الجزئيات .

ولو تتبعنا ما سجله بعض العلماء من نقد لكتاب الإحياء لوجدنا أكثره يدور حول الأحاديث النبوية التى أوردها المصنف وما فى بعضها من ضعف وغرابة ، والمرجح أن ذلك يرجع إلى اعتماده على الحافظة ، فهو لم يسأل ويدقق فى أسانيدها ومصادرها ، ومدى صحتها ، وقد رأب هذا الصدع فى كتاب الإحياء عالم جليل من حفاظ الحديث المشهورين هو : الإمام زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين ابن عبد الرحمن المعروف بالحافظ العراقى المتوفى سنة٨٠٦ هـ ، فقام بتخريج جميع الأحاديث التى وردت فى الإحياء ، وهو يقول فى مقدمته بعد الحمد : وبعد فلما وفق الله تعالى لاكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين ، واقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه ، فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة ، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة ، وأبين ما ليس له أصل فى كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به ، انه خير مسؤول ، وسميته " المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الأحياء من أخبار " .

ثم ذكر منهجه فى استخراج هذه الأحاديث [1] ...

والكتاب مطبوع فى ذيل إحياء علوم الدين فى طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ، وفى بعض الطبعات الأخرى .

---

(١) إذا كرر الغزالى الحديث اكتفى الحافظ العراقى بذكره فى أول مرة .

ولو أننا رجعنا إلى عصر الغزالى ، والكتاب جديد بين أيدى الناس ، وهم مبهورون به من مشارقة ومغاربة ـــ لوجدنا قوما مزاجهم النقد ، وهوايتهم إبراز المساوىء وإخفاء المحاسن ـــ عابوا على مسائل وردت فى الإحياء ، فما كان من الغزالى إلا أن رد عليهم فى مؤلف صغير لطيف سماه '' كتاب الإملاء فى إشكالات الإحياء '' وسماه أيضا '' الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة '' .

يقول الغزالى فى مقدمته بعد الحمد : سألتَ يسّرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها ـــ عن بعض ما وقع فى الإملاء الملقب بالإحياء ، مما أشكل على من حجب فهمه ، وقصر علمه ، ... وأظهرت التحزن لما شاش[1] به شركاء الطغام[2] ، وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وزعّار[3] أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة ، باطّراحه ومنابزته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال .. فإلى الله انصرافهم ومآلهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ..

ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ، ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجوّاد المنان .

وتناول بعد ذلك الرد على هؤلاء النقاد .

على أن كثرة ما كتبه القدماء حول الإحياء من نقد وتعقيب وقدح ومدح ، يدل على أهمية الكتاب ، وأنهم أدركوا خطره وقيمته فأرادوا أن يضعوا نصب أعين طلاب العلم فيه بعض ما يجنبهم مزالق سوء الفهم ، أو اختلاط الرؤية ، وهو ولا شك اعتراف إجماعى بقيمة الإمام الغزالى ، وأثر كتابه '' إحياء علوم الدين '' .

أما جوهر كتاب '' الإحياء '' وغالب الآراء فيه فتؤكد أنه فى الذروة من جودة التصنيف ، وعمق الفهم ، وسلامة المنهج ، وتوازن المعالجة .

---

(١) لعل مراد الغزالى (شوّش) بمعنى شنّع ، ولم يرد للفعل (شاش) استعمال بهذه البنية فى لسان العرب .

(٢) الطغام : أرازل الناس وأوغادهم .

(٣) زعّار (ج) أزعر : وهو السيىء الخلق .

فهذا الإمام محيى الدين النووى يقول : لو عدمت كتب الإسلام ـــ والعياذ بالله ـــ وبقى ’’ الإحياء ‘‘ لأ غنى عما ذهب . ويقول : يكاد الإحياء أن يكون قرآنا .

والأمام فخر الدين الرازى يقول بعد قراءته للإحياء : كأن الله تعالى جمع العلوم فى رُقية وأطلع الغزالى عليها .

ويقول الإمام محمد بن يحيى : الغزالى هو الشافعى الثانى .

وكان قطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس[1] يكاد يحفظه نقلا ، وروى عنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وكل حرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التى قبلها .

وقال : وبعد فليس لنا طريق ومنهاج سوى كتاب الله والسنة ، وقد شرح ذلك سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالى ، فى كتابه العظيم الشأن الملقب : أعجوبة الزمان ’’ إحياء علوم الدين ‘‘ الذى هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة .

ومن كلام العيدروس أيضا : عليكم بملازمة كتاب ’’ إحياء علوم الدين ‘‘ ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله ، وأنبيائه ، وأوليائه [2] .

والشيخ عبد القادر العيدروس يؤكد أهمية الكتاب فى مقدمة تأليفه المسمى : تعريف الأحياء بفضل الإحياء ، فيقول :

فإن الكتاب العظيم الشأن المسمى ’’ بإحياء علوم الدين ‘‘ المشهور بالبركة ، والجمع والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المنسوب إلى الإمام الغزالى رضى الله عنه ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، كتاب

---

(١) والد مؤلف كتاب (تعريف الأحياء بفضل الإحياء) .
(٢) كتاب تعريف الأحياء ص ٥ .

عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ، ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة والطريقة والحقيقة ، كاشفا عن الغوامض الخفية ، مبينا الأسرار الدقيقة ، ولذلك رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان [1] ......

إن ما كتب عن الإحياء كثير . . كثير . . ولا يمكن حصره هنا .

نفعنا الله بعلم الغزالى ورضى عنه فى عليين .

(1) مطبوع على هامش الاحياء (المطبعة الشرفية بمصر المحمية ــ سنة ١٣٢٦ هـ .)

الغزالى والشعر

تمثل الغزالى فى كتاباته المختلفة الشرعية والفلسفية والصوفية بأبيات نسبت إليه ، إلا أنها قليلة إلى حد ما ، قال عبد الغنى بن اسماعيل بن النابلسى الدمشقى فى كتابه " الكوكب المتلالى فى شرح قصيدة الغزالى " :

وله قصيدة جليلة الفوائد ، عظيمة المقاصد ، ذكر فيها أسرارا جّمة للفاتحة ، وهى قوله :

إذا ما كنت ملتمسًا لرزقٍ ... وَنَيْل القصدِ من عبدٍ وحرِّ
وتظفر بالذى ترجو سريعاً ... وتأمنُ من مخالفةٍ وعُذْرِ
ففاتحةُ الكتاب فإن فيها ... لما أمّلْتَ سرا أىَّ سرِّ
تلازم درسها عُقبى عِشاء ... وفى صبحٍ وفى ظهرٍ وعصرِ
وعُقبى مغرب فى كل ليلٍ ... إلى التسعين تُتْبِعها بعشر
تنل ما شئت من عز وجاه ... وعظم مهابة وعلو قدر
وستر لا تغيره الليالى ... بحادثةٍ من النقصانِ تَجْرِى
وتوفيقٍ وأفراح دواماً ... وتأمنُ من مخاوفِ كلِّ شرِّ
ومن عُرْى وجوعٍ ... ومن بطشٍ لذى نَهْيٍ وأمرِ[1]

وله قصيدة هائية طبعها محيى الدين صبرى الكردى فى ذيل كتاب " معارج القدس فى مدارج معرفة النفس " للغزالى سنة ١٣٤٦ هـ ، وتتألف من أربعة وستين بيتا ، ومطلعها :

ما بال نفسى تُطيلُ شَكْواها ... إلى الورى وهى ترتَجى اللّهَ

وقصيدة أخرى تائية وتقع فى ثلاثمائة وستة وستين بيتا ، ومطلعها :

بنورِ تَجَلّى وَجْهِ قُدْسِكَ دهشتى ... وفيك ـــ على أنْ لا خَفَا بكَ ـــ حَيْرَتى

---

(١) مؤلفات الغزالى ص ٤٣٤ .

وله قصيدة لامية أولها :

قل لمن يفهم عنى ما أقولْ … أقصر القول فذا شرح يطولْ

ثَمَّ سرٌّ غامضٌ من دونه … ضُرِبَتْ والله أعناقُ الفُحُولْ

أنت لا تعرفُ إياكَ ولا … تدر مَنْ أنتَ ولا كيف الوصولْ

لا ، ولا تدرى صفاتٍ رُكِّبَتْ … فيك حارتْ فى خفاياها العقولْ[1]

وقال فى الفقهاء :

فقهاؤنا كُذُبَالةِ النِّبْرَاسِ[2] … هى فى الحريق وضوؤها للناسِ[3]

وله الأبيات التى ذكرها الإمام ابن العربى عندما قابله فى الصحراء ، فقال له الغزالى :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل … وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادتنىَ الأشواق مهلا فهذه … منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد … لغزلى نساجا فكّسرت مغزلى[4]

كما تمثل الغزالى فى بعض كتابه « الإحياء » بأبيات لشعراء من العصر الجاهلى ، والإسلامى والأموى ، والعباسى الأول والثانى .

وهناك مواضع من كتبه الأربعين لم يتمثل فيها بشعر ، لا من قوله هو ولا من قول شعراء آخرين .

ومن ذلك :

كتاب الطهارة — كتاب الصلاة — كتاب الزكاة — كتاب الصوم — كتاب الحج — كتاب آداب التلاوة — كتاب الحلال والحرام — كتاب آداب الأكل — كتاب آداب الكسب والمعاش — كتاب رياضة النفس — كتاب كسر الشهوتين .

أما كتاب النكاح فقد تمثل فيه بثلاثة أمثلة : أولها : قول رجل لزوجته :

خذى العفو منى تَسْتَديمى مودتى … ولا تنطقى فى سَوْرَتى حين أَغْضَبُ

ولا تَنْقُرِينِي نَقْرَكِ الدفَّ مرةً … فإنك لا تدرين كيف المُغَيَّبُ

---

(١) السابق ص ٤٣٥ .

(٢) النبراس : المصباح .

(٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٤) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣ .

ولا تُكْثِرى الشكوى فتذهبَ بالهوى ... ويأباك قلبى ، والقلوبُ تَقَـلَّبُ
فإنى رأيت الحُبَّ فى القلبِ والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحُبُّ يذهبُ

وكذلك قول الأصمعى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر ، وهى مختضبة ، وبيدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا عن هذا ! ! قالت :

وللـهِ منـى جـانبٌ لا أضيعُـهُ ... ولِلَّهْوِ منـى والبَطَالـةِ جَـانِبُ

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له .

والمثال الثالث الذى ذكره الغزالى فى كتابه النكاح لعلى بن أبى طالب حينما قال فى إحدى خطبه :

إن حسنا مطلاق فلا تُنْكِحُوه ، فقام رجل من همدان وقال : والله يا أمير المؤمنين لَنُنْكِحَنَّهُ ما شاء ، فَإِنْ أَحَبَّ أَمْسَكَ ، وإن شاء تَرَكَ ، فَسَرَّ ذلك عليا وقال :

ولو كنتُ بوابًا على باب جنةٍ ... لقـلت لهمـدانَ ادخُلِـى بسلامِ[1]

كما ورد منسوبا لعلى بن أبى طالب أشعار كثيرة يمكن للقارىء أن يراجعها فى مواضع من « الإحياء » ، مثل جـ ١ ص ٧ و ص ٨٦ ، و جـ ٢ ص ١٧١ و ص ١٧٢ و ص ٤٢٠ ، و جـ ٣ ص ١٦ و ص ٢٢٦ ، و جـ ٤ ص ٤٧٩ .

وربما كان لحادثة قطع الطريق التى تعرض لها الغزالى وهو مسافر إلى جرجان فى أول حياته أثر كبير فى أنه لم يكن يحتفظ فى ذاكرته بأسماء الشعراء ، لا سيما وأنه لم يكن بصدد توثيق هذه الأشعار ، وإنما كان يذكرها على سبيل الاستئناس وتقوية الكلام ، ولذلك فقلما كان يذكر أسماء الشعراء ، أو ينسب بيتا لقائله ، ومن هذا القليل ذكره لأبى العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى فى كتاب « التوبة » حيث قال :

قال المنجمُ والطبيبُ كـلاهما : ... لا تُبْعَثُ الأمواتُ قلت إليكمـا
إن صَحَّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صَحَّ قَوْلِى فالخَسَارُ عليكمـا[2]

---

(١) الاحياء جـ ٢ ص ٥٩ .

(٢) السابق جـ ٤ ص ٥٩ .

وذكره لتلك الحكاية التي تقول : إن أحد أصحاب الجاحظ رآه فى المنام بعد موته فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتبْ بخطكَ غيْرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ فى القيامةِ أَنْ تَراهُ

وذكر لمجنون بنى عامر قوله :

أمر على الديارِ ، ديار ليلى ... أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارَا
وما حُبُّ الديارِ مَلَكْنَ قَلْبى ... ولكن حُبُّ مَنْ سَكَنَ الديارا

والشاعر ابن المعتز ورد له فى كتاب « الإحياء » بيت تمثل به الغزالى فى كتمان السر قائلا :

. . قيل لرجل : كيف تحفظ السر ؟ قال : أستره ، وأستر أنى أستره ، وعبّر عنه ابن المعتز فقال :

ومستودعى سرا تبوأت كتمه ... فأودعته صدرى فصار له قبرا

ولابن الرومى الشاعر الحكيم بيتان فى الدعوة إلى الإقلال من الصحاب فيقول :

عدوك من صديقك مستفادُ ... فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فإن الداءَ أكثرُ ما تراه ... يكونُ من الطعامِ أو الشراب[1]

وقد تمثل الغزالى بأبيات من شعر المتنبى ، قال : ومن الأشعار المشجعة (أى فى الحرب) قول المتنبى :

فإن لا تَمُتْ تحتَ السيوفِ مُكَرَّماً ... تَمُتْ وتُقَاسِ الذلَّ غيرَ مكرمِ

وقوله أيضا :

يرى الجبناءُ أن الجبنَ حزمُ ... وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

وقال أيضا فى باب « الكمال الحقيقى والكمال الوهمى » : إن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنى لا أصل له ، وإن من قصر الوقتَ على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفقِ الساعاتِ فى جمعِ مالِه ... مخافةَ فقرٍ فالذى فَعَلَ الفقرُ[2]

---

(١) الأحياء جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) الاحياء جـ ٣ ص ٢٨٤ .

وذكر المؤلف من شعر الفرزدق (الشاعر الأموى) أبياتا أنشدها بعد أن دفن امرأته يقول فيها :

أخافُ وراءَ القبرِ إن لم تُعافِنِي أشدَّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يومَ القيامةِ قائدُ عنيفُ وسواقُ يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدمَ من مشى إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا[1]

أما الشعراء المتصوفة فقد أورد لهم الغزالى كثيرا من الأبيات فى كتابه الاحياء ، سنذكر بعضا منها .

فالمتصوفة رابعة تقول فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حبَّ الهوى وحبًّا لأنك أهلُ لذاكا
فأما الذى هو حُبُّ الهوى فَشُغْلِى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلُ له فَكَشْفُكَ لِى الحجب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا[2]

والشبلى وردت له أبيات كثيرة منها :

يأيها السيد الكريمُ حُبُّكَ بين الحشا مقيمُ
يا رافعَ النومِ عن جفونى أنت بما مَرَّ بِى عليمُ[3]

وقال وهو فى الموت :

إن بيتًا أنت ساكنُه غيرُ محتاجٍ إلى السُّرُجِ
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناسُ بالحجج
لا أتاح الله لى فرجًا يوم أدعو منك بالفرج[4]

أما سفيان الثورى فقد تمثل بشعره الغزالى كما تمثل بأخباره ، وكذلك ابن المبارك ، ويحيى بن معاذ ، وإبراهيم بن أدهم ، والجنيد ، وذو النون المصرى ، وغيرهم من أقطاب الصوفية والزهد فى العصور المختلفة والأقطار المتعددة .

إلا أن تمثل الغزالى بأشعار الإمام الشافعى ورواياته كثير ، ويغلب على الظن أن

---

(١) الاحياء جـ ٤ ص ٤٨٧ .
(٢) الاحياء جـ ٤ ص ٣١١ .
(٣) الاحياء جـ ٤ ص ٣٦٠ .
(٤) الاحياء جـ ٤ ص ٤٨٢ .

ذلك كان لأنه شافعي المذهب ، فقد كان مفتونا إذن بإمامه ، وبما قال من شعر معبر عن أمهات الفضائل ، ومناجاة الحق تبارك وتعالى ، ومن أجمل ما نقل عنه قوله :

يا لَهْفَ قلبى على مالٍ أجودُ به ... على ٱلْمُقِلِّينَ من أهلِ المروءات
إن اعتذارى إلى مَنْ جاءَ يسألُنى ... ما ليس عندى لَمِنْ إحدى المصيباتِ[1]

وقوله عندما حضرته الوفاة :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سُلَّماَ
تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فلما قَرَنْتُهُ ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنبِ لَمْ تَزَلْ ... تجودُ وتعفو منّةً وتكرمَا
ولولاك لا يُغْوِى بإبليسَ عابدٌ ... فكيف وقد أغْوَى صفيَّك آدمَا[2]

أما بقية ما جاء فى الإحياء من أشعار غير منسوبة فقد كان مما جرى على الألسنة ، أو شاع بين المتأدبين ، دون أن يعرف قائله ، ولا حرج على الغزالى أن يذكره تأكيدا لمعنى ، وإشاعة لفضيلة ، ودعوة إلى الخير أو زجرا عن الشر ، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) الاحياء جـ ٣ ص ٢٥١ .

(٢) الاحياء جـ ٤ ص ٤٨٤ .

رأى فى الغزالى

للدكتور زكى مبارك

يقول المرحوم الدكتور زكى مبارك متحدثا عن هذه الفترة فى الشام :

. . . ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، واستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات سميت بالإمارات اللاتينية ، نسبة إلى الأجناس التى يتألف منها حملة الصليب .

وأول ما أسس من هذه الإمارات إمارة الرها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ ، ثم أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، ثم فتحوا بيت المقدس[١] وقتلوا من أهله سبعين ألف مسلم . . . . . أتدرى لم ذكرت هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره فى إعداد الخطب ، وتحبير الرسائل لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان « حجّة الاسلام » غارقا فى خلوته ، منكبا على أوزاره ، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد . .[٢] .

ومن الواضح أن الأمور لا تعالج بهذه السهولة ، بل لابد من معرفة الظروف الدقيقة التى كان يعيشها الغزالى فى تلك الفترة ، لنحكم له أو عليه .

وأول هذه الظروف أن العالم الاسلامى فى تلك الفترة الحضارية لم يكن متواصل الأجزاء ، بل كان منقسما إلى دويلات متباعدة ، وفى كل قسم مشكلاته التى كانت تستوعب اهتمامات الناس فيه ، دون أن يرد احتمال نهوض فريق لإنقاذ فريق آخر من خطر يتهدده ، فقد كانوا جميعا غارقين فى الأخطار .

فأهل الأندلس فى الغرب كانوا يواجهون صليبيى أسبانيا وفرنسا ، وأهل الشام فى شمالى البلاد كانوا يواجهون الصليبيين القادمين من أوربا إلى جهة الشرق .

---

(١) استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩١ هـ .

(٢) الأخلاق عند الغزالى ص ٢٤ .

وكانت الأمور كما أشار الدكتور عبد الرحمن بدوى غاية فى الاضطراب فى خراسان وما حولها ، وكذلك كان الحال فى بغداد ، هذا من الناحية العامة .

وأما من ناحية الغزالى بخاصة فإنه قصد إلى الحج سنة ٤٨٩ هـ ، مارا بدمشق وبالقدس وبالخليل ، قبل أن تخطو إلى هذه البلاد قدم صليبية واحدة ، وقد غادرها إلى الحج ثم إلى بغداد (دار السلام) ، قبل أن يتعاظم خطر الصليبيين ، ويفرض الرعب على المنطقة بأسرها فى الشام وفلسطين ومصر .

فلا موضع لعقد مقارنة بين الغزالى وبطرس الناسك[1] ، تلك الشخصية الحاقدة التى أشعلت فى أوروبا نار الحقد على المسلمين ، فى حين كان الغزالى يضىء فى عالم الإسلام شموع المعرفة ، وينشر بكتابه (إحياء علوم الدين) خير ما خوطب به العقل المسلم فى تاريخه .

ولذلك لا نعجب إذا رأينا كتاب الإحياء خاليا من أى حديث عن الجهاد ، على الرغم من أن الجهاد جزء من عقيدة الإسلام ، وفريضة من فرائضه ، فقد كانت حاجة الناس فى المجتمع الذى كان يعيش فيه الغزالى إلى التعاليم الأخرى أكثر من حاجتهم إلى مفاهيم الجهاد ، بمعنى القتال ، فكل جهد يبذل فى تربية النفس جهاد حق ، ولقد كان الغزالى يرى الناس فى عصره يتقاتلون ، ولا تغمد لهم سيوف ، فما كان أحوجهم إلى مزيد من التربية ، ومعرفة الحلال والحرام ، والمهلكات والمنجيات ، طبقا لخطته الشاملة فى الإصلاح .

وهذا تحقيق لمعنى الجهاد بالمعنى الأشمل .

---

(١) بطرس الناسك أشد الدعاة المسيحيين حماسا ونشاطا ، وهو جندى قديم قد ترهب ، وأصبح مجذوبا شديد التعصب « حضارة العرب لجستاف ليبون ص ٣٠١ » .

وقد قام هذا الرجل يبشر بالحروب الصليبية لعامة الناس ، وكان يقص عليهم إن صدقا وإن كذبا قصة حجه إلى بيت المقدس ، ويحدثهم عن التدمير المنطوى على الاستهانة البالغة الذى أنزله الأتراك السلجوقيون بالقبر المقدس ، وطوّف حافى القدمين فى ثياب خشنة ، وممتطيا حمارا وحاملا صليبا ضخما ، بأنحاء فرنسا وألمانيا ، وهو يخطب فى كل مكان به جماهير حاشدة ، فى كنيسة أو شارع أو سوق . وقد استجاب لبطرس الناسك ولأمثاله آلاف الناس ، وتكون من هذه الالآف خمسة فيالق ، يطلق عليها فى التاريخ « الحملة الصليبية الشعبية » . . .

موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٥١١ .

كتاب الإحياء مقربا

من تقديم الكتاب

أحمد الله أولا ، حمدا كثيرا متواليا ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين .

وأصلي وأسلم على رسله ثانيا صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .

وأستخيره تعالى ثالثا فيما انبعث عزمي من تحرير كتاب في « إحياء علوم الدين » .

وأنتدب لقطع تعجبك رابعا أيها العاذل المتغالى في العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف في التقريع والانكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ، فقد حل عن لسانى عقدة الصمت ، وطوقنى عهدة الكلام ، وقلادة النطق ، ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيرا عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعا في نيل ما تعبد الله تعالى به من تزكية النفس ، وإصلاح القلب ، وتداركا لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائسا عن تمام حاجتك في الحيرة ، وانحيازا عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه :

أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه[1] .

ولعمرى أنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذى عم الجم الغفير ، بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر ، والجهل بأن الأمر

---

(١) رواه الطبراني في الصغير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

إدّ[1] والخطب جدّ ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب والسفر بعيد ، والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سدّ ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ ، وسلوك طريق الآخرة ، مع كثرة الغوائل من غير دليل ، ولا رفيق متعب ومكدّ ، فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان[2] ، ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، حتى صار علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام[3] ، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، ما سمّاه الله سبحانه فى كتابه : فقها وحكما وعلما وضياءا ونورا وهداية ورشدا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار منسيا .

ولما كان ثلما[4] فى الدين ، ملمّا وخطبا مدلهمّا ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهمّا : إحياء لعلوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحا لمباهى العلوم النافعة ، عند النبيين والسلف الصالحين .

وقد أسسته على أربعة أرباع هى :

ربع العبادات ـــ ربع العادات ـــ ربع المهلكات ـــ ربع المنجيات .

وصدّرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم ، لأكشف أولا عن العلم الذى تعبد الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه ، إذ قال رسول

---

(١) الأمر الاد : الشديد السريع .

(٢) شغر الزمان : خلا وفرغ .

(٣) الطَّغام : أراذل الناس وأوغادهم .

(٤) الثلم : الكسر والقطع .

الله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم[1] ، وأميز فيه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : نعوذ بالله من علم لا ينفع[2] ، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، وانخداعهم بلامع السراب ، واقتناعهم من العلم بالقشر عن اللباب .

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث أنس ، وضعّفه أحمد والبيهقي .

(٢) رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

الربـــع الأول
العبــادات

الكتاب الأول : العلــــم

وفيه سبعة أبواب .

الباب الثانى :

فى العلم المحمود والمذموم ، وأقسامهما ، وأحكامهما ، وفيه بيان ما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو تفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذى هو فرض عين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو بالصين[1] ، واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على الغلم الذى هو بصدده .

فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته .

---

(١) رواه ابن عدى والبيهقى من حديث أنس ، وقال البيهقى : متنه مشهور وأسانيده ضعيفة .

وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ تعرف به العبادات والحلال والحرام ، وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة .

وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها .

وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم[1] ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل .

وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس ، وتمييز لمة[2] الملك من لمة الشيطان .

وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومه .

وقال أبو طالب المكى : هو العلم الذى يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الاسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا اله إلا الله[3] . . . إلى آخر الحديث . لأن الواجب هذه الخمس ، فيجب العلم بكيفية العمل فيها ، وبكيفية الوجوب .

والذى ينبغى أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره ، وهو أن العلم كما قدمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلى : علم معاملة وعلم مكاشفة .

وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة ، والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ــ فعل ــ ترك .

فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة ، وفهم معناهما ، وهو قول لا إله الا الله محمد رسول الله ، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك

---

(١) أى علم التصوف .

(٢) لمة : هيئة وسمة .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل ، فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت ، وكان العلم الذى هو فرض عين عليه فى الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا ، فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب هذا مات مطيعا لله عز وجل غير عاص .

وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض ، وليس ذلك ضروريا فى حق كل شخص ، بل يتصور الانفكاك عنها ، وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل ، وإما فى الترك ، وإما فى الاعتقاد .

أما الفعل :

فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر ، تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحا ، وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت ، بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه ، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل ، فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا فى بقية الصلوات .

فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم ، وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس ، وأن الواجب فيه : النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال ، أو شاهدين .

فإن تجدد له المال أو كان له مال عند بلوغه ، لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه فى الحال ، إنما يلزمه عند تمام الحول[1] من وقت الإسلام .

فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل ، وكذلك فى سائر الأصناف .

فإذا دخل إلى أشهر الحج لم يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخى ،

---

(١) الحول : السنة .

فلا يكون تعلمه على الفور . ولكن ينبغى لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة .

فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم الحج ، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله[1] ، فإن فعل ذلك نفل ، فعلمه أيضا نفل ، فلا يكون تعلمه فرض عين ، وهكذا التدرج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين .

وأما الترك :

فيجب علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص ، إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدوى ما يحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضا واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه ، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه ، كما لو كان عند الإسلام لابسا حريرا ، أو جالسا فى الغصب[2] ، أو ناظرا إلى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك . وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب ، فيجب تعليمه ، حتى إذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، فيجب تعليمه ذلك ، وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب :

فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة ، فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك ، فان لم يخطر له ذلك ، ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم ، وأنه مرئى ، وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات ، فقد مات على الإسلام إجماعا ، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع ، وبعضها يخطر بالسماع من أهل

---

(١) النوافل : السنن الواجبة وغير الواجبة .

(٢) الغصب : المسروق .

البلد ، فإن كان فى بلد شاع فيه الكلام ، وتناطق الناس بالبدع فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها ، بتلقينه الحق ، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه ، وربما عسر ذلك .

كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع فى البلد معاملة الربا ، وجب عليه تعلم الحذر من الربا ، وهذا هو الحق فى العلم الذى هو فرض عين ، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب . . . .

. . . .

الباب الخامس :

فى آداب المتعلم والمعلم

بيان وظائف المرشد المعلم :

اعلم أن للإنسان فى علمه أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال :

إذ لصاحب المال حال فيكون مكتسبا .

وحال ادخار لما اكتسبه ، فيكون به غنيا عن السؤال .

وحال انفاق على نفسه ، فيكون منتفعا .

وحال بذل لغيره ، فيكون به سخيا متفضلا ، وهو أشرف أحواله .

فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال ، فله حال طلب واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير ، وهو أشرف الأحوال .

فمن علم وعمل فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فإنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب .

والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن

الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق ، كما قيل :

مَـا هُـو إلا ذُبالـةٌ وُقِـدَتْ   تضىءُ للناسِ وهْـىَ تَحتـرقُ[1]

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه :

الوظيفة الأولى

الشفقة على المتعلمين ، وأن يُجْرِيَهُمْ مُجْرَى بنيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما أنا لكم مثل الوالد لولده[2] ، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين .

فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة . أعنى معلوم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك ، وإهلاك نعوذ بالله منه .

وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا ، فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق ، والترافق فى الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التوادّ والتحاب ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق فى طريقه ؟

---

(١) القائل هو : العباس بن الأحنف . وهو شاعر غزل رقيق ، من اليمامة توفى سنة ١٩٢ هـ .

(٢) أخرجه أبو داوود والنسائى وابن ماجه وابن حيّان من حديث أبى هريرة .

ولا ضيق فى سعادة الآخرة ، فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة فى سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم . والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : إنما المؤمنون إخْوَةٌ[1] ، وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : الأَخِلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين[2] .

الوظيفة الثانية

أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على افادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ، ولا شكرا ، بل يعلّم لوجه الله ، وطلبا للتقرب إليه ، ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم اذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك فيها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ .

ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب ، فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى ، كما قال عز وجل : ويا قَوْمِ لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجْرِىَ إلاَّ عَلَى الله[3] ، فإن المال وما فى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم ، إذ به شرف النفس .

فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رؤوسهم عند ربهم .

وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم ، فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفى غيرهما ؟ .

---

(١) سورة الحجرات (٩) .

(٢) سورة الزخرف (٦٧) .

(٣) سورة هود (٢٩) .

فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ، ولو تركوا ذلك لُتِركوا ، ولم يُخْتَلف إليهم ، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة ، وينصر وليّه ويعادى عدوّه ، وينتهض جهارا له فى حاجاته ، ومسخرا بين يديه فى أوطاره ، فإن قصر فى حق ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ، ثم يفرح بها ، ثم لا يستحى أن يقول : غرضى من التدريس نشر العلم تقربا إلى الله تعالى ونصرة لدينه .

فانظر إلى الامارات ترى ضروب الاغترارات .

الوظيفة الثالثة

أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلىّ ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب من الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه ، بأقصى ما يمكن ، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده .

فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذى يطلبه ، فإن كان هو علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام ، فيمنعه من ذلك ، فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ، ولا من العلوم التى قيل فيها : تعلمنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله ، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث ، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ، ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها ، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه ، فإنه يثمّر له طمعا فى الوعظ والاستتباع ، ولكن قد يتنبه فى أثناء الأمر أو آخره ، إذ فيه العلوم المخوّفة من الله تعالى ، المحقّرة للدنيا ، المعظّمة للآخرة ، وذلك يوشك أن يؤدى إلى الصواب فى الآخرة حتى يتّعظ بما يعظ به غيره .

ويجرى حُبُّ القبول والجاه مجرى الحَبِّ الذى يُنثر حوالى الفخ ليقُتنص به الطير ، وقد فعل الله ذلك بعباده ، إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل .

وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم ، وهذا متوقع فى هذه العلوم ، فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة ، فلا يزيد التجرد

لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا فى الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته ، أو مزج به غيره من العلوم الدينية ، ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة .

فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد والله المستعان .

وقد رؤى سفيان الثورى[1] رحمه الله حزينا فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جُعِلَ قاضيا أو عاملا أو قهرمانا[2] .

الوظيفة الرابعة

وهى من دقائق صناعة التعليم ، أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض إن أمكن ولا يصرّح . وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم : لو مُنِّع الناس من فت البعر لفتّوه ، وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء[3] .

وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام ، وما نهيا عنه فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا ، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة ، والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ، ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

---

(١) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى الكوفى ، كان إماما فى علم الحديث ، أجمع الناس على دينه وورعه وثقته وزهده ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، كتب له المهدى عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه فى حكم ، فأخذه ورمى به فى دجلة ، وهرب وانتقل إلى البصرة ، فمات فيها أول سنة ١٦١ هـ متواريا عن السلطان . وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٩١ .

(٢) القهرمان : مدبر البيت ومتولى شئونه .

(٣) هذا الحديث لا وجود له .

الوظيفة الخامسة

أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقل محض وسماع ، وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه . ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ؟ .

فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريقة تعلم فى غيره .

وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله . فينفره أو يلخبط عليه عقله ، اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : نحن معاشرَ الأنبياءِ أُمِرْنَا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلَهم ونُكلمهَم على قَدْرِ عُقُولِهِمْ[1] .

فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم[2] .

وقال على رضى الله عنه — وأشار إلى صدره — : إن هاهنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة .

وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ .

---

(١) روى فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير ، من حديث عمر ، مختصرا عنه ، وعند أبى داوود من حديث عائشة : أنزلوا الناس منازلهم .

(٢) لم نعثر عليه .

وقال عيسى عليه السلام : لا تُعَلِّقُوا الجواهرَ فى أعناقِ الخنازيرِ ، فإن الحكمةَ خيرٌ من الجوهرِ ، ومن كرهها فهو شرٌّ من الخنازير .

ولذلك قيل : كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كتم علمًا نافعًا جاء يومَ القيامةِ مُلْجَمًا بلجامٍ من نار[1] ؟ . فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقهه وكتمته فليلجمنى . فقد قال الله تعالى : ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكم[2] . تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى .

وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق .

أأنْثُرُ دُرّاً بينَ سارحةِ النَّعَمْ ... فأصبحَ مخزونا براعيةِ الغَنَمْ

لأنهمْ أمْسَوْا بجهلٍ لقدرِهِ ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم

فإن لطف اللهُ اللطيف بلطفِه ... وصادفت أهلا للعلوم وللحِكَمْ

نشرتُ مفيدًا واستفدت مودةً ... وإلا فمخزون لدىّ ومُكْتَتَمْ

فمن مَنَح الجهّالَ علمًا أضاعه ... ومن مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فقد ظَلَمْ[3]

الوظيفة السابعة

أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له وراء هذا تدقيقا ، وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد ضعيف ، ورواه أبو داوود والترمذى وابن حبّان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرَة . قال الترمذى حديث حسن .

(٢) سورة النساء (٥) .

(٣) المستوجب : المستحق للعلم ، والمقصود بالجهال : السفهاء والحمقى .

إلا وهو راض عن الله سبحانه فى تمام عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله .

وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ، ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف ، من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغى أن يُخلّى وحرفته ، فإنه لو ذُكر له تأويلات الظاهر ، انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى ، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره ، بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار ، كما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ، ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك .

وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث ، فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الوظيفة الثامنة

أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر .

فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سمٌ مهلك سخر ، الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .

ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ؟ ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟

ولذلك قيل فى المعنى :

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[1]

وقال الله تعالى : أتأمرون الناسَ بالبِرِّ وتنسَوْنَ أنفسَكُم[2] . ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكثر من وزر الجاهل ، إذ يزل[3] بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على رضى الله عنه : قَصَمَ ظهرى رجلان ، عالمٌ مَتَهَتِّكٌ وجاهلٌ مَتَنَسِّكٌ ، فالجاهل يَغُرُّ الناسَ بِتَنَسُّكِه ، والعالم يَغُرُّهُمْ بَتَهَتُّكِه . والله أعلم .

---

(١) القائل هو : أبو الأسود الدؤلى ، من سادات التابعين وأعيانهم ، وكان من أكمل الرجال رأيا وأسدهم عقلا ، وهو أول من وضع علم النحو ، صاحب عليا رضى الله عنه . توفى بالبصرة سنة ٩٦ هـ . وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٣٩ .

(٢) سورة البقرة (٤٤) .

(٣) يزل : يسقط وينحرف .

ربع العبادات

الكتاب الثانى : قواعد العقائد

وفيه أربعة أبواب :

الباب الثالث

لوامع الأدلة للعقيدة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين ، وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين ، وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين ، حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول « لا اله إلا الله محمد رسول الله » ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه الشهادة من الأقطاب والوصول ، وعرفوا أن كلمتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله ، وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان ، وهى أربعة ، ويدور كل ركن منها على عشرة أصول .

---

(١) هذا الفصل حرره فى القدس منفصلا وسماه (الرسالة القدسية فى قواعد العقائد) .

الركن الأول

فى معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان ، وأنه يرى وأنه واحد .

الركن الثانى

فى صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

الركن الثالث

فى أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأن له إيلام البرىء ولا يجب عليه رعاية الأصلح[1] ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثه الأنبياء جائز ، وأن نبوة نبينا ثابتة مؤيدة بالمعجزة .

الركن الرابع

فى السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهى إثبات الحشر والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة .

---

(١) هذا القول مبنى على انعدام من يوجب على الله ذلك لاستحالة وجود ارادة فوق ارادته .

الركن الثانى

العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول

العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله : وهو على كلِّ شىءٍ قدير[1] ، صادق لأن العالم محكم فى صنعته ، مرتب فى خلقته ، ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف ، متناسب التطريز والتطريف ، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن ميت لا قدرة له ، كان منخلعا عن غريزة العقل ، ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل .

الأصل الثانى

العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات ، لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، صادق فى قوله : وَهُوَ بكلِّ شىءٍ عليم[2] ، ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى : أَلاَ يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ[3] ، أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم أنك لا تستريب فى دلالة الخلق اللطيف ، والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف ، على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف ، فما ذكره الله تعالى هو المنتهى فى الهداية والتعريف .

الأصل الثالث

العلم بكونه عز وجل حيا ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تُصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات ، بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات .

---

(١) سورة الملك (١) .

(٢) سورة الأنعام(١٠١) .

(٣) سورة الملك(١٤) .

الأصل الرابع

العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله ، فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ، فهو المبدىء المعيد والفعال لما يريد ، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده ؟ وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده . والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة ، فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين . ولو أغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة ، لأنه سبق العلم بوجوده فيه .

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى سميع بصير ، لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير ، وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصمّاء ، وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته ، والكمال فى خلقه وصنعته ، أو كيف تستقيم حجة ابراهيم ﷺ على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا ، فقال له : لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبصِرُ ولاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً [١]، ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ، ودلالته ساقطة ، ولم يصدق قوله تعالى : وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ عَلَى قَومِهِ[٢] . وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا قلب ودماغ ، فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما .

الأصل السادس

أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ، ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، كما لا يشبه وجوده وجود غيره ،

---

(١) سورة مريم (٤٢) . (٢) سورة الأنعام (٨٣) .

والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قُطِّعَتْ حروفا للدلالات كما يُدَلُّ عليها تارة بالحركات والإشارات .

وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ، ولم يلتبس على جهلة الشعراء ، حيث قال قائلهم :

إن الكلامَ لَفِي الفؤادِ وإنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلاَ

ومن لم يعقلُهُ عقله ولا نهَاهُ نُهَاه عن أن يقول : لسانى حادث ، ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك ، وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء . وأن الباء قبل السين فى قولك : « بسم الله » ، فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما ، فنزّه عن الالتفات إليه قلبك ، فلله سبحانه « سر » فى إبعاد بعض العباد ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [(1)] ، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون ، وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل فى حاسة السمع ما عقله فى حاسة البصر .

وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه من العبارات .

وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مثقال ذرة من القلب ، وأن كل ذلك مرئى ، فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة ، فليعقل كون الكلام مقرؤا بالألسنة ، محفوظا فى القلوب ، مكتوبا فى المصاحف ، من غير حلول ذات الكلام فيها . إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق ، وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ولاحترق .

---

(1) سورة الزمر (٢٣) .

الأصل السابع

أن الكلام القائم بنفسه قديم ، وكذا جميع صفاته ، إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ، ما يجب للذات ، فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات ، بل لم يزل فى قِدَمه موصوفا بمحامد الصفات ، ولا يزال فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات ، لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

الأصل الثامن

أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدث من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى ، إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ، ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس ، لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر .

فهكذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى .

الأصل التاسع

أن إرادته قديمة ، وهى فى القدم تعلقت بأحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وَفْقِ سَبْقِ العلم الأزلى ، إذ لوكانت حادثة لصار محل الحوادث ....

الأصل العاشر

أن الله تعالى عالم بعلم ، حى بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم كقوله غنى بلا مال ، وعلم بلا عالم ، وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة ، كالقتل والمقتول والقاتل . وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ، ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل ، كذلك لا يتصور عالم بلا علم ، ولا علم بلا معلوم ، ولا معلوم بلا عالم ، بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل ، لا ينفك بعض منها عن البعض ...

ربع العبادات

الكتاب الثالث : أسرار الطهارة

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الثانى

طهارة الأحداث

ومنها : الاستنجاء والوضوء والغسل والتيمم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وفى لفظ آخر : ولم يسه فيهما غفر الله له ما تقدم من ذنبه [1] .

وقال ﷺ أيضا : ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ : إسباغ الوضوء على المكاره ، ونقل الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ــ ثلاث مرات [2] .

وتوضأ ﷺ مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله صلاة إلا به . وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين أتاه الله أجره مرتين . وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال : هذا وضوئى ووضوء الأنبياء قبلى ، ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام [3].

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا ، وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان ، وأخرجه أبو داوود من حديث زيد بن خالد .

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف .

وقال ﷺ : من ذكر الله عند وضوئه ، طَهّر الله جسده كله ، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء [١].

وقال ﷺ : من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات [٢]. وقال : الوضوء نور على نور [٣] . وهذا كله حث على تجديد الوضوء .

وقال عليه السلام : إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض ، خرجت الخطايا من فيه ، وإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه ، وإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار[٤] عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من أظفاره ، وإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه ، وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له [٥] .

ويروى أن الطاهر كالصائم [٦] .

قال عليه الصلاة والسلام : من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال : أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء [٧] .

وقال عمر رضى الله عنه : إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان .

وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهرا ، ذاكرا ، مستغفرًا ، فليفعل ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

---

(١) رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف .

(٢) أخرجه أبو داوود والترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف .

(٣) غير موجود .

(٤) الأشفار : منابت الشعر فى الجفون .

(٥) أخرجه أبو داوود وابن ماجه من حديث الصنابحى ، إسناده صحيح ، وعند مسلم من حديث أبى هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصرا .

(٦) أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث عمرو بن حريث (الطاهر النائم كالصائم القائم) وسنده ضعيف .

(٧) أخرجه أبو داوود من حديث عقبة بن عامر ، وهو عند مسلم دون قوله ثم رفع هكذا ، وقد رواه النسائى ، وكذا الدارمى فى مسنده . الطرف : البصر .

ربع العبادات

الكتاب الرابع : أسرار الصلاة ومهماتها

وفيه سبعة أبواب :

المقدمـــة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله الذى غمر عباده بلطائفه ، وعمّر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه ، التى تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه ، فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء ، بترغيب الخلق فى السؤال والدعاء فقال : هل من داع فأستجيب له ؟ وهل من مستغفر فأغفر له ؟

وباين[1] السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب ، فرخص للعباد بالمناجاة فى الصلوات ، كيفما تقلبت بهم الحالات فى الجماعات والخلوات ، ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة ، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه وأتم لطفه وأعّم إحسانه .

والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى[2] ، وعلى آله وأصحابه ، مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى[3] وسلم تسليما .

أما بعد .. فإن الصلاة عماد الدين وعصام اليقين ، وغرة الطاعات . وقد استقصينا فى فن الفقه ــ فى بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه ــ أصولها وفروعها ، صارفين جِمام[4] العناية إلى تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة ، لتكون خزانة للمفتى ، منها يستمد ، ومعولا له إليها يفزع ويرجع .

---

(١) باين : اختلف عنهم .

(٢) المجتبى : المختار المصطفى .

(٣) الدجى : الظلام الدامس .

(٤) جمام : معظم .

ونحن الآن فى هذا الكتاب نقتصر على ما لابد للمريد منه من أعمالها الظاهرة ، وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية فى معانى الخشوع والإخلاص والنية ، ما لم تجر العادة بذكره فى فن الفقه ، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب ....

الباب الثالث

فى الشروط الباطنة من أعمال القلب

الفصل الثانى

بيان الدواء النافع فى حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل ، وخائفا منه ، وراجيا له ، ومستحييا من تقصيره ، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه ، فانفكاكه عنها فى الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر ، وتقسيم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة .

ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا يُدفع الشىء إلا بدفع سببه ، فلتعلم سببه .

وسبب موارد الخواطر : إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا فى ذاته باطنا .

أما الخارج : فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعد ذلك الأفكار سببا للبعض ، ومن قويت نيته وعلت همته ، لم يلهه ما جرى على حواسه ، ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره ، أو يصلى فى بيت مظلم ، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته ، حتى لا تتسع مسافة بصره . ويحترز من الصلاة على الشوارع ، وفى المواضع المنقوشة المصنوعة ، وعلى الفرش المصبوغة .

ولذلك كان المتعبدون يتعبدون فى بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ، ليكون

٨

ذلك أجمع للهم . والأقوياء منهم يحضرون المساجد ويغضون البصر ، ولا يجاوزون به موضع السجود ، ويرون كمال الصلاة فى ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم .

وكان ابن عمر لا يدع فى موضع الصلاة مصحفا ولا سيفا إلا نزعه ، وكتابا إلا محاه .

أما الأسباب الباطنة : فهى أشد ، فإن من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لا ينحصر فكره فى فن واحد ، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب ، وغض البصر لا يغنيه .

فإن ما وقع فى القلب من قبل كاف للشغل ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه فى الصلاة ، ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع .

ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه ، فلايترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره .

قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبى شيبة : إنى نسيت أن أقول لك أن تخمرّ القدر الذى فى البيت [١] فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل الناس عن صلاتهم ، فهذا طريق تسكين الأفكار .

فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته ، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات ، وقطع تلك العلائق فكل ما يشغله عن صلاته هو ضد دينه ، وجند إبليس عدوه ، فإمساكه أضر عليه من إخراجه ، فيتخلص منه بإخراجه ، كما روى أنه ﷺ لما لبس الخميصة [٢] التى أتاه بها أبو

---

(١) أخرجه أبو داوود من حديث عثمان الحجبى وهو عثمان بن طلحة ، كما فى مسند أحمد ، وليس عثمان بن أبى شيبة كما ذكر الغزالى . والمراد بقوله : تخمر : تغطى .

(٢) الخميصة : ثوب أسود أو أحمر له أعلام .

جهم وعليها علم ، وصلى بها ، نزعها بعد صلاته ، وقال ﷺ : اذهبوا بها إلى أبى جهم ، فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى ، وائتونى بأنبجانية[1] أبى جهم[2].

وأمر رسول الله ﷺ بتجديد شراك نعله ، ثم نظر إليه فى صلاته ، فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق[3] .

وكان رسول الله ﷺ قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها ، فسجد وقال : تواضعت لربى عز وجل حتى لايمقتنى[4] ثم خرج بها ودفعها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يشترى له نعلين سِبْتيتين[5] جرداوين[6] فلبسهما .

وكان صلى الله ﷺ فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم ، وكان على المنبر ، فرماه وقال : شغلنى هذا ، نظرةٌ إليه ونظرةٌ إليكم[7] .

وروى أن أبا طلحة صلى فى حائط[8] وفيه شجر ، فأعجبه دُبْسيٍ[9] طار فى الشجر يلتمس مخرجا ، فأتبعه ببصره فلم يدركم صلى ؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ، ثم قال : يا رسول الله هو صدقة ، فضعه حيث شئت .

وعن رجل آخر أنه صلى فى حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ، ولم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه وقال : هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل . فباعه عثمان بخمسين ألفا .

فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر ، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة ، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ، ولا يغنى غيره .

---

(١) الانبجانية : ثوب مصنوع فى الهند .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) الخلق : البالى .

(٤) أخرجه أبو عبد الله بن حقيق من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

(٥) النعال السبتية : المدبوغة بالقرظ .

(٦) الجرداء : لا شعر عليها .

(٧) أخرجه النسائى من حديث ابن عباس بإسناد صحيح . وليس فيه بيان إن كان الخاتم ذهبا أو فضة .

(٨) حائط : بستان صغير .

(٩) دبسى : ضرب من الحمام .

فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين ، والرد إلى فهم الذكر ، فذلك ينفع فى الشهوات الضعيفة ، والهمم التى لا تشغل إلا حواشى القلب .

فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين ، فلا تزال تجاذبها وتجاذبك ، ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة .

ومثاله : رجل أراد أن يصفو له فكره ، وكان تحت شجرة ، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه فلم يزل يطيرها بخشبة فى يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير ، فيعود إلى التنفير بالخشبة ، فقيل له : إن هذا كسير السوانى [1] ولا ينقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة .

فذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار ، وانجذاب الذباب إلى الأقذار ، والشغل يطول فى دفعها ، فإن الذباب كلما ذُبَّ آبَ ، ولأجله سمى ذبابا .

فكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات كثيرة ، وقلما يخلو العبد عنها ، ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ، وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد .

ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شىء منها ، لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن فى أن تصفو له لذة المناجاة فى الصلاة .

فإن من فرح بالدنيا ، لا يفرح بالله سبحانه ومناجاته .

وهمة الرجل مع قرة عينيه [2] فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ، ولكن مع هذا لا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة ، وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر ، لمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالا . حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا

(١) فى الأصل : (إن هذا أسير السوانى ولا ينقطع) ولا معنى له ، وإنما هو كما أثبتناه ، مثل قيل : (سير السوانى سفر لا ينقطع) ، والسوانى (ج) سانية : وهى الناقة التى يُستقى عليها . والمراد : أن وجود العصافير سوف يستمر أبدا كسير السوانى الذى لا ينقطع . ويبدو أن الكلمة قد وقع فيها تصحيف بأن طارت رأس الكاف فصارت ألفا .

(٢) قرة العين : ما يرضى ويسر .

أنفسهم فيها بأمور الدنيا ، فعجزوا عن ذلك ، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس ، لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة فى القلب مثل الماء الذى يصب فى قدح مملوء بخل ، فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة لا يجتمعان .

ربع العبادات

الكتاب الخامس : أسرار الزكاة

وفيه أربعة أبواب :

الباب الثالث

فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

أسباب وظائف القابض وهى خمسة

الأولى

أن يعلم أن الله عز وجل صرف الزكاة إليه ليكفى همه ، ويجعل همومه هما واحدا . فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر ، وهو المعنى بقوله تعالى : وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإنس إلا لِيعبدُونِ[1] .

ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همه ، اقتضى الكرم افاضة نعمة تكفى الحاجات ، فأكثر الأموال وصبّها فى أيدى عباده لتكون آلة لهم فى دفع حاجاتهم ، ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية ، فأقحمه فى الخطر . ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمى المشفق مريضه ، فزوى[2] عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب فى الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء ، فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت ، فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ، ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة ، وهذا منتهى النعمة .

---

(١) سورة الذاريات (٥٦) .

(٢) زوى عنه : ذهب به وطواه .

فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ، ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه ــ كما سيأتى فى كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى ــ فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا له ، وعونا له على الطاعة ، ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله ، فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل ، فإن استعان به على معصية كان كافرا لِأنعُمِ الله عز وجل ، مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه .

الثانيـــة

أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة وطريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة . وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله سبحانه ، فقد قال ﷺ : مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ[1] .

وقد أثنى الله عز وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها ، وفاطر القدرة عليها ، نحو قوله تعالى : نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَابٌ [2] ، إلى غير ذلك .

وليقل القابض فى دعائه : طهّر الله قلبك فى قلوب الأبرار ، وزّكى عملك فى عمل الأخيار ، وصلى روحك فى أرواح الشهداء . وقد قال ﷺ : من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم كافأتموه [3].

ومَن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع ، ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه .

فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام ، وعلى كل عبد القيام بحقه ، وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه .

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه منَ حديث أبى سعيد الخدرى ، وله ولأبى داود ولابن حبّان ونحوه من حديث أبى هريرة . وقال حسنٌ صحيح .

(٢) سورة (ص) (٣٠) .

(٣) أخرجه أبو داوود والنسائى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح .

وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل ، فإن من لايرى الواسطة واسطة فقد جهل . وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا .

الثالثــة

أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع ، عنه : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعلْ له مخْرجاً ويرزقه من حيثُ لا يَحْتَسبُ[1]ـــ ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال .

فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ، ومن أكثر كسبه من الحرام ، إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ، فإن فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به ـــ على ما سيأتى فى كتاب الحلال والحرام ـــ وذلك إذا عجز عن الحلال ، فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة ، إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام .

الرابعــة

أن يتوق مواضع الريبة والإشتباه فى مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق ، فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل . وإن أُعْطِىَ زيادةً أبى وامتنع ، إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به .

وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء [2]إلى مقصده .

وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد ، وليس له حد ، وكذا زاد السفر . والوَرَعُ تُركُ ماَ يَرِيبُه إلى مالا يَرِيبُه .

وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أثاث بيته ، وثيابه وكتبه ، هل فيها ما يستغنى

---

(١) سورة الطلاق (٢) .

(٢) كراء : أجرة .

عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفى ، ويفضل بعض قيمته ، وكلُّ ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق ، وطرف آخر مقابل يتحقق أنه غير مستحق ، وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد فى هذا على قول الأخذ ظاهرا .

وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسع ، ولاتحصر مراتبه ، وميل الورع إلى التضييق ، وميل المتساهل إلى التوسيع ، حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع ، وهو ممقوت فى الشرع .

ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة ، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل . ومن حيث إن رسول الله ﷺ ادّخر لعِيالِه قوتَ سَنةٍ[1] .

فهذا أقرب ما يحد به حد الفقير والمسكين . ولو اقتصر على حاجةِ شَهرِه أو حاجة يَوْمِهِ فهو أقرب للتقوى .

ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة . فمن مُبالِغٍ فى التقليل ، إلى حدٍّ أوجبَ الاقتصارَ على قوتِ يومه وليلته ، وتمسكوا بما روى سهل ابن الحنظلية ، أنه ﷺ نهى عن السؤال مع الغنى ، فسئل عن غناه فقال رسول الله ﷺ : غداؤه وعشاؤه[2] .

وقال آخرون : يأخذ إلى حد الغنى ، وحد الغنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء . فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة .

وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود أنه ﷺ قال : من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش فسئل : وما غناه ؟ قال : خسمون درهما أو قيمتها ذهبا[3] .

---

(١) أخرجه أبو داوود والنسائى من حديث عمر (كان يعزل نفقة أهله سنة) ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس : كان إذا ادخر لأهله قوت سنة ، تصدق بما بقى ، قال الذهبى : حديث منكر .

(٢) أخرجه أبو داوود وابن حبّان بلفظ : من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم .

(٣) أخرجه أصحاب السنن ، وحسنه الترمذى ، وضعفه النسائى والخطابى .

وقيل : راويه ليس بقوى .

وقال قومٌ : أربعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعا أنه ﷺ قال : من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال[1] .

وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة ، فيستغنى به طول عمره ، أو يهيىء بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى .

وقد قال عمر رضى الله عنه : إذا أعطيتم فَأَغْنُوا ، حتى ذهب قومٌ إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ، ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال .

ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة .

فقال ﷺ : اجعله فى قرابتك فهو خير لك[2]. فأعطاه حسان وأبا قتادة .

فحائط من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر[3] لها ، فهذا ما حكى فيه .

فأما التقليل إلى قوت اليوم ، أو الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب ، وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال ، وهو أيضا مائل إلى الإسراف .

والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة ، فما وراءه فيه خطر وما دونه التضييق .

وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف ، فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع : استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك[4]. كما قاله رسول الله ﷺ ، إذ الإثم حزاز القلوب .

---

(١) أخرجه أبو داوود والنسائى من رواية عطاء من رجل من بنى اسد متصلا ، وليس بمنقطع كما ذكر المصنف ، لأن الرجل صحابى فلا يضر عدم تسميته . وأخرجه أبو داوود والنسائى وابن حبّان من حديث أبى سعيد .

(٢) أخرجه مالك عن عبد الله بن أبى بكر .

(٣) الظئر : المرضعة .

(٤) أخرجه أحمد من حديث وابصة .

فإذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذه ، فليتق الله فيه ، ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر ، فإن لفتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات ، والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين ، وعادات السالكين لطريق الآخرة .

الخامسة

أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوق الثُّمن [1] فلا يأخذه منه ، لأنه لا يستحق مع شريكه إلا الثُّمن ، فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه .

وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فإنهم لا يراعون هذه القسمة ، إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ، ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يُغَلِّب الظن احتمال التحريم .

وسيأتى ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال ، فى كتاب الحلال والحرام إن شاء الله .

---

(١) يحدد المؤلف الثُّمن باعتبار أن مصارف الزكاة ثمانية كما وردت فى الآية القرآنية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبُهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيلِ الله وابن السبيلِ فريضةً من الله والله عليم حكيم . سورة التوبة (٦٠) .

والمؤلفة قلوبهم : حديثو العَهد بالإسلام يراد تثبيتهم على الإيمان .

وفى الرقاب : عتق الأرقاء .

والغارمين : المدينين .

وابن السبيل : المسافر وليس معه ما يعينه على السفر .

الباب الرابع

فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص [1] والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل ، فإن فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين ، ولأنه ربما لايكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز ، وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع .

وقال قائلون : يأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب . ولو ترك المساكينُ كلُّهم أخذَ الزكاة لأثموا ، ولأن الزكاة لا منّة فيها وإنما هى حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين .

ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا .

وأخذ الصدقة أخذ بالدين ، فإن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ، ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ، إذ قد يأخذ الانسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنها ، وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته .

والقول الحق فى هذا يختلف بأحوال الشخص ، وما يغلب عليه وما يحضره من النية ، فإن كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة ، فإذا علم أنه مستحق قطعا ، كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير ، وليس له وجه فى قضائه فهو مستحق قطعاً [2].

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد أبو إسحق الخواص ، كان أوحد المشايخ فى وقته ، من أقران الجنيد ، ولد فى سرمن رأى ومات فى جامع الرى سنة ٢٩١ هـ - سنة ٩٠٤ م ، له كتب مصنفة ، والخواص : بائع الخوص . الأعلام ج١ ص ٢٨ .

(٢) فى هذه العبارة يقرر الغزالى أن دليل الاستحقاق هو أن يكون مدينا بما أنفقه فى خير ، وأن لا يملك قضاء دينه بأى وجه ، فإذا كان الدين أنفق فى وجه من وجوه الشر لم يكن ثمة استحقاق لأخذ الزكاة . وإذا كان له وجه آخر لقضاء دينه فلا استحقاق أيضا .

فإذا خير بين الزكاة وبين الصدقة ــ فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو ــ فليأخذ الصدقة ، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ، وفى ذلك تكثير للخير ، وتوسيع على المساكين .

وإن كان المال معرضا للصدقة ، ولم يكن فى أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير ، والأمر فيهما يتفاوت ، وأخذ الزكاة أشد فى كسر النفس وإذلالها فى أغلب الأحوال ، والله أعلم .

ربع العبادات

الكتاب السادس : أسرار الصوم

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الثانى

أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات

صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .

أما صوم العموم

فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله .

وأما صوم الخصوص

فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص

فصوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية . ويحصل الفطر فى هذا الصوم فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر [1]، والفكر للدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة ، وليس من الدنيا ، حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير

(١) الكلام على حذف متعلق وتقديرة : ويحصل الفطر بالتفكير فيما سوى الله .

ما يفطر عليه ، كتبت عليه خطيئة ، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل ، وقلة اليقين برزقه الموعود .

وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ، ولا يطول النظر فى تفصيلها قولا ، ولكن فى تحقيقها عملا ، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قوله عز وجل :

قُلِ اللهُ . ثم ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[1] .

وأما صوم الخصوص : وهو صوم الصالحين ، فهو كف الجوارح عن الآثام ، وتمامه بستة أمور :

الأمر الأول

غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر إلى كل ما يذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل ، قال ﷺ : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله ، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته فى قلبه [2].

وروى جابر عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : خمس يُفَطِّرْنَ الصائمَ : الكذبُ والغيبةُ والنميمةُ واليمينُ الكاذبةُ والنظرُ بشهوةٍ[3].

الأمر الثانى

حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء[4] وإلزامه السكوت ، وشغله بذكر الله سبحانه ، وتلاوة القرآن ، فهذا صوم اللسان .

---

(١) سورة الأنعام (٩١) .

(٢) أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة .

(٣) أخرجه الأزدى . من رواية جابان عن أنس ، وقوله جابر تصحيف .

(٤) المراء : المبالغة فى الجدل بالحق وبالباطل .

وقد قال سفيان[1] : الغيبة تفسد الصوم ، رواه بشر [2] بن الحارث رضى الله عنه .

وروى ليث[3] عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام : الغيبة والكذب .

وقال ﷺ : إنما الصوم جُنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم[4] . وجاء فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا[5] ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذناه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : قل لهما قِيئاَ فيه ما أكلتما . فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا[6] ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال ﷺ : هاتان صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا ما أكلتا من لحومهم[7] .

الأمر الثالث

كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، لأن كل ما حُرِّمَ قوله حُرِّم الإصغاء إليه ، ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت ، فقال تعالى : سَمَّاعُونَ للكَذِبِ أَكَّالُونَ للسُّحْتِ[8] .

---

(١) هو سفيان الثورى .

(٢) بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء والمتورعين ، وهو من ثقاة رجال الحديث . أصله من مَرْو ، سكن بغداد وتوفى بها فى محرم سنة ٢٢٧ هـ . (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٦)

(٣) الليث بن سعد إمام أهل مصر فى الفقه والحديث ، كان ثقة سخيا ومن الكرماء والأجواد ، ولد فى قلقشندة من الوجه البحرى بمصر ، وتوفى فى شعبان سنة ١٧٥ هـ . (وفيات الأعيان ج٤ ص ١٢٨)

(٤) أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة جُنة : وقاية من الشهوات .

(٥) تتلفا : تموتا .

(٦) عبيط وغريض : طرى .

(٧) أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ بسند فيه مجهول .

(٨) سورة المائدة(٤٢) . السحت : ما خبث وقبح من المكاسب كالرشوة ونحوها .

وقال عز وجل : لَوْلاَ يَنْهاهُمُ الرَّبانِيُّونَ والأَحْبارُ عَنْ قَولِهِمُ الإِثْمَ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ[1] ، فالسكوت عن الغِيبَةِ حرامٌ ، وقال تعالى : إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ[2] .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : المغتابُ والمستمعُ شريكان فى الإثم[3] .

الأمر الرابـع

كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ، ثم الإفطار على الحرام . فمثال هذا الصائم مثال : من يبنى قصرا ويهدم مِصْراً .

فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه ، فالصوم لتقليله .

وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها .

والحرام سم مهلك للدين ، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره ، وقصد الصوم تقليله ، وقد قال ﷺ : كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش[4].

فقيل هو الذى يفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ، ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذى لا يحفظ جوارحه من الآثام .

الأمر الخامس

أن لايستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث يمتلىء جوفه ، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال .

وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام . حتى استمرت العادات

---

(١) سورة المائدة (٦٣) .

(٢) سورة النساء (١٤٠) .

(٣) حديث غريب وللطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (نهى رسول الله ﷺ عن الغِيبة وعن الاستماع إلى الغِيبة) .

(٤) أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان ، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل فى عدة أشهر .

ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء[1] ، وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت ، زادت لذتها وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها .

فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم . فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه .

بل من الآداب ألا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ، ويستديم فى كل ليلة قدرا من الضعف حتى يخفف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء .

وليلة القدر عبارة عن الليلة التى ينكشف فيها شىء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاه فى لَيْلَةِ القَدرِ[2] ، ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ، ما لم يخل همته من غير الله عز وجل ، وذلك هو الأمر كله ، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام ، وسيأتى له مزيد بيان فى كتاب الأطعمة إن شاء الله .

الأمر السادس

أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقا مضطربا بين الخوف والرجاء . إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين ، أو يرد عليه فهو من الممقوتين .

---

(١) الخواء : الفراغ .

(٢) سورة القدر (١) .

وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها . فقد روى عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه مر على قوم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا[1] لخلقه يستبقون فيه لطاعته ، فسبق قوم وتخلف أقوام فخابوا . فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون ، أما والله لو كُشِف الغطاء[2] لاشتغل المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك .

وعن الأحنف بن قيس[3] أنه قيل له : إنك شيخ كبير ، وإن الصيام يضعفك فقال : إنى أُعدّه لسفر طويل ، والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه .

فهذه من المعانى الباطنة فى الصوم .

---

(١) المضمار : مكان السباق .

(٢) كشف الغطاء : تجلت الحقيقة .

(٣) هو أبو بحر المعروف بالأحنف بن قيس التميمى ، من سادات التابعين ، يضرب بحلمه المثل ، ولد بالبصرة وأدرك النبى ﷺ ولم يره ، وتفقه بعلى وابن مسعود ، واسلم قومه بإشارته توفى بالكوفة سنة ٧٢ هـ . شذرات الذهب ج ١ ص ٧٨ .

ربـــع العبـادات

الكتاب السابع : أسرار الحــج

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الثالث :

الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة ، وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ، ومعانيها من أول الحج إلى آخره .

اعلم أن أول الحج الفهم ــ أعنى فهم موقع الحج فى الدين ــ ثم الشوق إليه ، ثم العزم عليه ، ثم قطع العلائق المانعة منه ، ثم شراء ثوب الإحرام ، ثم شراء الزاد ، ثم اكتراء الراحلة ، ثم الخروج ، ثم المسير فى البادية ، ثم الإحرام والتلبية من الميقات ، ثم دخول مكة ، ثم استتمام الأفعال كما سبق .

وفى كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر ، وعبرة للمعتبر ، وتنبيه للمريد الصادق ، وتعريف وإشارة للفطن[1] .

فلنرمز إلى مفاتيحها حتى إذا انفتح بابها ، وعُرفت أسبابها ، انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه ، وطهارة باطنه ، وغزارة فهمه .

---

(١) الفَطِن : الذكى السريع اللمح .

أما الفهـــم

فاعلم أن لا وصول إلى الله تعالى إلا بالتنزه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، والاقتصار على الضرورات فيها ، والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات .

ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة عن الخلق ، وانحازوا إلى قُلل[1] الجبال ، وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل ، فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة ، وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة ، طمعاً فى الآخرة ، وأثنى الله عز وجل عليهم فى كتابه فقال : ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[2].

فلما اندرس ذلك ، وأقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل ، وفتروا عنه ، بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها . فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه ، فقال ﷺ : أبدلنا الله بها الجهاد والتَكْبير على كل شرف[3] يعنى الحج .

وسئل ﷺ عن السائحين فقال : هم الصائمون[4] .

فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، ونصبه مقصدا لعباده وجعل ما حواليه حرما لبيته ، تفخيما لأمره .

وجعل عرفات كالميزاب [5] على فناء حوضه ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب [6] سحيق ، شعثا غبرا ، متواضعين لرب البيت ومستكينين له

---

(١) القُلل : جمع قلة ، وهى القمة .

(٢) سورة المائدة (٨٢) .

(٣) أخرجه أبو داوود من حديث أبى أمامة . ورواه الطبرانى بلفظ آخر ، وكذلك البيهقى من حديث أنس : رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله . وكلاهما ضعيف ، ورواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٤) أخرجه البيهقى من حديث أبى هريرة ، وقال المحفوظ : عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

(٥) الميزاب : ما يسيل منه الماء من فوق الأسطح .

(٦) أوب : ناحية وجهة .

خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته. مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت، أو يكتنفه بلد، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم، وأتم فى إذعانهم وإنقيادهم.

ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس، ولاتهتدى إلى معانيها العقول: كرمى الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار.

وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة إرفاق [1] ووجهه مفهوم، وللعقل إليه ميل. والصوم كسر للشهوة التى هى آله عدو الله، وتفرد للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل.

فأما ترددات السعى، ورمى الجمار، وأمثال هذه الأعمال فلا حظٌ للنفوس فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وفيه عزل للعقل عن تصرفه، وصرف للنفس والطبع عن محل أنسه. فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما، فيكون ذلك الميل معينا للأمر، باعثا معه على الفعل، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ فى الحج على الخصوص: لبيك بحِجّة حقا تَعَبُّدا ورِقًّا [2]، ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع، فيترددون فى أعمالهم على سنن الانقياد، وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق، مقتضى الاسترقاق.

وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات.

وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى.

---

(١) ارفاق: رفق ونفع.

(٢) أخرجه البزّار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس.

وأما الشوق

فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل ، وأنه وضع على مثال حضرة الملوك ، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل ، وزائر له ، وأن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة فى ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم فى دار القرار من حيث إن العين القاصرة الفانية فى دار الدنيا لا تتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطيق احتماله ، ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن امتدت فى الدار الآخرة بالبقاء ، ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم .

فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم

فيلعلم أنه بعزمه قاصدا إلى مفارقة الأهل والوطن ، ومهاجرة الشهوات واللذات ، متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم فى نفسه قدر البيت ، وقدر رب البيت .

وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه ، خطير أمره ، وأن من طلب عظيما خاطر بعظيم .

وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه ، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة . وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وأن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره .

فليصحح مع نفسه العزم ، وتصحيحه بإخلاصه ، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة . فليحذر أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأما قطع العلائق

فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى ، عن جملة المعاصى ، فكل مظلمة عَلاقةٌ ، وكل عَلاقةٍ مِثْل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادى عليه ويقول : إلى أين تتوجه ؟ أتقصد بيت ملك الملوك ؟ وأنت مضيعٌ أمْرَه فى منزلك هذا ، ومستهين به ومهمل له ؟ أَوَلاَ تستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى فيردَّك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغبا فى قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم ، وتب إليه أولا من جميع المعاصى ، واقطع عَلاَقَةَ قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك ، كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك .

فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلا النصَب والشقاء ، وآخراً إلا الطرد والرد .

وليقطع العلائق عن وطنه انقطاع من قُطِعَ عنه ، وقَدَّر ألا يعود إليه ، وليكتب وصيته لأولاده وأهله ، فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه .

وليتذكر عند قطع العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة ، فإن ذلك بين يديه على القرب ، وما يقدمه من هذا السفر طمعٌ فى تيسير ذلك السفر . فهو المستقر وإليه المصير .

فلا ينبغى أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد لهذا السفر .

وأما الزاد

فليطلبه من موضع حلال ، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره ، وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد ، فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى ، وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر ، فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لا حيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التى هى زاده إلى الآخره لا تصحبه بعد الموت ، بل يفسدها شوائب الرياء ، وكدورات[1] التقصير .

---

(١) الكدورة : قلة الصفاء ، وكدورات التقصير : ماينشأ عنه من اختلاط وكدر .

وأما الراحلة

إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى ، وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه !! وما يُدْرِيهِ ، لعل الموت قريب ، ويكونَ ركوبُه للجنازة قبل ركوبه الجمل .

وركوب الجنازة مقطوع به ، وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه ، فكيف يحتاط إلى أسباب السفر المشكوك فيه ، ويستظهر فى زاده وراحلته ، ويهمل أمر السفر المستيقن ؟ .

وأما شراء ثوبى الإحرام

فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه ، فإنه سيرتدى ويتزر بثوبى الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل ، وربما لا يتم سفره إليه ، وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا فى ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته فى الزى والهيئة ، فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا .

وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن .

وأما الخروج من البلد

فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل فى سفر ، لا يضاهى أسفار الدنيا . فليحضر فى قلبه أنه : ماذا يريد ؟ وأين يتوجه ؟ وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك فى زمرة الزائرين له ، الذين نودوا فأجابوا ، وشُوِّقُوا فاشتاقوا ، واستُنْهِضُوا فنَهَضوا ، وقطعوا العلائق ، وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى فخم أمره وعظم شأنه ، ورفع قدره . تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت ، إلى أن يُرْزَقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم .

وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول ، لا إدلالا[1] بأعماله فى الارتحال ، ومفارقة الأهل والمال ، ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ، ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته .

وليرج أنه إن لم يصل وأدركته المنية فى الطريق ، لقى الله عز وجل وافدا إليه ، إذ قال جل جلاله :

وَمَنْ يخرجْ من بيتِهِ مهاجراً إلى اللهِ ورسولِهِ ثم يُدْرِكْهُ الموتُ فقد وقع أجرُهُ على اللهِ [2] .

وأما دخول البادية إلى الميقات[3] ، ومشاهدة تلك العقبات

فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة ، ومابينهما من الأهوال والمطالبات وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه ، وما فيه من الأفاعى والحيّات ، ومن انفراده من أهله وأقاربه بوحشة القبر وكربته ووحدته .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات

فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل ، فارج أن تكون مقبولا ، واخش أن يقال لك : لا لبيك ولا سعديك .

فكن بين الرجاء والخوف متردداً ، وعن حولك وقوتك متبرئا ، وعلى فضل الله عز وجل متكلا ، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر ، وهى محل الخطر .

---

(١) الادلال : هو الانبساط بالعمل الذى يصل الى الاغترار .

(٢) سورة النساء / ١٠٠ .

(٣) الميقات : هو المكان الذى يحرم منه الحاج أو المعتمر ولا يتجاوزه دون أن يحرم .
وقد بيّن رسول الله ﷺ المواقيت وهى :
ــ ميقات أهل المدينة (ذو حليفة) أو آبار على : وهو موضع بينه وبين مكة ٤٥٠ كم ، ويقع على شمالها .
ــ ميقات أهل مصر والشام (رابغ) وهو موضع يقع إلى الشمال الغربى من مكة وعلى بعد ٢٠٤ كم .
ــ ميقات أهل اليمن (يلملم) وهو جبل يقع جنوبى مكة بينه وبينها ٥٤ كم .
ــ ميقات أهل نجد (قرن المنازل) وهو جبل شرق مكة ، بينه وبينها ٩٤ كم وهو يطل على عرفات .
ــ ميقات أهل العراق (ذات عرق) وهو موضع فى الشمال الشرقى لمكة بينه وبينها ٩٤ كم .
وكلها مواقيت لأهل تلك البلاد ، أو لمن مربها . (فقه السنة ج ١ ص ٦٥٣) .

قال سفيان[1] بن عيينة : حج على[2] بن الحسين رضى الله عنهما ، فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه ، وانتفض ووقعت عليه الرِعدة ، ولم يستطع أن يلبى ، فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك ، فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : كنت مع أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه حين أراد الإحرام ، فلم يلب حتى سرنا ميلا ، ثم أفاق وقال : يا أحمد ، إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : مُرْ ظَلَمَةَ بنى إسرائيل أن يُقِلُّوا من ذكرى ، فإنى أذكُرُ من ذكرنى منهم باللعنةِ . ويحكَ يا أحمد بلغنى أن من حج من غير حِلِّهِ ثم لبى ، قال الله عز وجل : لا لبيك ولاسعديك حتى تَرُدَّ ما فى يديك . فما نأمنُ أن يُقالَ لنا ذلك .

وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال : وأَذِّنْ فى النَّاسِ بالحَّج[3] . ونداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم فى القبور ، وازد حامهم فى عرصات[4] القيامة ، مجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين . ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات ، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمامُ الحج وقبولُه أم لا ؟ .

وأما دخول مكة

فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل ، وليخش ألا يكون أهلا للقرب ، فيكون بدخوله الحرم خائبا ومستحقا للمقت .

(١) سفيان بن عيينة : محدث الحرم المكى وكان من الموالى ، ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفى بها سنه ١٩٨ هـ ، كان حافظا ثقة واسع العلم كبير القدر ، حج سبعين سنة . (الأعلام جـ ٣ ص ١٠٥) .

(٢) هو أبو الحسن المعروف بزين العابدين ، ويقال له على " الأصغر ، وهو أحد الأئمة الاثنى عشر ، ومن سادات التابعين ، وأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس ، ولد سنة ٣٨ هـ وتوفى سنة ٩٤ هـ ودفن فى البقيع فى قبر عمه الحسن والعباس رضى الله عنهم . (وفيات الأعيان جـ ص ٢٦٩) .

(٣) سورة الحج (٢٧) .

(٤) عرصات : ساحات .

وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات غالبا ، فالكرم عميم والرب رحيم ، وشرف البيت عظيم ، وحق الزائر مرعى ، وذمام[1] المستجير اللائذ[2] غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت

فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ، ويقدر أنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكرم كما رزقك النظر إلى بيته العظيم .

واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة ، وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند انصباب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ، ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين .

ولاتغفل عن ذكر أمور الآخرة فى شىء مما ترى ، فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت

فاعلم أنه صلاة ، فأحضر فى قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه فى كتاب الصلاة . واعلى أنك بالطواف متشبه بالملائكة ، والمقربين الحافِّين[3] حول العرش ، الطائفين حوله ، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت ، حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ، ولاتختم إلا به ، كما تبتدىء الطواف بالبيت وتختم بالبيت .

واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبيه ، وأن البيت مثال ظاهر فى عالم الملك لتلك الحضرة التى لا تشاهد بالبصر ، وهى عالم الملكوت . كما أن البدن مثال ظاهر فى عالم الشهادة للقلب الذى لا يشاهد بالبصر وهو عالم الغيب ، وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الله الباب .

---

(١) الذمام : العهد والأمان .

(٢) اللائذ : الخائف .

(٣) الحافين : (ج) حافّ المحدق والملتف .

وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور فى السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت .

ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان .

ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم[1] ، والذى يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذى يقال : إن الكعبة تزوره وتطوف به ، على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام[2]

فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته ، فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك ، فمن غدر فى المبايعة استحق المقت ، وقد روى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : الحجر الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه[3] .

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم

فلتكن نيتك فى الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ورب البيت ، وتبركا بالمماسة ، ورجاء للتحصن عن النار فى كل جزء من بدنك لاق البيت . ولتكن نيتك فى التعلق بالستر إلالحاح فى طلب المغفرة ، وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه ، المتضرع إليه فى عفوه عنه ، المظهر له أن لا ملجأ له منه إلا إليه . ولامفزع له الا كرمه وعفوه ، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن فى المستقبل .

وأما السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت

فإنه يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا ، مرة بعد أخرى ، إظهارا

---

(١) حديث أخرجه أبو داوود من حديث ابن عمر بسند صحيح .

(٢) الاستلام : تقبيل الحجر الأسود ولمسه .

(٣) روى ذلك الحديث عبد الله بن عمرو .

للخلوص فى الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول ورد ؟

فلا يزال يتردد على فناء الدار ، مرة بعد أخرى ، يرجو أن يُرحَمَ فى الثانية إن لم يُرحَمْ فى الأولى . وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة ، وليمثل الصفا بكفة الحسنات ، والمروة بكفة السيئات .

وليتذكر تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان ، مترددا بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة

فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق ، وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم فى الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا بسيرهم — عرصات القيامة ، واجتماع الأمم ، مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل أمة نبيها ، وطمعهم فى شفاعتهم ، وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبَك الضراعةَ والابتهالَ إلى الله فتحشر فى زمرة الفائزين المرحومين ، وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف ، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق ، بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض .

ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد ، وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت إلى أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة . فلاتظنن أنه يخيب أملهم ، ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم .

ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له .

وكأن اجتماع الهمم ، والاستظهار بمجاورة الأوتاد والأبدال المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج ، وغاية مقصوده ، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله تعالى مثل اجتماع الهمم ، وتعاون القلوب فى وقت واحد .

وأما رمى الجمار

فاقصد به الانقياد للأمر اظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموقع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة ، طردا له وقطعا لأمله .

فإن خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك ، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه ، وأنه يضاهى اللعب ، فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير بالرمى فيه برغم أنف الشيطان .

واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة ، وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان ، وتقصم ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ، تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهَدْى[1]

فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدْىَ ، وارجُ أن يعتق الله تعالى بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد[2] .

فكلما كان الهدى أكبر ، وأجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعم .

وأما زيارة المدينة

فإذا وقع بصرك على حيطانها ، فتذكر أنها البلدة التى اختارها الله عز وجل لنبيه ﷺ ، وجعل إليها هجرته ، وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، إلى أن توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها ، وتربة وزيريه[3] القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما . ثم مثل فى نفسك مواقع

(١) الهدْىُ : على الحاج المتمتع ، والحاج القارن ، أما الحاج المُفْرد فلا هدى عليه .

(٢) هذا الحديث ليس له أصل ، وقد ورد من حديث أبى سعيد قوله ﷺ لفاطمة رضى الله عنها : فإن لك بأول قطرة تقطر من دمها ، أن يغفر لك ما تقدم من ذنوبك وقد ورد بإسناد ضعيف .

(٣) الوزيران : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها ، وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة ، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل .

وتذكر مشيه وتخطيه فى سككها ، وتصور خشوعه وسكينته فى المشى ، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ، ورفعه ذكره مع ذكره تعالى ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته .

ثم تذكر ما منّ الله به على الذين أدركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته ، واستماع كلامه ، وأعْظِمْ تأسفَك على ما فاتك من صحبته ، وصحبة أصحابه رضى الله عنهم .

ثم اذكر أنك قد فاتك رؤيته فى الدنيا ، وأنك من رؤيته فى الآخرة على خطر . وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة ، وقد جعل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال ﷺ : يرفعُ اللهُ إلى أقواماً فيقولون : يا محمد ، فأقول : ياربِّ أصحابى ، فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول : بُعْداً وسُحْقاً[1] .

فإن تركت حرمة شريعته ، ولو فى دقيقة من الدقائق ، فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعد ذلك عن محجته .

وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه ، بعد أن رزقك الإيمان ، وأشْخَصَكَ من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولاحظ فى دنيا ، بل لمحض حبك له وشوقك أن تنظر إلى آثاره ، وإلى حائط قبره ، إذ سمحت نفسك للسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته ، فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة .

فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التى اختارها الله تعالى لنبيه ﷺ ، ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة ، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت فى تلك العرصة ، وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا ، فليعظم أملك فى الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعا معظما .

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس .

وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن ، كما حكى عن أبى سليمان أنه قال : حج أويس القرنى رضى الله عنه ، ودخل المدينة ، فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبى ﷺ . فغشى عليه ، فلما أفاق ، قال : أخرجونى ، فليس يَلَذُّ لى بلد فيه محمد ﷺ مدفون .

وأما زيارة رسول الله ﷺ

فينبغى أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، وكما كنت ترى الحرمة فى ألا تمس شخصه ، ولاتقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه ، فكذلك فافعل ، فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة اليهود والنصارى .

واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصلاتك ، فمثّل صورته الكريمة فى خيالك موضوعا فى اللحد[1] بإزائك ، وأحضر عظيم رتبته فى قلبك .

فقد روى عنه ﷺ :

أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته[2] .

هذا فى حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الوطن ، وقطع البوادى شوقا إلى لقائه ، واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة ؟ . وقد قال ﷺ :

من صلى علىّ مرة واحدة صلى الله عليه عشرا[3] ، فهذا جزاؤه فى الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟ .

ثم ائت منبر رسول الله ﷺ ، وتوهم صعود النبى ﷺ المنبر ، ومثل فى قلبك طلعته البهية ، كأنها على المنبر ، وقد أحدق[4] به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم ،

(١) اللحد : الشق يكون فى جانب القبر للميت .

(٢) أخرجه النسائى وابن حبّان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ : (إن لله ملائكة ، سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام)

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو .

(٤) أحدق : أحاط .

وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته . وسل الله عز وجل أن لا يفرق بينك وبينه . فهذه وظيفة القلب فى الحج .

فإذا فرغ منها كلها فينبغى أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف ، وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت فى زمرة[1] المحبوبين ، أم رُدّ حجه وألحق بالمطرودين ؟ .

وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأنس بالله تعالى ، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع ، فليثق بالقبول ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته ، وكف عنه سطوة إبليس عدوه لعنه الله .

فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

---

(١) زمرة : جماعة .

ربع العبادات

الكتاب الثامن : آداب تلاوة القرآن

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول

فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه .

وقال ميسرة : الغريب هو القرآن فى جوف الفاجر .

وقال أبو سليمان الدارانى[1] : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل ، منهم إلى عبدة الأوثان ، حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن .

وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ فقيل له : مالك ولكلامى .

قال ابن الرماح[2] : ندمت على استظهار القرآن لأنه بلغنى أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة .

وقال ابن مسعود : ينبغى لحامل القرآن أن يُعْرف بليله إذا الناس ينامون ، وبنهاره إذا الناس يفرطون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون .

وينبغى لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا ، ولاينبغى أن يكون جافيا ولا ممارياً[3] ، ولا صيّاحا ولا صخّاباً[4] ولا حديداً ، وقال ﷺ :

(١) أبو بكر بن سليمان بن حبيب الدارانى ، قاض من ثقاة التابعين ، من أهل الشام ، استمر على قضاء دمشق ثلاثين عاما ، توفى سنة ١٢٠ هـ . (الأعلام جـ ٣ ص ١٢٢) .

(٢) أحد القراء .

(٣) الممارى : المجادل بالباطل

(٤) الصخاب : عالى الصوت والضجيج .

أكثر منافقى هذه الأمة قرّاؤها[1] . وقال ﷺ :
اقرأ القرآن ما نهاك ، فإن لم ينهك فلست تقرؤه[2] . وقال ﷺ :
ماآمَن بالقُرآن من استَحَلَّ محارِمَه[3] .

وقال بعض السلف : إن العبد ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة ، حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه ، وإلا لعنته .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم ، يقول : ألا لَعْنَةُ الله علىٰ الظَالِمِين[4] . وهو ظالم نفسه ، وألا لَعْنَةُ الله على الكاذِبين[5] . وهو منهم .

وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل ، وجعلتم الليل جملا ، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار .

وقال ابن مسعود : أنزل القرآن عليهم ليعملوا به ، فاتخذوا دراسته عملا ، وإن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا ، وقد أسقط العمل به .

وفى حديث ابن عمر ، وحديث جنُدب رضى الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها ، وآمرها وزاجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها . ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب وخاتمته لا يدرى ما آمره ولا زاجره ، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه يَنْثُره نَثْر الدَّقَلِ[6] .

---

(١) أخرجه أحمد من حديث عقبه بن عامر وعبد الله بن عمرو .
(٢) أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .
(٣) أخرجه الترمذى من حديث صهيب ، وقال ليس اسناده بقوى .
(٤) سورة هود (١٨) .
(٥) أنظر آية (٦١) من آل عمران ، ونصها : ثم نَبْتَهِلْ فنجعل لعنةَ اللهِ على الكاذبين .
(٦) الدقل : أردأ التمر .

وقد ورد فى التوراة : « يا عبدى .. أما تستحى منى ، يأتيك كتاب من بعض إخوانك ، وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شىء منه ، وهذا كتابى أنزلته إليك أنظر كم فصّلت لك فيه من القول ، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ، ثم أنت معرض عنه ، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبدى : يقعد إليك بعض إخوانك[1] ، فتقبل عليه بكل وجهك ، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك ، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه ، أومأت إليه أن كُفّ ، وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك ، وأنت معرض بقلبك عنى ، أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك ؟ » .

الباب الثانى

فى ظاهر آداب التلاوة

وهى عشرة :

الأدب العاشر

تحسين القراءة وترتيبها بترديد الصوت من تمطيط مفرط ، يغير النظم ، فذلك سنة . قال ﷺ : زينوا القرآن بأصواتكم[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : ما أذن الله لشىء إذنه لحسن الصوت بالقرآن[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يَتَغَنّ بالقرآن ، فقيل أراد به الاستغناء ، وقيل أراد به الترنم ، وترديد الألحان به ، وهو أقرب عند أهل اللغة .

وروى أن رسول الله ﷺ كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها ، فأبطأت عليه فقال ﷺ : ما حَبَسَك ؟ قالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوت منه ، فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلا ، ثم رجع ، فقال ﷺ :

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه علَى شرط الشيخين والبيهقى .

(٢) أخرجه أبو داوود والنسائى وابن ماجه ، وابن حبّان والحاكم ، وصححه من حديث البراء بن عازب .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ : ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن وزاد مسلم لنبى حسن الصوت وفى رواية كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن .

هذا سالم مولى أبى حذيفة ، الحمدُ للهِ الذى جعل فى أمتى مثله[1] .

واستمع ﷺ أيضا ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فوقفوا طويلا ، ثم قال ﷺ : من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد[2] .

وقال ﷺ لابن مسعود : اقرأ علىّ فقال : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزِلَ ؟.. فقال ﷺ : إنى أحب أن أسمعه من غيرى[3] . فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان .

واستمع ﷺ إلى قراءة أبى موسى فقال : لقد أوتى هذا من مزامير آل داود[4] فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبّرته[5] لك تحبيرا .

ورأى هيثم القارىء رسول الله ﷺ فى المنام قال : فقال لى : أنت الهيثم الذى تزين القرآن بصوتك ؟ قلت : نعم . قال : جزاك الله خيرا .

وفى الخبر كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن .

وقد كان عمر يقول لأبى موسى رضى الله عنهما : ذكّرنا ربّنا . فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط ، فيقال : يا أمير المؤمنين الصلاة .. الصلاة . فيقول : أولسنا فى صلاة ؟ . إشارة إلى قوله عز وجل : وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرَ[6] .

وقال ﷺ : من استمع الى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة .

وفى الخبر كتب له عشر حسنات[7] . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالى هو السبب فيه ، كان شريكا فى الأجر ، إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع .

---

(٢) أخرجه أحمد والنسائىّ فى « الكبرى » من حديث عمر . والترمذى وابن ماجة من حديث ابن مسعود قال الترمذى : حسن صحيح .

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) متفق عليه من حديث أبى موسَى الأشعرى .

(٥) حبّر : نمّق وزيّن .

(٦) سورة العنكبوت (٤٥) .

(٧) أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة ، وفيه ضعف وانقطاع .

ربع العبادات

الكتاب التاسع : الأذكار والدعوات

وفيه خمسة أبواب :

الباب الثانى
فى آداب الدعاء وفضله . وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى : وإذا سألَكَ عِبَادى عنّى فإنّى قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الدَّاع إذا دَعانِ فلْيَستَجِيبُوا لِي[1] .
وقال تعالى : ادْعوا ربّكم تَضرُّعا وخفْية إنّه لا يُحبُّ المعْتَدِين[2] .
وقال تعالى : وقال ربُّكُم ادعُونى أستَجِبْ لكُم إنّ الذّين يسْتكْبِروُن عَنْ عِبادَتِى سَيدْخُلونَ جَهَنّم داَخِرِين[3] .
وقال عز وجل : قل أدْعُوا الله أو ادْعُوا الرّحْمن أياًّ ماَ تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى[4] .

---

(١) سورة البقرة (١٨٦) .
(٢) سورة الأعراف (٥٥) .
(٣) سورة غافر (٦٠) دَخَر ، فهو داخر : أى ذل وصغر وهان .
(٤) سورة الاسراء (١١٠) .

وروى النعمان بن بشير عن النبى ﷺ أنه قال : إن الدعاء هو العبادة[1] ثم قرأ : (ادعونى أستجب لكم) .
وقال ﷺ : الدعاء مُخُّ العبادة[2] .
وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال : ليس شىء أكرم على الله عز وجل من الدعاء[3] .
وقال ﷺ : إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث :
إما ذنب يُغفَر له ، وإما خير يُعجَّلُ له ، وإما خير يُدَّخَرُ له[4] .
وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفى من الدعاء مع البر ما يكفى الطعام مع الملح .
وقال ﷺ : سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج[5] .

الباب الثالث

فى أدعية مأثورة وَمعْزوة إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو به المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتى الفجر :

قال ابن عباس رضى الله عنهما : بعثنى العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسيا ، وهو فى بيت خالتى ميمونة[6] ، فقام يصلى من الليل ، فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح ، قال : اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شَمْلى ، وتلم بها شَعْثِى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتُبَيِّض بها وجهى ، وتُلْهِمُنِى بها رشدى ، وتَعْصِمُنى بها من كل سوء .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح الاسناد ، وقال الترمذى : حسن صحيح .
(٢) أخرجه الترمذى من حديث أنس ، وقال : غريب من هذا الوجه ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة .
(٣) أخرجه الترمذى وقال : غريب . وابن ماجه وابن حبان والحاكم ، وقال صحيح الاسناد .
(٤) أخرجه الديلمى فى الفردوس من حديث أنس ، وأخرجه ابن مسافر عن ابان بن عياش ، وكلاهما ضعيف . ولأحمد والبخارى فى الأدب والحاكم ، وصحح إسناده من حديث أبى سعيد : (وإما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخر فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها) .
(٥) أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود .
(٦) ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين.

اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء .

اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى ، وقَلَّتْ حيلتى وقَصُرَ عملى ، وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا كافى الأمور ، ويا شافى الصدور ، كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السَّعير ، ومن دعوة الثبور[1] ، ومن فتنة القبور .

اللهم ما قصر عنه رأيى ، وضعف عنه عملى ، ولم تبلغه نيتى من خير وَعَدْتَه أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك ، فإنى أرغب إليك فيه ، أسألكه يارب العالمين .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولامضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحبّ بحبك من أطاع من خلقك ، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك .

اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ذى الحبل[2] الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد ، سبحان الذى لبس العز ، وقال به ، سبحان الذى تعطف بالمجد ، وتكرّم به . سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له ، ذى الفضل والنعم ، سبحان ذى العزة والكرم ، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه .

اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى[3] ، ونورا فى دمي ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى عظامى ، ونورا من بين يدي ، ونورا من خلفي ، ونورا عن يمينى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى .

---

(١) الثبور : الخيبة والطرد .

(٢) الحبل : القوة .

(٣) البشر : الجلد .

اللهم زدنى نورا ، وأعطنى نورا واجعل لى نورا[1] .

دعاء عائشة رضى الله عنها :

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها :

عليك بالجوامع الكوامل . قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمتُ وما لم أعلم .

وأسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار ، وما قرّب إليها من قول وعمل .

وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم .

وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم .

وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين [2]

دعاء فاطمة رضى الله عنها :

قال رسول الله ﷺ : يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به ؟ أن تقولى :

ياحىُّ ياقيوُّم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله[3] .

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه :

وروى أنه قال له رسول الله ﷺ : يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله

(١) أخرجه الترمذى ، ولم يذكر فى أوله قول ابن عباس ، وقال : غريب ، وهو بهذه الزيادة فى كتاب الدعاء للطبرانى .

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم .

(٣) أخرجه النسائىُ فى اليوم والليلة والحاكم من حديث أنس ، وقال : صحيح على شرط الشيخين : (البخارى ومسلم) .

به خيرا علمهن إياه ، ثم لم يُنسِهِنَّ إياه أبدا ؟ قال بريدة : فقلت بلى يا رسول الله . قال : قل اللهم إنى ضعيف .. فقوّ فى رضاك ضعفى ، وخذ إلى الخير بناصيتى ، واجعل الإسلام منتهى رضاى .

اللهم إنى ضعيف فقوّنى ، وإنى ذليل فأعِزَّنى ، وانى فقير فأغننى ، ياأرحم الراحمين[1] ....

.. ..

الباب الخامس :

فى الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

.. إذا استيقظت من نومك عند الصباح ، فقل : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور[2] . أصبحنا وأصبح الملك لله ، والعظمة والسلطان لله ، والعزة والقدرة لله[3] ، أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين[4] .

اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير[5] .

اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ، ونعوذ بك أن نجترح[6] فيه سوءا ، أو نجره على مسلم[7] ، فإنك قلت : وهُوَ الذّى يَتَوَفَّاكُم باللّيل ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنّهارِ ثُم يَبْعَثُكُم فِيه لِيُقْضى أجلٌ مسمى[8] .

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال : صحيح الإسناد .
الناصية : شعر مقدم الرأس .

(٢) أخرجه البخارى من حديث حذيفة ، ومسلم من حديث البراء .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة ، وأخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٤) أخرجه النسائى من حديث عبد الرحمن بن أبزى ، بسند صحيح ، ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب مرفوعا .

(٥) أخرجه أصحاب السنن وابن حبّان ، وحسنه الترمذى ، إلا أنهم قالوا (وإليك النشور) .

(٦) اجترح : اكتسب ، وأكثر ما يستعمل فى الجرائم .

(٧) رواه الترمذى من حديث أبى بكر ، ورواه أبو داوود من حديث أبى مالك الأشعرى ، بإسناد جيد .

(٨) سورة الأنعام (٦٠) .

اللهم فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، أسألك خير هذا اليوم ، وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه[1] .

بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله . ما شاء الله كل نعمة من الله ، ما شاء الله الخير كله بيد الله ، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله . رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا . ربنا عليك توكلنا وإليك أَنْبنَا وإليك المصير .

وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول أمسينا ، ويقول مع ذلك : أعوذ بكلمات الله التامّات ، وأسمائه كلها من شر ما ذرأ[2] وبرأ[3] ، من شر كل ذى شر ، ومن شر كل دابة ، أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم[4] .

وإذا نظر فى المرآة قال : الحمد لله الذى سوى خلقى فعدّله ، وكرم صورة وجهى وحسنها ، وجعلنى من المسلمين[5] .

---

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد .

(٢) ذرأ : خلق .

(٣) برأ : وهو بارىء .

(٤) أخرجه أبو الشيخ من حديث عبد الرحمن بن عوف .

(٥) أخرجه الطبرانى وابن السنى من حديث أنس بإسناد ضعيف .

ربع العبادات

الكتاب العاشر : ترتيب الأوراد وتفضيل إحياء الليل

وفيه بابان :

الباب الأول

فى فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لانجاة إلا فى لقاء الله تعالى ، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا أن يموت العبد محبا لله تعالى ، وعارفا بالله سبحانه .

وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه ، وفى صفاته وأفعاله .

وليس فى الوجود سوى الله تعالى وأفعاله ، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا ، وشهواتها ، والاجتزاء[1] منها بقدر البلغة[2] والضرورة ، وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار فى وظائف الأذكار والأفكار .

والنفس لما جُبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر ، بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستثقال ، وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا .

---

(١) الاجتزاء : الاكتفاء .

(٢) البلغة : (بضم الباء) ما يكفى لسد الحاجة ولا يَفْضُل عنها .

فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتنقل من فن إلى فن ، ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت ، لتغزر بالانتقال لذتها ، وتعظم باللذة رغبتها ، وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها .

فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة ، فالذكر والفكرينبغى أن يستغرقا جميع الأوقات ، أو أكثرها ، فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا .

فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة .. مثلا . والشطر الآخر إلى العبادات ، رجّح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع ، إذ يكون الوقت متساويا ، فأنى يتقاومان . والطبع لأحدهما مرجح ، إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ، ويصفو فى طلبها القلب ويتجرد .

وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولايسلم إخلاص القلب فيه ، وحضوره إلا فى بعض الأوقات ، فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى الطاعة . ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب بالطاعة أكثر أوقاته . فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فأمره مخطر ، ولكن الرجاء غير منقطع ، والعفو من كرم الله منتظر ، فعسى الله أن يغفر له بجوده وكرمه ، فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة .

فإن لم تكن من أهله ، فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله ، واقتبسه بنور الايمان ، فقد قال الله تعالى لأقرب عباده اليه ، وأرفعهم درجة لديه :
إنّ لَكَ فى النّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً واذْكر اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إليْه تَبْتِيلاً[1] .

وقال تعالى : واذْكر اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأصِيلاً ومِنَ اللّيْل فاسْجُد لَهُ وسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلا[2] .

وقال تعالى : وسَبِّح بِحَمْد رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوع الشَّمْس وقَبْلَ الْغُرُوبِ ومِنَ اللّيْل فَسَبِّحْهُ وأدْبارَ السُّجُودِ[3] .

---

(١) سورة المزمل ٧ و ٨ .
(٢) سورة الانسان ٢٥ و ٢٦ .
(٣) سورة ق ٣٩ و ٤٠ .

وقال سبحانه : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ[1] .

وقال تعالى : إنّ ناشِئَةَ اللَّيل هِيَ أشد وطئا وأقْوَمُ قيلا[2]

وقال تعالى : ومن آنَاءِ اللَّيل فسَبِّحْ وأطْرَافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرضَى[3] .

وقال عز وجل : وأقِمْ الصَّلاَةَ طَرَفَى النَّهارِ وزُلَفا من اللَّيل إن الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ[4] .

ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده ، وبماذا وصفهم ، فقال تعالى : (أمَّنْ هُوَ قَانتُ آنَاءَ اللَّيل ساجداً وقائِماً يَحْذَرُ الآخرة ويَرْجُو رَحْمةَ ربِّه قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذين يَعْلَمُون والَّذين لا يَعْلَمُون[5] .

وقال تعالى : تَتَجافَى جُنوبُهُمْ عَنْ المَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً[6] .

وقال عز وجل : والَّذين يَبِيتُون لِربِّهِم سُجَّداً وقِياماً[7] .

وقال عز وجل : كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْل ما يَهْجعُون وبالأسحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون[8] .

وقال عز وجل : فَسُبْحانَ الله حِينَ تُمْسُون وحِينَ تُصْبِحُون[9] .

وقال تعالى : ولا تَطرُدِ الَّذين يَدْعُون رَبَّهُم بالْغَدَاةِ والعَشِّى يُرِيدُون وَجهه[10] .

فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام ، ولذلك قال ﷺ : أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى[11] .

---

(١) سورة الطور ٤٨ و ٤٩ .

(٢) سورة المزمل ٦ .
القيل : القول والرأى والمعتقد .

(٣) سورة طه ١٣٠ .
آناء :(ج) أنّى ، وهى ساعات الليل .

(٤) سورة هود ١١٤ .
زُلَفاً : (ج) زلفة وهى الجزء من الليل .

(٥) سورة الزمر ٩ .
القانت : الذى يطيل القيام فى صلاته .

(٦) سورة السجدة ١٦ .

(٧) سورة الفرقان ٦٤ .

(٨) سورة الذاريات ١٧ و ١٨ .

(٩) سورة الروم ١٧ .

(١٠) سورة الأنعام ٥٢ .

(١١) أخرجه الطبرانى والحاكم ، وقال صحيح الاسناد من حديث ابن أبى أوفى بلفظه (خيار عباد الله) .

وقد قال الله تعالى : الشَّمْسُ والقَمَرُ بُحسْبَان [1] .

وقال الله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّل ولَوْ شَاءَ لجَعَلَهُ سَاكناً ثُمَّ جَعَلْنا الشَّمس عليه دلَيِلاً ثُم قَبَضْنَاهُ إِلَيناَ قَبْضاً يَسيراً[2] .

وقال تعالى : والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ[3] .

وقال تعالى : وَهُوَ الذّى جَعَلَ لَكُم النُّجومَ لتَهْتَدُوا بِهاَ فِي ظُلُماَتِ البَّرِ والبَحْرِ[4] .

فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ، ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا ، بل لتعرف بها مقادير الأوقات ، فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة .

يدلك عليه قوله تعالى : وهُوَ الذّى جَعَلَ اللّيْلَ والنّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّر أو أرادَ شُكُوراً[5] . أى يخلف أحدهما الآخر ليتُدارك فى أحدهما ما فات فى الآخر ، وبين أن ذلك للذّكر والشكر لاغير .

وقال تعالى : وَجَعلْناَ اللّيلَ والنّهارَ آيَتَيْنْ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللّيْلِ ، وجَعَلْناَ آيَةَ النّهارِ مُبْصِرةً لتَبْتَغوُا فَضْلاً مِنْ رَبِكُم ولَتَعْلَموا عَدَدَ السِّنِين والحِسَاب[6] .

وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ، ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

---

(١) سورة الرحمٰن ٥ .
(٢) سورة الفرقان ٤٥ و ٤٦ .
(٣) سورة يس ٣٩ . منازل : (ج) منزل : وهو الموضع الذى ينزل فيه .
(٤) سورة الأنعام ٩٧ .
(٥) سورة الفرقان (٦٢) .
(٦) سورة الاسراء (١٢) .

الباب الثانى

فى الأسباب الميسرة لقيام الليل . وفى الليالى التى يستحب إحياؤها وفى فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين . وكيفية قسمة الليل

بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل :

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا .

فأما الظاهر

فأربعة أمور :

الأول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ، ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين ، لا تأكلوا كثيرا ، فتشربوا كثيرا ، فترقدوا كثيرا ، فتتحسروا عند الموت كثيرا . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام .

الثانى : أن لا يتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح ، وتضعف بها الأعصاب ، فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم .

الثالث : أن لا يترك القيلولة(١) بالنهار ، فإنها سُنة للاستعانة على قيام الليل .

الرابع : أن لا يحتقب الأوزار(٢) بالنهار ، فإن ذلك مما يقسى القلب ، ويحول بينه وبين أسباب الرحمة .

قال رجل للحسن(٣) : يا أبا سعيد إنى أبيت معا فى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طَهورى ، فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك .

وكان الحسن رضى الله عنه إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فانهم لا يُقيلون .

---

(١) القيلولة : النوم وسط النهار .

(٢) احتقب الوزر : ارتكبه .

(٣) هو الحسن البصرى .

وقال الثورى : حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته . قيل : وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلا يبكى فقلت فى نفسى هذا مراء .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى ، فقلت : أتاك نعى بعض أهلك ؟ فقال : أشد فقلت : وجع يؤلمك ؟ قال : أشد . قلت : وما ذاك ؟ قال : بابى مُغْلق ، وسِتْرِى مُسْبَل ، ولم أقرأ حزبى البارحة ، وما ذاك إلا بذنب أحدثته ، وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير ، والشر يدعو الى الشر ، والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير .

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : لا تفوت أحداً صلاةُ الجماعة إلا بذنب .

وقال بعض العلماء : إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر ، وعلى أى شىء تفطر ، فان العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ، ولا يعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وأخصها بالتأثير تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال فى تصفية القلب ، وتحريكه إلى الخير مالا يؤثر غيرها ، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له .

ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة ، وكم نظرة منعت قراءة سورة ، وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة ، فيحرم بها قيام سنة .

وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات .

قال بعض السجّانين : كنت سجّانا نّيفا[1] وثلاثين سنة ، أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء فى جماعة فكانوا يقولون لا . وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة :

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين ، وعن البدع ، وعن فضول هموم

---

(١) النيّف : من ثلاثة إلى تسعة .

الدنيا . فالمستغرق الهم بتدبير الدنيالايتيسر له القيام . فإن قام فلا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته ، ولا يجول إلا فى وساوسه ، وفى مثل ذلك يقال :

يُخبِّـرُنى البـوابُ أنَّكَ نـائم　　وأنتَ إذا استيقظتَ أيضا فَنَائِمُ

الثانى : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ، فإنه إذا تفكر فى أهوال الآخرة ، ودركات جهنم طار نومه ، وعظم حذره ، كما قال طاووس[1] : إن ذكر جهنم طيّر نوم العابدين .

وكما حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله ، فقالت له سيدته : إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار . فقال : إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم .

وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل . فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفى ، وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقى فلا أقدر أن أنام .

وقال ذو النون[2] المصرى رحمة الله :

مَنَع القُـرَانُ بوعـده ووعيـدِه　　مُقَلَ العيونِ بليلِها أن تَهْجَعَـا

فَهِمُوا عن المَلِكِ الجليلِ كلامهَ　　فرِقَابُهُـمْ ذَلَّت إليـه تَخَضُّعَـا

وأنشدوا أيضا :

يا طويـلَ الرقـادِ والغَفَـلاتِ　　كثرةُ النومِ تُورِثُ الحسَـراتِ

إن فِي القبرِ إن نزلتَ إليـه　　لرقاداً يطـولُ بعـد الممـاتِ

ومهـادًا مُمَهَّـداً لكَ فيـه　　بذنوب عملت أو حسنـاتِ

أأمنت البياتَ مِنْ مَلَكِ المـوتِ　　وكم نـال آمنـاً ببيـات

(١) هو طاووس بن كيسان الهمدانى ، من أكابر التابعين تفقها فى الدين ، وتقشفا فى العيش ، وجرأة فى وعظ الملوك والخلفاء ، أصله من الفرس وعاش فى اليمن ، وتوفى حاجا فى المزدلفة سنة ١٠٦ هـ . (الأعلام جـ ٣ ص ٢٢٤) .

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم المصرى أحد الزهاد العباد المشهورين ، نوبى الأصل ، توفى بالجيزة بمصر سنة ٢٤٥هـ .

وقال ابن المبارك[1] :

إذا ما الليلُ أظلمَ كابَدُوه فيسفرُ عنهُمُ وهُمُ ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُمُ فقاموا وأهل الأمنِ فى الدنيا هُجُوعُ

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار ، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه ، فيهيجه الشوق لطلب المزيد ، والرغبة فى درجات الجنان . كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته ، فمهدت امرأته فراشه ، وجلست تنتظره ، فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح ، فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة ، فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أتفكر فى حوراء من حور الجنة طول الليل ، فنسيت الزوجة والمنزل ، فقمت[2] طول ليلتى شوقا إليها .

الرابع : وهو أشرف البواعث : الحب لله وقوة الإيمان بأنه فى قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربَّه ، وهو مطلع عليه ، مع مشاهدة ما يخطر بقلبه ، وأن تلك الخطرات مع الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى ، أحب لا محالة الخلوة به ، وتلذذ بالمناجاة ، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام .

ولاينبغى أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل ، أما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله ، أو لملك بسبب إنعامه وأمواله ، أنه كيف يتلذذ به فى الخلوة ، ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله ، فإن قلت إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه ، وإن الله تعالى لا يرى ؟

فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر ، أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه . وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه ، وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده .

فإن قلت إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه ، وليس يسمع كلام الله تعالى .

---

(١) هو عبد الله بن المبارك التميمى المروزى الحافظ ، شيخ الاسلام المجاهد ، التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره فى الأسفار ، حاجا ومجاهدا وتاجرا ، جمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس ، كان من سكان خراسان ، ومات منصرفا من غزو الروم سنة ١٨١ هـ .(الأعلام جـ ٤ ص ١١٥) .

(٢) قام يصلى ويتهجد .

فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه ، فقد بقيت له أيضا لذة فى عرض أحواله عليه ، ورفع سريرته إليه ، كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره ، فى أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذى يخلو بالملك ، ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل ، يتلذذ به فى رجاء إنعامه ، والرجاء فى حق الله تعالى أصدق ، وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره ، فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات ؟ . وأما **النقل** : فيشهد له أحوال قوّام الليل فى تلذذهم بقيام الليل ، واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب ، حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيته قط ، يرينى وجهه ثم ينصرف ، وما تأملته بعد .

وقال آخر : أنا والليل فَرسَا رِهاَن ، مرة يسبقنى إلى الفجر ، ومرة يقطعنى عن الفكر .

وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين ، أفرح بظلمته إذا جاء ، وأغتم بفجره إذا طلع . ما تم فرحى به قط .

وقال على بن بكّار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شيء سوى طلوع الفجر .

وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتى بربى ، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس علىّ .

وقال أبو سليمان[1] : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ؛ ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا . قال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدون من اللذة ، لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم .

وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا ، إنما هى من الجنة ، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم .

---

(١) هو أبو سليمان الدارانى .

وقال ابن المنكدر[1] : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، والصلاة فى الجماعة .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين ، فيملؤها أنوارا ، فترد الفوائد على قلوبهم ، فتستنير ، ثم تنتشر من قلوبهم إلى قلوب الغافلين .

وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين : إن لى عبادا من عبادى أحبهم ويحبوننى ، ويشتاقون إلى وأشتاق اليهم ، ويذكروننى وأذكرهم ، وينظرون إلىَّ وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مَقَتُّك .

قال : يارب وما علامتُهم ؟ . قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، يحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جَنَّهُم الليل واختلط الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلىّ أقدامهم ، وافترشوا إلىّ وجوههم ، وناجونى بكلامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى .

أول ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم .

والثانية لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيها فى موازينهم ، لا ستقللتها لهم .

والثالثة أقبل بوجهى عليهم . أفترى من أقبلت بوجهى عليه ، أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ .

وقال مالك بن[2] دينار رحمه الله : إذا قام العبد يتهجد من الليل ، قرب منه الجبار عز وجل .

---

(١) هو أبو يحيى مالك بن دينار البصرى ، كان عالما زاهدا كثير الورع ، قنوعا ، لا يأكل إلا من كسبه ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة ، توفى سنة ١٣١ هـ بالبصرة . (وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٤٠) .

(٢) هو محمد بن المنكدر القرشى التيمى (من بنى تيْم) ، من رجال الحديث ، أدرك بعض الصحابة ، له نحو مائتى حديث ، توفى سنة ١٣٠ هـ . (الأعلام جـ ٧ ص ١١٢) .

وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة فى قلوبهم ، والانوار من قرب الرب تعالى من القلب ، وهذا له سر وتحقيق ستأتى الإشارة إليه فى كتاب المحبة .

وفى الأخبار عن الله عز وجل : أى عبدى .. أنا الله الذى اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت نورى .

وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل ، وطلب حيلة يجلب بها النوم ، فقال أستاذه : يابنى .. إن لله نفحات[1] فى الليل والنهار ، تصيب القلوب المتيقظة ، وتخطىء القلوب النائمة ، فتعرّض لتلك النفحات . فقال : يا سيدى تركتنى لا أنام بالليل ولابالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما فى قيام الليل من صفاء القلب ، واندفاع الشواغل ، وفى الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه اياه[2] .

وفى رواية أخرى : .. يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه ، وذلك كل ليلة .

ومطلوب القائمين تلك الساعة ، وهى مبهمة فى جملة الليل كليلة القدر فى شهر رمضان ، وكساعة يوم الجمعة ، وهى ساعة النفحات المذكورة ، والله أعلم .

---

(١) نفحات : (ج) نفحة وهى العطية .

(٢) رواه مسلم من حديث جابر .

الربع الثانى
العادات

وهو عشرة كتب .

الكتاب الأول : آداب الأكل

وهو أربعة أبواب .

الباب الرابع

فى آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة :

الدعوة أولا ثم الإجابة ، ثم الحضور ، ثم تقديم الطعام ، ثم الأكل ، ثم الانصراف ، ولنقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة

قال ﷺ : لاتَكَلَّفُوا للضيفِ فَتُبْغِضُوه . فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ، ومن أبغض الله أبغضه الله[1] .

وقال ﷺ : لا خير فيمن لا يضيف[2] .

---

(١) أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان .

(٢) أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر .

ومر رسول الله ﷺ برجل له إبل وبقر كثيرة ، فلم يُضَيِّفْه ، ومر بامرأة لها شُوَيْهَاتٌ فذبحت له ، فقال ﷺ : انظروا إليهما ، إنما هذه الأخلاق بيد الله ، فمن شاء أن يمنحه خُلقا حسناً فَعَلَ[(١)].

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : إنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال : قل لفلان اليهودى نزل بى ضيف فَأَسْلِفْنى شيئاً من الدقيق إلى رجب ، فقال اليهودى : والله ما أُسْلِفُه إلا برهنٍ . فأخبرته ، فقال : والله انى لأمين فى السماء ، أمين فى الأرض ، ولو أسْلَفَنِي لَأَدَّيْتُه ، فاذهب بدرعى وارهنه عنده[(٢)].

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل ، خرج ميلا أو ميلين ، يلتمس من يتغدى معه ، وكان يكنى أبا الضيفان ، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته فى مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقضى ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوّام الموضع[(٣)] : إنه لم يخل إلى الآن ليلة عن ضيف .

وسئل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟ فقال : إطعام الطعام وبذل السلام[(٤)].

وقال ﷺ : فى الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام[(٥)].

وسئل عن الحج المبرور فقال : إطعام الطعام وطيب الكلام[(٦)].

وقال أنس رضى الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة .

والأخبار الواردة فى فضل الضيافة والإطعام لا تحصى ، فلنذكر آدابها .

---

(١) أخرجه الخرائطي فى مكارم الأخلاق . من رواية أبى المنهال مرسلا .

(٢) رواه اسحق بن راهويه فى مسنده ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق ، وابن مردويه فى التفسير بإسناد ضعيف .

(٣) قوّام الموضع : حارس المشهد .

(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) أخرجه الترمذى ، وصححه الحاكم من حديث معاذ بن جبل .

(٦) أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ، ورواه الحاكم مختصرا ، وقال : صحيح الإسناد .

■ أما الدعوة

فينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق ، قال ﷺ : أكل طعامك الأبرار[1] دعائه لبعض من دعا لهم .

وقال ﷺ : لا تأكل إلا طعام تقى ، ولا يأكل طعامك إلا تقى[2] .

ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص ، قال ﷺ : شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء[3] .

وينبغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافته ، فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم ، وكذلك يراعىَ الترتيب فى أصدقائه ومعارفه ، فإن فى تخصيص البعض إيحاشا لقلوب الباقين .

وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر ، بل استمالة قلوب الإخوان والتسنن بسنة رسول الله ﷺ فى إطعام الطعام ، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين .

وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة ، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغى أن لا يدعو إلا من يحب إجابته ، قال سفيان : من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة ، فإن أجاب المدعوّ ، فعليه خطيئتان لأنه حمله على الأكل مع كراهة ، ولو علم ذلك لما كان يأكله .

وإطعام التقىّ إعانة على الطاعة ، وإطعام الفاسق تقوية على الفسق ، قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين ، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ . قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة ، أما أنت فمن الظلمة نفسهم .

■ وأما الإجابة

فهى سنة مؤكدة ، وقد قيل بوجوبها فى بعض المواضع . قال ﷺ : لو دُعِيتُ إلى كَرَاعٍ لأجبت ، ولو أهدى إلىّ ذراع لقبلت[3] .

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذى من حديث أبى سعيد .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

وللإجابة خمسة آداب :

الأول : لا يميز الغنى بالإجابة عن الفقير ، فذلك هو التكبر المنهى عنه ، ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة ، وقال : انتظار المرقة ذل . وقال آخر : إذا وضعت يدى فى قصعة[1] غيرى فقد ذلت له رقبتى .

ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء ، وهو خلاف السنة . وكان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين[2] .

ومر الحسن بن على رضى الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق ، وقد نشروا كسرا على الأرض فى الرمل ، وهم يأكلون ، وهو على بغلته ، فسلم عليهم ، فقالوا له : هلم إلى الغداء يابن بنت رسول الله ﷺ . فقال : نعم إن الله لايحب المستكبرين . فنزل وقعد معهم على الأرض ، وأكل ثم سلم عليهم وقال : قد أجبتكم فأجيبونى . قالوا : نعم . فوعدهم وقتا معلوما ، فحضروا ، فقدم إليهم فاخر الطعام ، وجلس يأكل معهم .

وأما قول القائل : إن من وضعت يدى فى قصعته فقد ذلت له رقبتى . فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة ، وليس كذلك ، فإنه ذل إذا كان الداعى لا يفرح بالإجابة ، ولا يتقلد منّة ، وكان يرى ذلك يدا له على المدعو ، ورسول الله ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعى لم يتقلد منّة ، ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه فى الدنياوالآخرة .

فهذا يختلف باختلاف الحال ، فمن ظن به أنه يستثقل الطعام ، وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته[3] ، بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية : لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك ، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك ، ويرى لك الفضل عليه فى قبول تلك الوديعة منه .

---

(١) القصعة : وعاء يؤكل فيه ويثرد ، وكان يتخذ من الخشب غالبا .

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين ، وضعفه الترمذى ، وصححه الحاكم .

(٣) أخرجه أبو داوود من حديث ابن عباس ، وللعقيلى فى الضعفاء : نهى رسول الله ﷺ عن طعام المتباهين .

وقال سرى السقطى[1] رحمه الله : آه على لقمة ليس علىّ لله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة .

فإذا علم المدعو أنه لامنة فى ذلك فلا ينبغى أن يرد .

قال أبو تراب النخشبى[2] رحمة الله عليه : عرض على طعام فامتنعت ، فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما ، فعلمت أنه عقوبته .

وقيل لمعروف الكرخى رضى الله عنه : كل من دعاك تمر إليه ؟ فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلونى .

الثانى : أنه لا ينبغى أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقر الداعى ، وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتمالها فى العادة لا ينبغى أن يمتنع لأجل ذلك .

يقال فى التوراة أو فى بعض الكتب : سِرْميلا عُدْ مريضا ، سِرْميلين شَيِّع جنازة ، سِرْ ثلاثة أميال أجبْ دعوة ، سر أربعة أميال زر أخا فى الله . وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحى فهو أولى من الميت . وقال ﷺ : لو دعيت إلى كَرَاع بالغميم لأجبت[3] ، وهو موضع على أميال من المدينة أفطر فيه رسول الله ﷺ فى رمضان لما بلغه ، وقصر عنده فى سفره .

الثالث : ألا يمتنع لكونه صائما ، بل يحضر ، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر ، وليحتسب فى إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب فى الصوم وأفضل . وذلك فى صوم التطوع ، وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدقه بالظاهر وليفطر ، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل .

---

(١) من كبار المتصوفة ، بغدادى المولد والوفاة ، وهو خال الجنيد ، وتوفى سنة ٢٥٣هـ .
(الأعلام جـ ٣ ص ٨٢) .

(٢) هو عسكر بن حصين شيخ عصره فى الزهد والتصوف ، وهو من أهل نخشب ، من بلاد ما وراء النهر ، عربت فقيل لها (نسف) ، أخذ عنه الامام أحمد بن حنبل وآخرون ، مات بالبادية سنة ٢٤٥ هـ .
الأعلام جـ ٤ ص ٢٣٣ .

(٣) (بالغميم) هذه الزيادة ما رواه الترمذى من حديث أنس .

وقد قال ﷺ لمن امتنع بعذر الصوم : تكلف لك أخوك وتقول إنى صائم ؟[1] .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار ، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق ، فثوابه فوق ثواب الصوم .

ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة[2] والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والدهن أحد القراءين[3] .

الرابع : أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة ، أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال ، أو كان يقام فى الموضع منكر من فرش ديباج ، أو إناء فضة ، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط ، أو سماع شىء من المزامير والملاهى ، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب . واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب مما يمنع الإجابة واستحبابها ، ويوجب تحريمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعى ظالما أو مبتدعا أو فاسقا أو شريرا أو متكلفا ، طلبا للمباهاة والفخر .

الخامس : أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن ، فيكون عاملا فى أبواب الدنيا ، بل يحسن نيته ليصير بالاجابة عاملا للآخرة ، وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ فى قوله : لو دعيت إلى كراع لأجبت .

وينوى الحذر من معصية الله تعالى لقوله ﷺ : من لم يجب الداعى فقد عصى الله ورسوله[4] .

وينوى إكرام أخيه المؤمن اتباعا لقوله ﷺ : من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله[5] .

---

(١) أخرجه البيهقى من حديث أبى سعيد الخدرى : صنعت لرسول الله ﷺ طعاما وأتانى هو وأصحابه ، فما وضع الطعام ، قال رجل من القوم : انى صائم . فقال رسول الله ﷺ : دعاكم أخوكم ... ، وللدار قطنى نحوه من حديث جابر .

(٢) المجمرة : وعاء فيه جمر يستخدم للدفء وللبخور .

(٣) القراءين : مثنى القراء وهو القرى وهو إكرام الضيف .

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٥) ذكره الأصفهانى فى الترغيب والترهيب . من حديث جابر والعقيلى فى الضعفاء ، من حديث أبى بكر وإسنادهما ضعيف .

وينوى ادخال السرور على قلبه امتثالا لقوله ﷺ : من سر مؤمنا فقد سر الله .

وينوى مع ذلك زيارته ليكون من المتحابين فى الله ، إذ شرط رسول الله ﷺ التزاور والتباذل[1] لله ، وقد حصل البذل من أحد الجانبين ، فتحصل الزيارة من جانبه أيضا .

وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ، ويطلق لسانه فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم ، أو ما يجرى مجراه .

فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها ، فكيف مجموعها ؟ .

وكان السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب . وفى مثل هذا قال ﷺ : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه[2] .

والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات ، أما المنهيات فلا ، فإنه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر ، أو حرام آخر لم تنفع النية ، ولم يجز أن يقال : الأعمال بالنيات . بل لوقصد بالغزو الذى هو طاعة ، المباهاةَ وطلبَ المال ، انصرف عن جهة الطاعة .

وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية ، فتؤثر النية فى هذين القسمين ، لا فى القسم الثالث .

■ أما الحضور :

فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن ، بل يتواضع ، ولا يطوّل الانتظار عليهم ، ولا يعجّل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة ، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة ، فإنه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه ، وإن

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (وجبت محبتى للمتزاورين فىّ والمتباذلين فىّ) . وقد أشار المؤلف إليه ولم يذكره .

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .

أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع . قال ﷺ : إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجالس[1] .

ولاينبغى أن يجلس فى مقابلة الحجرة التى للنساء وسترهم .

ولايكثر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره .

ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس .

وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول : القبلة وبيتّ الماء وموضع الوضوء . كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما .

وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى لأنه يدعو الناس إلى كرمه ، فحكمه أن يتقدم بالغسل .

وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه .

وإذا دخل فرأى منكرا غيّره إن قدر ، وإلا أنكر بلسانه وانصرف .

والمنكر فرش الديباج ، واستعمال أوانى الفضة والذهب ، والتصوير على الحيطان ، وسماع الملاهى والمزامير ، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات . حتى قال أحمد[2] رحمه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغى أن يخرج . ولم يأذن فى الدخول إلا لضبّة وقال : إذا رأى كلّة[3] فينبغى أن يخرج ، فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ، ولاتدفع حرا ولا بردا ، ولاتستر شيئا . وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج[4] كما تستر الكعبة . وقال : إذا اكترى[5] بيتا فيه صورة ، أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغى أن يحكها ، فإن لم يقدر خرج .

و كل ما ذكره صحيح ، وإنما النظر فى الكِلة وتزيين الحيطان بالديباج ، فإن ذلك لا ينتهى إلى التحريم ، إذ الحرير يحرم على الرجال ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين ، من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد .

(٢) هو أحمد بن حنبل .

(٣) الكلة : ستر رقيق مثقب يتوقى به الباعوض .

(٤) الديباج : ضرب من الثياب ، سدُاَه ولُحْمَتُه حرير .

(٥) اكترى : استأجر .

هذان حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثها[1] ، وما على الحائط ليس منسوبا إلى الذكور ، ولو حرم هذا لحرم تزيين الكعبة ، بل الأولى إباحته لموجب قوله تعالى :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ[2]، ولاسيما فى وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر ، وأن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه ، ولايحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان فى معنى النساء إذْ لسن موصوفات بالذكورة .

■ وأما إحضار الطعام :

فله آداب خمسة :

الأدب الثانى : ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا إن كانت ، فذلك أوفق فى الطب ، فإنها أسرع استحالة[3] ، فينبغى أن تقع فى أسفل المعدة ، وفى القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة فى قوله تعالى : وفَاكِهةٍ مِماً يَتَخَيَّرُون ، ثم قال : ولَحمِ طَيْرٍ مِماً يَشْتَهُون .[4] .

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد .. فإن جمع إليه حلاوة بعد ذلك فقد جمع إليه الطيبات ، ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى فى ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ[5] أى المحنوذ ـــ وهو الذى أجيد نضجه ـــ وهو أحد معانى الإكرام ، أى تقديم اللحم .

وقال تعالى فى وصف الطيبات : وأَنْزَلْنَاَ عَلَيْكُم المَنَّ والسَلْوَىَ .[6] . المن : العسل ، والسلوى : اللحم ، سمى سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ، ولايقوم غيره مقامه .

---

(١) أخرجه أبو داوود والنسائى وابن ماجه من حديث على ، وصححه الترمذى من حديث أبى موسى .
وهذان : أى الحرير والذهب .

(٢) سورة الأعراف (٣٢) .

(٣) استحالة : هضم .

(٤) سورة الواقعة (٢٠) و (٢٢) .

(٥) الآية هى (وقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام . فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) سورة هود (٦٩) .

(٦) سورة البقرة (٥٧) .

ربع العبادات

الكتاب الثانى : آداب النكاح

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الثالث

فى آداب المعاشرة وما يجرى فى دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج فعليه الاعتدال والأداب فى اثنى عشر أمرا :

فى الوليمة ــ فى المعاشرة ــ الدعابة ــ السياسة ــ الغيرة ــ النفقة ــ التعليم ــ القسم ــ التأديب ــ فى النشوز ــ الوِقَاع ــ الولادة ــ المفارقة بالطلاق .

الأدب الأول : الوليمة

وهى مستحبة ، قال أنس رضى الله عنه : رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أثر صفرة ، فقال : ما هذا ؟ فقال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال : بارك الله لك ، أَوْلِمْ ولو بشاة[1] .

وأولم رسول الله ﷺ على صفية بتمر وسويق[2] .

وقال ﷺ : طعام أول يوم حق ، وطعام الثانى سنة ، وطعام الثالث سمعة[3] ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله ، وهو غريب .

---

(١) متفق عليه . والصفرة : صبغة تستخدم فى المناسبات .

(٢) رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه ، والأربعة هم : الترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داوود .
وصفية : هى أم المؤمنين صفية بنت حيىّ بن أخطب . والسويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير .

(٣) هكذا قال الترمذى بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه .

وتستحب تهنئته ، فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير[1] . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله أمر بذلك .

ويستحب إظهار النكاح ، قال عليه السلام : فصل ما بين الحلال والحرام الدُّف والصوت[2] . وقال رسول الله ﷺ : أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف[3] .

وعن الرُّبَيْع بنت معوذ قالت : جاء رسول الله ﷺ فدخل غداة بُنِى بى ، فجلس على فراشى ، وجويريات لنا يضربن بدفهن ، ويندبن من قتل من آبائى إلى أن قالت إحداهن :

وفينا نبى يعلم ما فى غد . فقال لها : اسكتى عن هذه ، وقولى الذى كنت تقولين قبلها[4] .

الأدب الثانى : حسن الخلق معهن

واحتمال الأذى منهن ترحما عليهن ، لقصور عقلهن ، قال الله تعالى : وعاشِرُوهُن بالمعْرُوف[5] وقال فى تعظيم حقهن : وأَخَذْنَ مِنْكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً[6] . وقال : والصَّاحِبُ بالجَنْبِ[7] قيل هى المرأة . وآخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه ، جعل يقول : الصلاةَ الصلاةَ ، وماملكت أيمانكم ، لاتكلفوهم مالا يطيقون ، الله الله فى النساء ، فإنهن عَوَانٌ فى أيدكم ــ يعنى أسراء ــ أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[8] .

---

(1) رواه أبو داوود والترمذى ، وصححه ابن ماجه .

(2) رواه الترمذى وحسنه ، ولبن ماجه من حديث محمد بن حاطب .

(3) رواه الترمذى من حديث عائشة ، وحسنه وضعفه البيهقى .

(4) رواه البخارى وقال : يوم بدر . بُنِىَ بها : تزوجت .

(5) سورة النساء (١٩) .

(6) سورة النساء (٢١) .

(7) سورة النساء (٣٦) .

(8) أخرجه النسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة ، أن النبى ﷺ وهو فى الموت جعل يقول : الصلاة وماملكت أيمانكم فما زال يقولها ، وما يقبض بها لسانه . وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان فى حجة الوداع . رواه مسلم فى حديث جابر .

وقال عليه السلام : من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ماأعطى أيوب على بلائه ، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسيا امرأة فرعون[١] .

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل .

وراجعت امرأة عمر رضى الله عنه عمر فى الكلام ، فقال : أتراجعيننى يالكعاء . فقالت : إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعْنه ، وهو خير منك . فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعته . ثم قال لحفصة : لا تغترى بابنة أبى قحافة[٢] ، فإنها حِبُّ رسول الله ﷺ . وخوّفها من المراجعة .

وروى أنه دفعت إحداهن فى صدر رسول الله ﷺ ، فزجرتها أمها فقال عليه السلام : دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك[٣] .

وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكما ، واستشهده ، فقال لها رسول الله ﷺ : تكلمين أو أتكلم ؟ فقالت : بل تكلم أنت ، ولاتقل إلا حقا . فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها . وقال : ياعديّة نفسها ، أو يقول غير الحق ؟ فاستجارت برسول الله ﷺ ، وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبى ﷺ : لم نَدْعُك لهذا ، ولا أَرَدْنا منك هذا[٤] .

وقالت له فى كلام غضبت عنده : أنت الذى تزعم أنك نبى الله ؟ فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلما وكرما[٥] .

وكان يقول لها : إنى لأعرف غضبك من رضاكِ . قالت : وكيف تعرفه ؟ قال :

---

(١) لا أصل له .

(٢) هى عائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(٣) لا أصل له .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، والخطيب فى التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف .

(٥) أخرجه أبو يعلى فى مسنده وأبو الشيخ فى كتاب الأمثال من حديث عائشة .

إذا رضيتِ قلتِ : لا وإله محمد ، وإذا غضبتِ قلتِ لا واله ابراهيم ، قالت : صدقت إنما أهجر اسمك[1] .

ويقال إن أول حب وقع فى الإسلام حب النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها[2] .

وكان يقول لها : كنت لك كأبى زرع لأم زرع غير أنى لا أطلقك[3] . وكان يقول لنسائه : لا تؤذونى فى عائشة فإنه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها[4] .

وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان[5] .

الأدب الثالث : الدعابة

أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والملاعبة والمزح ، فهى التى تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن ، وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العَدْو ، فسبقته يوما ، وسبقها فى بعض الأيام ، فقال عليه السلام : هذه بتلك[6] .

وفى الخبر أنه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه .[7]

وقالت عائشة رضى الله عنها : سمعت اصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال لى رسول الله ﷺ : اتحبين أن ترى لعبهم ، قالت :

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال : عائشة وأما كونه أول ؛ فرواه ابن الجوزى فى الموضوعات عن حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة ، كما فى الحديث الآخر . أن ابن الزبير أول مولود ولد فى الاسلام ، يريد بالمدينة ، والافمحبة النبى ﷺ لخديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة . دون الاستثناء . إشارة من النبى إلى قصة يمنية فى حسن المعاشرة .

(٤) رواه البخارى من حديث عائشة .

(٥) حديث أنس رواه مسلم بلفظ : ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ .

(٦) رواه أبو داوود والنسائى فى الكبرى من حديث عائشة بسند صحيح .

(٧) رواه الحسن بن سفيان فى مسنده دون قوله (نسائه) .

قلت نعم . فأرسل إليهم فجاؤا ، وقام رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب ، ومد يده ووضعت ذقنى على يده ، وجعلوا يلعبون وانظر ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبكِ . وأقول أسكت . مرتين أو ثلاثا . ثم قال ياعائشة حسبك . فقلت نعم . فأشار إليهم فانصرفوا[١] .

فقال رسول الله ﷺ : أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وألطفهم بأهله[٢] .

وقال عليه السلام : خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى[٣] .

وقال عمر بن الخطاب مع خشونته : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ، فإذا التمسوا ماعنده وُجد رجلا .

وقال لقمان رحمه الله : ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبى ، وإذا كان فى القوم وجد رجلا . وفى تفسير الخبر المروى : إن الله يبغض الجعظرى الجواظ . قيل هو الشديد على أهله المتكبر فى نفسه ، وهو أحد ماقيل فى معنى قوله تعالى : عُتُلٍّ[٤] ، قيل العتل : هو الفظُّ اللسان الغليظ القلب على أهله .

وقال عليه السلام لجابر : هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك[٥] .

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات ، فقالت : والله لقد كان ضحوكا إذا ولج[٦] ، سكّيتا إذا خرج ، آكلا ماوجد ، غير مسائل عما فَقَد .

الأدب الرابع : السياسة

لايتبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ، ويسقط بالكلية هيبته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه ، فلا يدع الهيبة والانقباض

---

(١) متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء وإنما قال يوم عيد ، ودون قولها : اسكت وفى رواية للنسائى قلت : لا تعجل مرتين . وسنده صحيح .

(٢) رواه الترميذى والنسائى ، واللفظله ، والحاكم ، وقال رواته ثقاه على شرط الشيخين .

(٣) أخرجه الترمذى وصححه من حديث أبى هريرة ، دون قوله : وأنا خيركم لنسائى .

(٤) سورة القلم (١٣) .

(٥) متفق عليه من حديث جابر .

(٦) ولج : دخل البيت .

مهما رأى منكرا ، ولايفتح باب المساعدة على المنكرات البته ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض .

قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلاكبه الله فى النار .

قال عمر رضى الله عنه : خالفوا النساء فإن فى خلافهن البركة .

وقد قيل : شاوروهن وخالفوهن . وقد قال عليه السلام : تعس عبد الزوجة[1] . وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها فى هواها فهو عبدها ، وقد تعس فإن الله ملكه المرأة ، فملكها نفسه فقد عكس الأمر ، وقلب القضية ، وأطاع الشيطان لما قال : ولآمرنهم فليغيرن خلق الله[2] .

إذ حق الرجل أن يكون متبوعا لاتابعا ، وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء ، وسمى الزوج سيّدا ، فقال : وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ[3] ، فإذا قلب السيد مسخرا فقد قلب نعمة الله كفرا .

ونفس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها[4] قليلا جمحت بك طويلا ، وإن أرخيت عذارها[5] فترا ، جذبتك ذراعا ، وإن كبحتها وشددت يدك عليها فى محل الشدة ملكتها .

قال الشافعى رضى الله عنه : ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك : المرأة والخادم والنبطى[6] . أراد به إن محضت الإكرام ، ولم تمزج غلظك بلينك ، وفظاظتك برفقك .

وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الزوج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبرى زوجك قبل الاقدام والجراءة عليه ، انزعى زج رمحه ، فإن سكت فقطعى

---

(١) لا أصل له ، والمعروف (تعس عبد الدينار) .

(٢) سورة النساء (١١٩) .

(٣) سورة يوسف (٢٥) .

(٤) العنان : اللجام ، والمراد به الارادة .

(٥) العذار : ماسال من اللجام على خد الفرس ، والمراد العزيمة .

(٦) النبط : أخلاط الناس .

اللحم على ترسه[1] ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف[2] على ظهره وامتطيه فإنما هو حمارك .

وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده ، فينبغى أن تسلك سبيل الاقتصاد فى المخالفة والموافقة ، وتتبع الحق فى جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فإن كيدهن عظيم ، وشرهن فاش والغالب عليهن سوء الخلق ، وركاكة العقل ، ولايعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة ، وقال عليه السلام : مثل المرأة الصالحة فى النساء كمثل الأعصم بين مائة غراب[3] والأعصم يعنى الأبيض البطن .

وفى وصية لقمان لابنه : يابنى اتق المرأة السوء ، فإنها تشيّبك قبل المشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر .

وقال عليه السلام : استعيذوا من الفواقر الثلاث .. وعد منهن المرأة السوء ، فإنها مشيبة قبل الشيب ، وفى لفظ آخر إن دخلت عليها سبتّك ، وإن غبت عنها خانتك[4] .

وقال عليه الصلاة والسلام فى خيّرات النساء : انكن صواحبات يوسف[5] ، يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدم فى الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله ﷺ : إِنْ تَتوباَ إلى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ

---

(١) الترس : ما يتوقى به فى الحرب (٢) الاكاف : البرذعة .

(٣) رواه الطبرانى من حديث أبى أمامةبسند ضعيف . ولأحمد من حديث عمرو بن العاص : كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران ، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أحمر المنقار فقال : لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب فى هذه الغربان وإسناده صحيح ، وهو فى السنة الكبرى للنسائى .

(٤) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس ، من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . واللفظ الآخر رواه الطبرانى من حديث فضالة بن عبيد : ثلاث من الفواقر ، وذكر منها : وامرأة إن حضرتك آذتك ، وإن غبت عنها خانتك . وسنده صحيح .

(٥) متفق عليه من حديث عائشة . وهذا عندما مرض رسول الله ﷺ ، وطلب أبا بكر للصلاة بالناس ، فقالت بعض أمهات المؤمنين : بل عمر .

قلوبكما[1] ، أى مالت ، وقال ذلك فى خير أزواجه[2] . وقال عليه السلام : لا يفلح قوم تملكهم امرأة[3] .

وقد زجر[4] عمر رضى الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ماأنت إلا لعبة فى جانب البيت ، إن كانت لنا إليك حاجة وإلاجلست كما أنت .

فإذن فيهن شر ، وفيهن ضعف ، فالسياسة والخشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطبيب الحاذق هو الذى يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولا إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الأدب السادس : النفقة

الاعتدال فى النفقة : فلاينبغى أن يقتّر عليهن (أى زوجاته) فى الانفاق ، ولاينبغى أن يسرف بل يقتصد . قال تعالى : وَكُلُوا واشْرَبُوا ولاتُسْرِفُوا[5] ، وقال تعالى : ولا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِك ولاتَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْط[6] .

وقد قال رسول الله ﷺ : خَيْرُكُم خَيْرُكُمْ لِأَهْلِه[7] ، وقال ﷺ : دينارا أنفقته فى سبيل الله ، ودينارا أنفقته فى رقبة ، ودينارا تصدقت به على مسكين ، ودينارا أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك[8] .

وقيل : كان لعلى رضى الله عنه أربع نسوة ، فكان يشترى لكل واحدة فى كل أربعة أيام لحما بدرهم .

وقال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل جمعة فالوذجة[9] . وكأن الحلاوة وإن لم تكن من المهمات ، ولكن تركها بالكلية تقصير فى العادة .

---

(١) سورة التحريم (٤) . والزوجتان هما : عائشة وحفصة رضى الله عنهما .

(٢) متفق عليه من حديث عمر . (٣) رواه البخارى من حديث أبى بكرة

(٤) زجر : انتهر .

(٥) سورة الأعراف (٣١) . (٦) سورة الاسراء (٢٩) .

(٧) أخرجه الترمذى من حديث عائشة ، وصححه .

(٨) أخرجه مسلم من حديث أبى بكر . فى رقبة : فى عتق رقبة .

(٩) فالوذجة : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل ، وتصنع الآن من النشا والماء والسكر . وابن سيرين : هو أبو بكر الأنصارى ، إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة ، تابعى من أشراف الكتاب ومولده ووفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ ، اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا . (الأعلام جـ ٥ ص ٢٥٤) .

وينبغى أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام ومايفسد لو ترك . فهذا أقل درجات الخير . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن صريح من الزوج .

ولاينبغى أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب ، فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ، ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزمعا على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله ، ولا ينبغى أن يصف عندهم طعاما ليس يريد إطعامهم إياه .

وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته ، فقد قال سفيان رضى الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة .

وأهم ما يجب عليه مراعاته فى الانفاق ، أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها .

ربع العبادات

الكتاب الثالث : آداب الكسب والمعاش

وهو خمسة ابواب .

الباب الثالث

فى بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملات

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يحكم المفتى بصحتها وانعقادها ، ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى ، إذ ليس كل نهى يقتضى فساد العقد ، وهذا الظلم يعنى به ما استضر به الغير وهو منقسم إلى :

ما يعم ضرره — ما يخص المعامل .

القسم الأول : فيما يعم ضرره

وهو أنواع :

■ **النوع الأول : الاحتكار**

فبائع الطعام يدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم فى الشرع ، قال رسول الله ﷺ : من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به ، لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره[1] .

وروى ابن عمر عنه ﷺ أنه قال : من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برأ من الله وبرأ الله منه[2] . وقيل : فكأنما قتل الناس جميعا .

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على ، والخطيب فى التاريخ من حديث أنس بسندين ضعيفين .

(٢) رواه أحمد والحاكم بسند جيد ، وقال ابن عدى : ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر .

وعن على رضى الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما قسا قلبه . وعنه أيضا أنه أحرق طعام محتكر بالنار .

وروى فى فضل ترك الاحتكار عنه ﷺ : من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به ، وفى لفظ آخر فكأنما أعتق رقبة[1] .

وقيل فى قوله تعالى : وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنَ عذَابٍ أَلِيمٍ[2] . إن الاحتكار من الظلم وداخل تحته فى الوعيد .

وعن بعض السلف أنه كان بواسط[3] ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ، فوافق سعة فى السعر . فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه . فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : ياهذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا وإنك قد خالفته وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافا لا علىّ ولا لى .

واعلم أن النهى مطلق ، ويتعلق النظر به فى الوقت والجنس .

أما الجنس : فيطرد النهى فى أجناس الأقوات ، وأما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله فلا يتعدى النهى إليه وإن كان مطعوما .

وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه ، وما يسد مسدا يغنى عن القوت فى بعض الأحوال ، وإن كان لا يمكن المداومة عليه فهذا محل النظر . فمن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل ، والشيرج[4] والجبن والزيت وما يجرى مجراه .

وأما الوقت : فيحتمل أيضا طرد النهى فى جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التى ذكرنا فى الطعام الذى صادف بالبصرة سعة فى السعر ، ويحتمل أن يخصص

(١) أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

(٢) سورة الحج (٢٥) . (٣) واسط : مدينة بين الكوفةوالبصرة بناها الحجاج سنة ٨٤ هـ .

(٤) الشيرج : زيت السمسم .

بوقت قلة الأطعمة ، وحاجة الناس إليه حتى يكون فى تأخير بيعه ضرما . فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت ، واستغنى الناس عنها ، ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا[1] ، فليس فى هذا إضرار .

وإذا كان الزمان زمان قحط ، كان فى ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضرار ، فينبغى أن يقضى بتحريمه ، ويعول فى نفى التحريم وإثباته على الضرار ، فإنه مفهوم قطعا من تخصيص الطعام .

وإذا لم يكن ضرار فلا يخلوا احتكار الأقوات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادىء الضرار وهو ارتفاع الأسعار وانتظار مبادىء الضرار محظور كانتظار عين الضرر ولكنه دونه ، وانتظار عين الإضرار أيضا هو دون الاضرار ، فبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم .

وبالجملة ، التجارة فى الأقوات مما لا يستحب لأنه طلب ربح ، والأقوات أصول خلقت قواما ، والربح من المزايا ، فينبغى أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التى لا ضرورة للخلق إليها ، ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا وقال : لا تسلّم ولدك فى بيعتين ولا فى صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان ، فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس . والصنعتان أن يكون جزارا ، فإنها صنعة تقسى القلب ، أو صواغا فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

■ **النوع الثانى : ترويج الزيف :**

ترويج الزيف من الدراهم أثناء النقد فهو ظلم إذ يستحضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره ، وكذلك الثالث والرابع ، ولايزال يتردد بين الأيدى ، ويعم الضرر ، ويتسع الفساد ، ويكون وزر الكل ووباله راجعا عليه ،فإنه هو الذى فتح هذا الباب ، قال رسول الله ﷺ : من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا[2] .

---

(١) القحط : المجاعة .

(٢) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

وقال بعضهم : إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت ، وانفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين ، وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة أو مائتى سنة .. إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه مافسد من أموال الناس بسنته ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة أو مائتى سنة أو أكثر يعذب بها فى قبره ، ويسأل عنها إلى آخر انقراضها .

قال تعالى : ونَكْتُب ما قَدَّمُوا وآثَارَهم[1] . أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموا ، وفى مثله قوله تعالى : يُنبأُ الإنسانُ يَوْمئذٍ بِماَ قَدَّمَ وأَخَّر[2] ، وإنما أخر آثار أعماله مَن سنة سيئة عمل بها غيره .

وليعلم أن فى الزيف خمسة أمور :

الأول : أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغى أن يطرحه فى بئر بحيث لا تمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه فى بيع آخر ، وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز .

الثانى : أنه يجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى لنفسه ، ولكن لئلا يسلّم إلى مسلم زيفا وهو لا يدرى ، فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم . فكل علم عمل يتم به نصح المسلمين فيجب تحصيله . ولمثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظرا لدينهم لا لدنياهم .

الثالث : أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الاثم . لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولايخبره ، ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب فى أخذه أصلا . فإنما يتخلص من إثم الضرر الذى يخصه معامله فقط .

الرابع : أن يأخذ الزيف ليعمل بقول رسول الله ﷺ : رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء[3] . فهو داخل فى بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه فى بئر . وإن كان عازما على أن يروجه فى معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه فى معرض الخير ، فلا يدخل تحت من تساهل فى الاقتضاء .

---

(١) سورة (يس) (١٢) .

(٢) سورة القيامة (١٣) .

(٣) أخرجه البخارى من حديث جابر .

الخامس : أن الزيف نعنى به ما لا نقرة فيه ، بل هو مموه[1] ، أو ما لا ذهب فيه ؛ أعنى فى الدنانير . أما ما فيه نقرة فإن كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء فى المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم ، وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة . فإن كان فى ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويج فى جملة النقد بطريق التلبيس ، فأما من يستحل ذلك ، فتسليمه إليه تسليط له على الفساد . فهو كبيع العنب لمن يعلم أنه يتخذه خمرا ، وذلك محظور ، وإعانة على الشر ، ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثال هذا فى التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلى لها .

ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد .

وقد كان السلف يحتاطون فى مثل ذلك حتى روى عن بعض الغزاة فى سبيل الله أنه قال : حملت على فرس لأقتل عِلْجا[2] ، فقصر بى فرسى فرجعت ، ثم دنا منى العلج فحملت ثانية فقصر بى فرسى فرجعت ، ثم حملت الثالثة فنفر منى فرسى وكنت لا أعتاد منه ذلك ، فرجعت حزينا ، وجلست مُنَكس الرأس ، منكسر القلب لما فاتنى من العلج ، وما ظهر لى من خلق فرسى ، فوضعت رأسى على عامود الفسطاط[3] ، وفرسى قائم ، فرأيت فى النوم كأن الفرس يخاطبنى ويقول لى : بالله عليك أردت أن تأخذ على العلج ثلاث مرات وأنت بالامس اشتريت لى علفا ، ودفعت ثمنه درهماً زائفا ، لايكون هذا ابداً . قال : فانتبهت فزعاً فذهبت إلى العلاّف ، وأبدلت ذلك الدرهم .

فهذا مثال ما يعم ضرره ، وليقس عليه أمثاله .

---

(١) المموه : المطلى بالذهب أو الفضة وليس جوهره منهما .

(٢) العلج : كل جاف شديد من الرجال .

(٣) الفسطاط : البيت يتخذ من الشعر .

القسم الثانى : ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم ، وأنما العدل لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط الكلى فيه : ألا يحب لأخيه إلا مايحب لنفسه ، فكل ما لو عومل به شق عليه ، وثقل على قلبه فينبغى ألا يعامل غيره به ، بل ينبغى أن يستوى عنده درهمه ودرهم أخيه .

قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم ، وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق[1] ، فإنه قد ترك النصح المأمور به فى المعاملة ، ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

هذه جملته ، فأما تفصيله ففى أربعة أمور :

١ ــ أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها .

٢ ــ أن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلا .

٣ ــ وأن لا يكتم فى وزنها ومقدارها شيئا .

٤ ــ أن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لا متنع عنه .

أما الأول : فهو ترك الثناء ، فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قَبِل المشترى ذلك فهو تلبيس ، وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذى لا يروج قد لا يقدح فى ظاهر المروءة ، وإن اثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان ، وتكلم بكلام لا يعنيه ، وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لِمَ تكلم بها .

قال تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيد[2] .

إلا أن يثنى على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشترى ما لم يذكره ، كما يصف من خفى أخلاق العبيد والجوارى والدواب ، فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتنقضى بسببه حاجته . ولا ينبغى أن يحلف عليه البتة ، فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين

---

(١) الدانق : سدس الدرهم .

الغموس وهى من الكبائر التى تذر الديار بلاقع[1] . وإن كان صادقا فقد جعل الله عرضه لأيمانه ، وقد أساء فيه إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة . وفى الخبر : ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد[2] .

وفى الخبر : اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة[3] ....

الثانى : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ، ولايكتم منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا ، والغش حرام ، وكان تاركا للنصح فى المعاملة ، والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشا ، وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف أو النعل وأمثاله .

ويدل على تحريم الغش ما روى : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال : ما هذا ؟ قال : أصابته السماء . فقال : هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غَشَّنا فليس منا[4] .

ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبى ﷺ لما بايع جريرا على الإسلام ذهب لينصرف ، فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم .[5]

فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره ، وقال : أن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك فقيل له : إنك إن فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع . فقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم .

فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ....

---

(١) بلاقع : (ج) بلقع : الخالى من كل شىء . اليمين الغموس : التى تغمس صاحبها فى النار
(٢) ذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بغير إسناد نحوه .
(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ (الحلف) .
(٤) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .
(٥) متفق عليه .

الثالث : أن لايكتم فى المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل ، فينبغى أن يكيل كما يكتال ، قال الله تعالى : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِين . الَّذِين إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاس يَسْتَوْفُون . وإِذاَ كَالُوهُم أَوْ وَزَنُوهم يُخْسِرُون[1] . ولا يخلص من هذا الإ بأن يرجح إذا أُعطى ، وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقى قلما يُتصور ، فليستظهر بالظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه .

وكان بعضهم يقول : لا أشترى الويل من الله بحبة . فكان إذا أخذ نقص نصف حبة ، وإذا أعطى زاد بحبة ، وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات الأرض ، وماأخسر من باع طوبى[2] بويل[3] ....

الرابع : أن يصدق فى سعر الوقت ، فقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقى الركبان ، ونهى عن النجش[4] .

أما تلقى الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ، ويكذب فى سعر البلد ، فقد قال رسول الله ﷺ : لاتتلقوا الركبان[5] .

ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منعقد . ولكنه إذا ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار ، وإن كان صادقا ففى الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس .

ونهى أيضا أن يبيع حاضر[6] لباد[7] : وهو أن يقدم البدوى ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه فيقول له الحضري : اتركه عندى حتى أغالى فى ثمنه ، وأنتظر ارتفاع سعره . وهذا فى القوت محرم ، وفى سائر السلع خلاف ، والأظهر تحريمه لعموم النهى ، ولأنه تأخير للتضنييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولى المضيق .

---

(١) سورة المطففين (١ ـ ٣) .

(٢) طوبى : الحسنى . (٣) ويل : العذاب .

(٤) النجش : سيشرحها المصنف بعد ذلك والحديث متفق عليه من ابن عباس وابن عمر وأبى هريرة .

(٥) النهى عن تلقى الركبان متفق عليه من حديث ابن عباس وأبى هريرة .

(٦) الحاضر : ساكن المدينة أى الحضر .

(٧) البادى : ساكن البادية وحديث النهى عن بيع الحاضر للبادى متفق عليه من حديث ابن عباس وابى هريرة وأنس

ونهى رسول الله ﷺ عن النجش وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدى الراغب المشترى ويطلب السلعة بزيادة ، وهو لا يريدها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشترى فيها ، فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد ، وإن جرى مواطأة ففى ثبوت الخيار خلاف .

والأولى إثبات الخيار لأنه تغرير بفعل يضاهى التغزيز فى المصراة[1] ، وتلقى الركبان . فهذه المناهى تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشترى فى سعر الوقت ، ويكتم منه أمرا لوعلمه لما أقدم على العقد ، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب .

---

(١) المصرّاة : الشاة أو الناقة يشد ضرعها حتى يحفل باللبن

ربع العادات

الكتاب الرابع : الحلال والحرام

وفيه ستة أبواب :

الباب الأول

فى فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيانِ أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال تعالى : كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعمَلُوا صالِحاً[1] ، أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل ، وقيل المراد به الحلال .

وقال تعالى : ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكم بالبَاطِلِ[2] .

وقال تعالى : إن الذّين يَأكُلون أمْوالَ اليتَامَى ظُلْماً[3] . الآية ...

وقال تعالى : يأيُّها الذِّين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقِى مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنين[4] . ثم قال : فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بِحَرْب مِنَ اللهِ وَرَسُوله[5] ، ثم قال : وإنْ تُبْتُم فَلَكُم رُؤُوس أَمْوالِكُمْ[6] ، ثم قال : وَمَنْ عَادَ فأُولَئكَ أَصْحَاب النَارِ هُم فِيهاَ خَالِدُون[7] .

---

(١) سورة المؤمنون (٥١) . (٢) سورة البقرة (١٨٨) .

(٣) سورة النساء(١٠) . والتكملة : (إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) .

(٤) سورة البقرة (٢٧٨) . (٥) سورة البقرة (٢٧٩) .

(٦) سورة البقرة (٢٧٩) . (٧) سورة البقرة (٢٧٥) .

جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفى آخره متعرضا للنار .

والآيات الواردة فى الحلال والحرام لا تحصى .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : طلب الحلال فريضة على كل مسلم .

ولما قال رسول الله ﷺ : طلب العلم فريضة على كل مسلم[1] ، قال بعض العلماء أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحداً .

وقال ﷺ : من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء[2] .

وقال ﷺ : من أكل الحلالَ أربعين يوما نور الله قلبه ، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه وفى رواية زَهّده الله فى الدنيا[3] .

وروى أن سعدا سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله تعالى ويجعله مجاب الدعوة ، فقال له : أطب طعمتك تستجاب دعوتك .[4]

ولما ذكر ﷺ الحريص على الدنيا قال : رب أشعث أغبر مشرد فى الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه ويقول : يارب يارب . فأنى يستجاب له[5] .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ : إن لله ملَكَا على بيت المقدس ، ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل[6] . فقيل : الصرف نافلة والعدل فريضة .

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث أنس ، وضعفه أحمد والبيهقى وغيرهما .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة (من سعى على عياله ففى سبيل الله) ، ولأبى منصور فى مسند الفردوس ، واسنادهما ضعيف .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، من حديث أبى داوود . ولابن عدى نحوه من حديث أبى موسى ، وقال : حديث منكر .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس .

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٦) لا أصل له . ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود : من أكل لقمة من حرام ، لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة .. ، وهو منكر .

وقال ﷺ : من أشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء[١] .

وقال ﷺ : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به[٢] .

وقال ﷺ : من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخل النار[٣] .

وقال ﷺ : العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى طلب الحلال[٤] . وروى هذا مرفوعا وموقوفا على بعض الصحابة أيضا

وقال ﷺ : من أمسى وانيا من طلب الحلال بات مغفورا له وأصبح وا راض[٥] .

وقال ﷺ : من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به ، أو أنفقه فى سبيل الله ، جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه فى النار[٦] .

وقال ﷺ : خير دينكم الورع .

وقال ﷺ : من لقى الله ورعا أعطاه الله ثواب الإسلام كله[٧] .

ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه : وأما الورعون فأنا أستحى أن أحاسبهم .

وقال ﷺ : درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية فى الإسلام[٨] .

---

(١) رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث كعب بن عجوة وحسنه .

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر ، قال ابن العربى فى عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى : إنه باطل لم يصح ولا يصح .

(٤) رواه منصور الديلمى من حديث أنس ، الا أنه قال : تسعة منها فى الصمت ، والعاشرة كسب اليد من الحلال ، وهو منكر .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس : من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له ، وفيه ضعف .

(٦) رواه أبو داوود فى المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة ، مرسلا . والحديث المرسل : ما سقط منه الصحابى ، كقول التابعى : قال رسول الله ﷺ كذا . والحديث المرفوع : ما أضيف إلى النبى ﷺ خاصة من قول أو فعل أو تقرير ، سواء اتصل إسناده أم لا .
والحديث الموقوف : ماروى عن الصحابة من قول أو فعل أو تقرير .
والمقطـوع : ماروى عن التابعين من قول أو فعل أو تقرير .

(٧) لا أصل له .

(٨) رواه أحمد والدارقطنى من حديث عبد الله بن حنظلة ، وقال : ستة وثلاثين ، ورجاله ثقاة . وقيل عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعا ، وللطبرانى من حديث ابن عباس : ثلاثة وثلاثين . وسنده ضعيف .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت بالسقم[1] .

ومثل الأطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع .

وقال عز وجل : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه عَلَى تَقْوىٰ من اللهِ[2] الآية ...

وفى الحديث : من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار[3] . وقد ذكرنا جملة من الأخبار فى كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ، ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطونى . فأدخل أصابعه فى فيه ، وجعل يقىء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء[4] .

وفى بعض الأخبار أنه ﷺ أخبر بذلك فقال : أوعلمتم أن الصدّيق لا يدخل فى جوفه إلا طيبا .

وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن الصدقة غلطا فأدخل إصبعه وتقيأ .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة وهو الورع .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز .

وقال إبراهيم بن أدهم[5] رحمه الله : ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه .

---

(1) السقم : المرض وأخرج الحديث الطبرانى فى الأوسط ، وقال : لاأصل له ، وباطل .

(2) سورة التوبة (١٠٩) . والتكملة : .. ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هاو فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين .

(3) رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، ولابن حبّان من حديث أبى هريرة .

(4) رواه البخارى من حديث عائشة . تكهن : أى أخبر بالغيب ونجّم .

(5) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم التيمى ، زاهد مشهور ، يقال إنه من أولاد الملوك فى بلخ ، وتفقه ورحل إلى بغداد ، روى عن جماعة من التابعين كمالك بن دينار وأبى اسحاق ، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين ، مات ودفن سنة ١٦٠ هـ فى حصن من حصون الروم . وفى الوفيات : مات سنة ١٤٠هـ ، ودفن فى صور . (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢) . (الأعلام جـ ١ ص ٣١) .

وقال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صدّيقا ، فانظر عند من تفطر يا مسكين .

وقيل لابراهيم بن أدهم : لم لا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت منه .

وقال سفيان رضى الله عنه : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول ، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء ، والذنب لايكفره إلا الحلال .

وقال يحيى بن معاذ[1] : الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : لا يقبل الله صلاة امرىء فى جوفه حرام .

وقال سهل التسترى[2] : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت .

وقال : من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلال ، ولا يعمل إلا فى سنة أو ضرورة .

ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوما أظلم قلبه ، وهو تأويل لقوله تعالى : كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[3] . وقال ابن المبارك : رد درهم من شبهة أحب إلىّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف .. حتى بلغ إلى ستمائة ألف .

وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكلة فيتقلب قلبه ، فينغل كما ينغل[4] الأديم ، ولا يعود إلى حاله أبدا .

---

(١) يحيى بن معاذ الرازى الواعظ ، أحد رجال الطريقة ، ذكره القشيرى ، وعده نسيجا وحده ، له فى هذا الباب كل كلام مليح ، توفى بنيسابور سنة ٢٥٨هـ . (وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٦٥) .

(٢) سهل التسترى الصالح المشهور ، لم يكن له نظير فى المعاملات والورع ، وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة . ولد فى (تستر) وهى بلدة من كور الأهواز ، وتوفى فى البصرة فى محرم سنة ٢٩٣ هـ . (وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٢٩) .

(٣) سورة المطففين (١٤) .

(٤) نَغِلَ الأديم : عفن وفسد من الدباغ ، والأديم الجلد .

قال سهل رضى الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه ، شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم ، ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ، ووفقت للخيرات .

وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ، ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر .

وروى فى آثار السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثا : فإن كان معتقدا لبدعة فلا تجالسوه ، فإنه على لسان الشيطان ينطق ، وإن كان سيء الطعمة فعن الهوى ينطق فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح ، فلا تجالسوه .

وفى الأخبار المشهورة عن على عليه السلام وغيره : إن الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، وزاد آخرون : وشبهتها عتاب .

وروى أن بعض الصالحين دفع طعاما إلى بعض الأبدال[1] فلم يأكل . فسأله عن ذلك ، فقال : نحن لانأكل إلا حلالا ، فلذلك تستقيم قلوبنا ، ويدوم حالنا ونكاشف الموت ، ونشاهد الآخرة ، ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ، ولذاب الخوف والمشاهدة من قلوبنا . فقال له الرجل : إنى أصوم الدهر وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين مرة . فقال له البدل : هذه الشربة التى رأيتنى شربتها من الليل أحب إلىّ من ثلاثين ختمة فى ثلاثمائة ركعة من أعمالك . وكانت شربته من لبن ظبية[2] وحشية .

وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبه طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : إنى لا أسأل أحدا شيئا ولو أعطانى الشيطان شيئا لأكلته . حتى اعتذر يحيى ، وقال : كنت أمزح فقال أحمد : تمزح بالدين ، أما علمت أن الأكل من

---

(١) الأبدال : الزهاد . وعند الصوفية لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم .

(٢) الظبية : الغزالة .

الدين ، قدمه الله على العمل الصالح ؟ فقال : كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعمَلُوا صالِحا[1] .

وفى الخبر أنه مكتوب فى التوراة : من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النار أدخله .

وعن على رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاما إلا مختوما حذرا من الشبهة .

واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة ، فذكروا الرُّطب ، فقال وهيب : هو من أحب الطعام إلىّ إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها .

فقال له ابن المبارك : إن نظرت فى مثل هذا ضاق عليك الخبز . فقال : وماسببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافى[2] ، فغشى على وهيب ، فقال سفيان[3] : قتلت الرجل . فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أهون عليه . فلما أفاق قال : لله على أن لا آكل الخبز أبدا حتى ألقاه . فكان يشرب اللبن . فأتته أمه بلبن ، فسألها ، فقالت : هو من شاة بنى فلان . فسأل عن ثمنها ، وأنه من أين كان لهم فذكرت ، فلما أدناه من فيه قال : بقى أنها من أين كانت ترعى ؟ فسكتت . فلم يشرب لانها كانت ترعى فى موضع فيه حق للمسلمين . فقالت أمه : إشرب فإن الله يغفر لك . فقال : ما أحب أن يغفر لى وقد شربته ، فأنال مغفرته بمعصيته .

وكان بشر الحافى رحمه الله من الورعين ، فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك . وقال: يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة .

وهكذا كانوا يحترزون[4] من الشبهات .

---

(١) سورة المؤمنون (٥١) ، والمقصود : أن الاكل جزء من الدين ولايصح أن يكون موضوع مزاح .

(٢) الصوافى : الاملاك ، والارض مات أهلها ولا وارث لها . أو الضياع كان يستخلصها السلطان . لخاصته مفردها : صافية .

(٣) يقصد : ابن عيينه .

(٤) احترز : توقى .

الباب الثانى

فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله ﷺ : الحلال بَيّن والحرام بَيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] .

فهذا الحديث نصٌّ فى إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم الأوسط الذى لا يعلمه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلابد من بيانها ، وكشف الغطاء عنها ، فإن مالا يعرفه الكثير قد يعرفه القليل فنقول :

الحلال المطلق

وهو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ماتطرق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون وهو واقف عند جمعه وأخذه من الهواء فى ملك نفسه أو فى أرض مباحة .

والحرام المحض

وهو مافيه صفة محرمة لا يشك فيها كالشدة المطربة [2] فى الخمر ، والنجاسة فى البول .

أو حصل بسبب منهِىٍّ عنه قطعا كالمحصل بالظلم والربا ونظائره .

فهذان طرفان ظاهران ، ويلتحق بالطرفين ماتحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ، فإن صيد البر والبحر حلال ، ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد ، بعد الوقوع فى يده وخريطته [3]، فمثل هذا الاحتمال

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن البشير .

(٢) الشدة المطربة : النشوة .

(٣) الخريطة : وعاء من جلد أو نحوه يشد على ما فيه .

لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ،.ولكنه فى معنى ماء المطر ، والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن (ورع الموسوسين) حتى تلتحق به أمثاله ، وذلك لأن هذا وهم مجرد لا دلالة عليه .

نعم ... لودل عليه دليل : فإن كان قاطعا كما لو وجد حلقه فى أذن السمكة ، أو كان محتملا كما لو وجد على الظبية جراحة ، يحتمل أن يكون كياً ، لا يقدر عليه إلا بعد الضبط ، ويحتمل أن يكون جرحا ، فهذا موضع الورع . وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم فى نفسه .

ومن هذا الجنس من يستعير دارا فيغيب عنه المعير ، فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث . فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك ، إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشآ عن سببين متقابلين ، فما لا سبب له لا يثبت عقده فى النفس حتى يساوى العقد المقابل له ، فيصير شكا .

ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثا أو اربعا أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة .

ولو سئل انسان أن صلاة الظهر التى أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثا أو أربع لم يتحقق قطعا أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جوّز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكا إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثا ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب ، فهذا يلتحق بالحلال المطلق .

ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ، ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن فى يده طعام لمورثه الذى لا وارث له سواه ، فغاب عنه فقال : يحتمل أنه مات ، وقد انتقل الملك إلىّ فآكله ، فإقدامه عليه اقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لا مستند له .

فلا ينبغى أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة نعنى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين ..

ربع العادات

الكتاب الخامس : آداب الألفة والأخوة

آداب الألفة والأخوة

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول

فى فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل انسان . قال ﷺ : المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالِل[1] .

ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته ، وتشترط تلك الصفات بسبب الفوائد المطلوبة من الصحبة إذ معنى الشرط ما لابد منه للوصول إلى المقصود ، فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط ، ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية :

أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال أو الجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة ، وليس ذلك من أغراضنا .

وأما الدينية فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب ويصد عن العبادة . ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت .

ومنها الاستعانة فى المهمات فيكون عدة فى المصائب ، وقوة فى الأحوال .

(١) أخرجه أبو داوود والترمذى وحسنه ، والحاكم من حديث أبى هريرة ، وقال : صحيح إن شاء الله .

ومنها التبرك بمجرد الدعاء .

ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة .

فقد قال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك ، وروى فى غريب التفسير فى قوله تعالى : وَيَسْتَجِيب الَّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات ويَزِيدُهم مِنْ فَضْلِه[1] قال : يشفعهم فى إخوانهم ، فيدخلهم الجنة معهم .

ويقال إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه ، ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة ، وكرهوا العزلة والانفراد ، فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطا لا تحصل إلا بها . ونحن نفصلها :

أما على الجملة فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : أن يكون عاقلا ، حسن الخلق ، غير فاسق ولامبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل ، فلا خير فى صحبة الأحمق ، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت .

قال على رضى الله عنه : فلا تصحب أخا الجهل وإياك واياه

فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ماالمرء ما شاه

وللشىء من الشىء مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب دليل حين تلقاه

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدرى ، ولذلك قال الشاعر :

إنى لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا[2] يعتريه جنون

فالعقل فن واحد وطريقه أدرى وأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل : مقاطعة الأحمق قربان إلى الله .

---

(١) سورة الشورى (٢٦) .

(٢) الخل : الصديق .

وقال الثورى : النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة .

ونعنى بالعاقل : الذى يفهم الأمور على ما هى عليه ، إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلابد منه ، إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هى عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه ، وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته ، وتقوم أخلاقه فلا خير فى صحبته .

وقد جمع علقمة العطاردى[1] حسن الخلق فى وصية لابنه حين حضرته الوفاة قال : يابنى : إذا عرضت لك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك .. اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها .. اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وان نزلت بك نازلة واساك . اصحب من إذا قلت صدّق قولك ، وان حاولتما أمرا أمّرك[2] ، وان تنازعتما آثرك . فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة ، وشرط أن يكون قائما بجميعها .

قال ابن أكثم : قال المأمون : فأين هذا؟ فقيل له : أتدرى لم أوصاه بذلك ؟ قال : لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدا .

وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس الا من يكتم سرك ، ويستر عيبك ، فيكون معك فى النوائب[3] ويؤثرك بالرغائب ، وينشر حسنتك ، ويطوى سيئتك . فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك .

وقال على رضى الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئا فى أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا فى أمر دينه فيقبل منك . والثالث فاهرب منه .

وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلو كله فلا يشبع منه ، وآخر مر كله

---

(١) علقمة العطاردى : هو أحمد بن عبد الجبار بن عطارد ، من أهل الكوفة مولدا ووفاة ، روى الحديث ببغداد وتوفى سنة ٢٧٢هـ . (الأعلام جـ ١ ص ١٤٣) .

(٢) أمرك : جعلك أميراً .

(٣) النوائب (ج) نائبه : وهى المصيبة والكارثة .

فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأكل منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط .

وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لا تصحب خمسة : الكذاب : فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد عنك القريب .

والأحمق : فإنك لست منه على شيء ، يريد أن ينفعك فيضرك .

والبخيل : فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه .

والجبان : فإنه يسلمك ويفر عند الشدة .

والفاسق : فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها . فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لاينالها .

وقال الجنيد : لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارىء سيىء الخلق .

وقال ابن أبى الحوارى : قال لى أستاذى أبو سليمان : ياأحمد لاتصحب إلا أحد رجلين : رجلا ترتفق به فى أمر دنياك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حمق كبير .

وقال سهل بن عبد الله : اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس :

الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

واعلم أن هذه الكلمات أثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالاضافة اليها ، فليس ما يشترط للصحبة فى مقاصد الدنيا مشروطا للصحبة فى الآخرة والأخوة كما قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك ، وأخ لدنياك ، وأخ لتأنس به .

وقلما تجتمع هذه المقاصد فى واحد ، بل تتفرق على جمع ، فتتفرق الشروط فيهم لا محالة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ، ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لا أنس فيه ولانفع .

وقيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات : فمنها ماله ظل وليس له ثمر ، وهو مثل الذى ينتفع به فى الدنيا دون الاخرة ، فإن نفع الدنيا كالظل سريع الزوال .

ومنها ماله ثمر وليس له ظل ، وهو مثل الذى يصلح للآخرة دون الدنيا .

ومنها ماله ثمر وظل جميعا . ومنها ماليس له واحد منهما كأم غيلان[1] تمزق الثياب ، ولا طعم فيها ولا شراب . ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب ، كما قال الله تعالى : يَدْعُو لمن ضره أقرب من نَفْعِه لِبِئْسَ المَوْلى ولَبِئْس العَشِير .[2]

وقال الشاعر :

الناس شتى إذا ماأنت ذقتهم ... لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هـذا لـه ثمر حلـو مذاقتـه ... وذاك ليس له طعـم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضى الله عنه : الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة . ويروى مرفوعا .

ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب ، وتبطل نفرة القلب عنها .

قال سعيد بن المسيب : لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة . بل هؤلاء لا سلامة فى مخالطتهم ، وإنما السلامة فى الانقطاع عنهم .

قال الله تعالى : وإذا خَاطَبَهُم الجَاهِلُون قَالُوا سَلاَماً[3] ، أى سلامة ، والألف بدل من الهاء ، ومعناه : إنا سلمنا من اثمكم ، وأنتم سلمتم من شرنا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من معانى الأخوة وشروطها وفوائدها ، فلنرجع فى ذكر حقوقها ، ولوازمها وطرق القيام بحقها .

أما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة من صحبته ، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ، ومن لا يخاف الله لاتؤمن غائلته[4] ، ولايوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض ، قال تعالى :

---

(١) أم غيلان : شجر السمر ، وهو نوع من جنس السنط ، من الفصيلة القرنية ، ويسمى الطلح .
(٢) سورة الحج (١٣) .
(٣) سورة الفرقان (٦٣) .
(٤) الغائلة : الفساد والشر والداهية .

ولاتُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَه عن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَواه[1] . وقال تعالى : فَلا يَصُدَّنَّك عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا واتَّبَعَ هَوَاهُ[2] . وقال تعالى : فأعْرِضْ عَمّن تَوَلى عَنْ ذكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إلا الحَيَاةَ الدُّنْيَا[3] .

وقال تعالى : واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلىّ .[4] وفى مفهوم ذلك زجر عن الفاسق .

وأما المبتدع : ففى صحبته خطر سراية البدعة ، وتعدى شؤمها اليه ، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة ، فكيف تؤثر صحبته ؟ وقد قال عمر رضى الله عنه فى الحث على طلب التدين فى الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب[5] قال : عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم ، فانهم زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه ، واعتزل عدوك واحذر صديقك الا الأمين من القوم ، ولا أمين الا من خشى الله .

فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولاتطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى صاحبه . فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص . ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا ، فلذلك تكره صحبه طلاب الدنيا ، ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة .

---

(١) سورة الكهف (٢٨) .

(٢) سورة طه (١٦) .

(٣) سورة النجم (٢٩) .

(٤) سورة لقمان (١٥) . أناب : رجع وتاب .

(٥) سعيد بن المسيب المخزومى القرشى المدنى ، أحد الفقهاء السبعة ، سيد التابعين من الطراز الأول . جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، وتوفى بالمدينة سنة٩٤هـ . (وفيلات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧٥) والفقهاء السبعة هم : أبو حنيفة ، الشافعى ، مالك ، ابن حنبل ، الليث بن سعد ، الأوزاعى ، سعيد ابن المسيب .

الباب الثالث

فى حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب

حقوق المسلم – حقوق الجوار – حقوق الأقارب والرحم – حقوق الوالدين والولد – حقوق المملوك

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال ﷺ : لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه[1] . وقد قال ﷺ : بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله[2] وقد قال رسول الله ﷺ : من أصبح مُرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فمثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحد ، وإن ظلماً وإن ظلماً وإن ظلماً[3] . وقال ﷺ : إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولايجد ريحها عاق ، ولاقاطع رحم[4] .

وقال ﷺ : برأمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك[5] .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٢) لم يوجد هكذا . وروى أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أنس : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . فقال : هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى . قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد . وإسناده حسن .

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ، ولا يصح .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أبى هريرة دون ذكر قاطع ، وهى فى الأوسط من حديث جابر إلا أنه قال : مسيرة ألف عام . وإسنادهما ضعيف .

(٥) أخرجه النسائى من حديث طارق المحاربى ، وأخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى رمثة . ولأبى داوود نحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده ، وله والترمذى والحاكم ، وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : من أبر ؟ قال : أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب .
وفى الصحيحين : من حديث أبى هريرة : قال رجل : من أحق بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم أبوك . بلفظ مسلم .

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : ياموسى إنه من بر والديه وعقّنى كتبته بارا ، ومن برّنى وعقّ والديه كتبته عاقا .

وقيل : لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له ، فأوحى الله إليه : أتعاظم أن تقوم لأبيك ، وعزتى وجلالى لا أخرجت من صلبك نبيا .

وقال ﷺ : ماعلى أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ، فيكون لوالديه أجرها ، ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيئا[1] .

وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفارلهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما[2] .

وقال ﷺ : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب[3] .

وقال ﷺ : بر الوالدة على الولد ضعفان[4] .

وقال ﷺ دعوة الوالدة أسرع إجابة قيل : يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هى أرحم من الأب ، ودعوة الرحم لا تسقط[5] .

وسأل رجل فقال : يا رسول الله ، من أبر ؟ فقال : بر والديك فقال : ليس لى والدان فقال : بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق[6] .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف .

(٢) أخرجه أبو داوود وابن حبّان والحاكم ، وقال صحيح الاسناد .

(٣) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

(٤) غريب بهذا اللفظ .

(٥) لا أصل له .

(٦) أخرجه أبو عمر النوقاتى فى كتاب (معاشرة الأهلين) من حديث عثمان بن عفان .

وقال ﷺ : رحم الله والدا أعان ولده على بره[1] ، أى لم يحمله العقوق بسوء عمله . وقال ﷺ : ساووا بين أولادكم فى العطية .

وقد قيل : ولدك ريحانتك ، تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك .

وقال أنس رضى الله عنه : قال النبى ﷺ : الغلام يُعق[2] عنه يوم السابع ، ويسمى ويماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أُدِّب ، فإذا بلغ تسع سنين عُزِل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضُرِب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ، ثم أخذ بيده وقال : قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك ، أعوذ بالله من فتنتك بالدنيا ، وعذابك فى الآخِرة[3] .

وقال ﷺ : من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه[4] .

وقال ﷺ : كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته ، تذبح عنه يوم السابع وتحلق رأسه[5] .

وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها ، فاستقبلت بها أوداجها ، ثم توضع على يافوخ الصبى حتى يسيل عنه مثل الخيط ، ثم يغسل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال ، هل دعوت عليه ؟ قال : نعم قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبى ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه الصلاة والسلام : إن من لا يَرحم لا يُرحم[6] .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ ابن حيّان فى كتاب (الثواب) من حديث على بن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ، ورواه النوقانى من رواية الشعبى مرسلا .

(٢) يذبح له ذبيحة .

(٣) أخرجه ابن حبّان فى كتاب (الضحايا والعقيقة) . وفى إسناده : من لم يسم .

(٤) أخرجه البيهقى فى كتاب (الشُّعب) من حديث ابن عباس ، وحديث عائشة وضعفهما .

(٥) أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة ، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٦) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله ﷺ يوما : اغسلى وجه أسامة . فجعلت أغسله وأنا أنفة ، فضرب يدى ثم أخذه ، فغسل وجهه ثم قبّله ، ثم قال : قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية[1] .

وتعثر الحسن والنبى ﷺ على منبره ، فنزل وحمله ، وقرأ قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ[2] .

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ﷺ يصلى بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس ، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر . فقال : إن ابنى قد ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته[3] .

وفى ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى ، فإن العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى إذا كان ساجدا . وفيه الرفق بالولد والبر ، وتعليم الأمة .

وقال ﷺ : ريح الولد من ريح الجنة[4] .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد دخلت علىّ وأنا مملوء غيظا وغضبا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومائتى ثوب ، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب . فقاسمه إياها على الشطر .

فهذه هى الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين ، وكيفية القيام بحقهما وحق

---

(١) رواه أحمد هكذا : (.. لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها) . وإسناده صحيح .

(٢) سورة التغابن (١٥) .

(٣) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة ، وقال الترمذى : حسن غريب .

(٤) أخرجه الطبرانى فى (الصغير) و (الأوسط) ، وابن حبّان فى (الضعفاء) من حديث ابن عباس .

الولد ، تعرف مما ذكرناه فى حق الأخوة فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة ، بل يزيدها هنا أمران :

أحدهما : أكد أكثر العلماءِ على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات ، وإن لم تجب فى الحرام المحض . حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم ، وكذلك ليس لك أن تسافر فى مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمغادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير ، والخروج لطلب العلم نفل ، إلا إذا كنت تطلب علم الفرض ، من الصلاة والصوم ، ولم يكن فى بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ، ولايتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدرى : هاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن ، وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام : هل باليمن أبواك ؟ قال : نعم . قال : هل أذنا لك ؟ . قال : لا . فقال عليه السلام : فارجع إلى أبويك ، فاستأذنهما ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله بعد التوحيد[1] ، وجاء آخر اليه ﷺ ليستشيره فى الغزو فقال : ألك والدة ؟ . قال : نعم . قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجليها[2] .

وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ما جئتك حتى أبكيت والدىّ . فقال : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما[3] .

وقال ﷺ : حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده[4] .

وقال عليه السلام : إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن فى أذنه[5] .

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان .

(٢) أخرجه النسائى وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة . قال الحاكم : صحيح الاسناد .

(٣) أخرجه أبو داوود والنسائى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال : صحيح الاسناد .

(٤) أخرجه ابن حبان فى كتاب « الثواب » من حديث أبى هريرة ، ورواه أبو داوود فى « المرسيل » . من رواية سعيد بن عمرو بن العاص . وإسناده ضعيف .

(٥) أخرجه أبو منصور الديلمى فى « مسند الفردوس » من حديث الحسين بن على بن أبى طالب بسند ضعيف .

ربع العادات

الكتاب السادس : آداب العزلة

وفيه بابان :

الباب الثانى

فى فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم أن اختلاف الناس فى هذا يضاهى اختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة ، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده[1] ، فكذلك القول فيما نحن فيه . فلنذكر أولا فوائد العزلة ، وهى تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية :

والدينية : تنقسم إلى ما يمكن تحصيل الطاعات فى الخلوة ، والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى التخلص من ارتكاب المناهى التى يتعرض الإنسان لها بالمخالطة ، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء .

وأما الدنيوية : فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة كتمكن المحترف فى خلوته من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا ، وإقبال الخلق عليها ، وطمعه فى الناس وطمع الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة ، والتأذى بسوء خلق الجليس فى مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذى بثقله وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة ، فلنحصرها فى ست فوائد :

....

(١) يشير الى ما ذكره فى الكتاب الثانى من الربع الثانى (ربع العادات) .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس .

فأما انقطاع طمع الناس عنك ، ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض ، وحضور الولائم والإملاكات[1] ، وفيها تضييع للأوقات وتعرض للآفات ، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق ، وتستقبل فيها المعاذير . ولايمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له : قمت بحق فلان وقصرت بحقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل :

من لم يعد مريضا فى وقتِ العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله ، إذا صح ، على تقصيره ، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد طول الليل والنهار ، فكيف من له مهم يشغله فى دين أو دنيا ؟

وقال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء .

وقال ابن الرومى :

عدُوكَ من صديقِك مستفاد فلا تَسْتَكْثِرَنَّ من الصحابِ

فإن الداءَ أكثرُ ما تَراه يكونُ من الطعامِ أو الشرابِ

وقال الشافعى رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام .

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ، ولذلك قال الله تعالى :

ولاتَمُدّن عَيْنَيْك إلَى ماَ مَتَّعْناَ بِهِ أَزْواَجاً مِنْهُم[2] .

وقال ﷺ : انظروا إلى من هو دونكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم[3] .

---

(١) الإملاكات : عقود الزواج .

(٢) سورة طه (١٣١) .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ، ودابة أفره من دابتي ، فجالست الفقراء فاسترحت .

وحكى أن المزني[1] رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط[2] ، وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتمثل قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُون[3] ثم قال بلى أصبر وأرضى ، وكان فقيرا مُقِلاً .

فالذي هو في بيته لايبتلى بمثل هذه الفتن . فإن من شاهد زينة الدنيا ، فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر ، وهو أمرّ من الصبر ، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيافيهلك هلاكاً مؤبداً ، أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات ، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما في الآخرة فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه ، ولذلك قال ابن الأعرابي[4] :

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

إشارة إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا .

وآفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير . ولايحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفواته من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ما هي ، وهي التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته في القيام

---

(١) هو أبو أبراهيم اسماعيل المزني صاحب الإمام الشافعي من مصر ، كان زاهدا عالما مجتهدا محجاجا ، غواصا على المعاني الدقيقة ، صنف كتبا كثيرة في مذهب الإمام الشافعي ، وكان من الزهد على طريقة صعبة ، توفي في رمضان سنة ٢٦٤ هـ ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي بسفح المقطم . (الوفيات جـ ١ ص ٢١٧) .

(٢) جامع عمرو بن العاص بمصر .

(٣) سورة الفرقان (٢٠) .

(٤) ابن الأعرابي : الكوفي صاحب اللغة من موالي بني هاشم ، وكان أحد العالمين باللغة المشهورين بمعرفتها له تصانيف عدة ، وأخباره ونوادره وأماليه كثيرة ، وتوفي في شعبان سنة ٢٣١هـ .
(وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨١)

بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها .

فلنفصّل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع :

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه فى الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة .

فقد روى فى الإسرائيليات أن حكيما صنف ثلاثمائة وستين مصحفا فى الحكمة ، حتى ظن أنه قد نال عند الله منزله ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان إنك قد ملأت الارض نفاقا وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا ، قال : فتخلى وانفرد فى سرب تحت الارض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك لن تبلغ رضا الله حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى فى الأسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى .

فكم من معتزل فى بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يُوقَر أولا يُقَدَّم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط ، فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس فى زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرّب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يُبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له ، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال :

وهل جئتنى إلا لأتزين لك وتتزين لى .

وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولاترانى .

فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجردّ للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام .

والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه :

أحدها : أن التواضع والمخالطة لاتنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه ، إذ كان على رضى الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لاينقص الكاملَ من كماله　　　ما جرّ من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبىّ وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الحطب ، وجِرَب[1] الدقيق على أكتافهم .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : وهو والى المدينة والحطب على رأسه — طَرِّقوا[2] لأميركم . وكان سيد المرسلين ﷺ يشترى الشىء فيحمله إلى بيته بنفسه ، فيقول له صاحبه : أعطنى أحمله ، فيقول : صاحب الشىء أحق بحمله[3] .

وكان الحسن بن على رضى الله عنهما يمر بالسُّؤَّال وبين أيديهم كِسَرٌ فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله ، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول : إن الله لا يُحبُّ المُسْتَكبِرِين .

الوجه الثانى : أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور ، لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا ، وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لا تنال ، فرضا الله أولى بالطلب .

ولذلك قال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إذ ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ؟ ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما　　　وفـاز باللـذة الجَسُور[4] .

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا — لشىء أمره به — فقال :

---

(١) جرب : (ج) جراب وهو وعاء يحفظ فيه الزاد .

(٢) طرقوا : أفسحوا الطريق .

(٣) أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل التى اشتراها .

(٤) القائل هو سلم الخاسر .

يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس . فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين :

عبد تسقطُ الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلا خالقه ، وأن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه .

وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه .

وقال الشافعى رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض ، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله .

وقيل للحسن[1] : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال ، فتبسم وقال للقائل : هوّن على نفسك فإنى حدّثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ، وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم .

وقال موسى ﷺ : يارب احبس عنى ألسنة الناس . فقال : يا موسى هذا شىء لم أصطفه نفسى فكيف أفعله بك ؟ .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير[2] : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علكافى أفواه الماضغين لم أكتبك عندى من المتواضعين .

فإذن من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه ، فهو فى عناء حاضر فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون[3] .

فإذن لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعبادة وعلما ، بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته ، وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته .

فهذه غوائل[4] خفية فى اختيار العزلة ينبغى أن تتقى فإنها مهلكات فى صور منجيات .

---

(١) الحسن البصرى .

(٢) عزير : أحد عباد بنى اسرائيل ، وهم يعتبرونه أحد أنبيائهم ، ولكن القرآن لم يعتبره كذلك .

(٣) سورة القلم (٣٣) .

(٤) غوائل (ج) غائلة وهى الفساد والشر .

ربع العادات

الكتاب السابع : آداب السفر

وفيه بابان :

الباب الثانى

فيما لا بد للمسافر من تعلمه
من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

اعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره إلى أن يتزود لدنياه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة ، فإن خرج متوكلا من غير زاد ، فلا بأس به إذا كان سفره فى قافلة أو بين قرى متصلة .

وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب ، فإن كان ممن يصبر على الجوع ــ أسبوعا أو عشرا مثلا ــ أو يقدر على أن يكتفى بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء[1] بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية ، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ، ولهذا سر سيأتى فى كتاب التوكل .

وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل لنزع الماء من البئر . ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فيه . فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح فى

---

(١) الاجتزاء : الاكتفاء .

التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه .

وستأتى حقيقة التوكل فى موضعها ، فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصومه وصلاته وعبادته ، فلابد أن يتزود منه ، إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها فى الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلاة ، فإنه فى البلد يكتفى بغيره من محاريب المساجد وآذان المؤذنين .وفى السفر قد يحتاج إلى إن يتعرف بنفسه . فإذن ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد فى الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفى صلاة الفرض رخصتين : القَصْر ، والجمع ، وفى النفل رخصتين : أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشيا ، وفى الصوم رخصة واحدة وهى الفطر فهذه سبع رخص .

■ **الرخصة الأولى :**

المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرين أن لاننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن[1] ، فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقيما ولكن بخمسة شروط :

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة ، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها فى الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها فى الخف لم يجز له المسح عند الشافعى رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه .

الثانى : أن يكون الخف قويا يمكن المشى فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم

---

(١) أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجة والنسائى فى الكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

يكن مُنْعَلاً ، إذ العادة جارية بالتردد فيه فى المنازل،لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه ، وكذا الجرموق[1] الضعيف .

الثالث : أن لا يكون فى موضع فَرْضِ الغَسْلِ خرقٌ ، فإن تَخَرَّقَ بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه . وللشافعى قول قديم : إنه يجوز مادام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضى الله عنه . ولابأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز[2] فى السفر فى كل وقت .

والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساتراً لا تبدو بشرة القدم من خلاله . وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك ، فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا الى ما فوق الكعبين كيفما كان .

الرابع : ألا ينزع الخف بعد المسح عليه . فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء . فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لا على الساق ، وأقله ما يسمى مسحا على ظهر القدم من الخف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف ، وأكملُه أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار[3] . كذلك فعل رسول الله ﷺ .

ووصفه : أن يبل اليدين ويضع رؤوس أصابع اليمنى من يده على رؤوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رؤس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس القدم . ومهما مسح مقيما ثم سافر أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف فى الحضر ومسح فى الحضر ثم خرج وأحدث فى السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاث أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع

---

(١) الجرموق : الخف القصير يلبس فوق خف .

(٢) الخرز : خرز الجلد أى خاطه .

(٣) حديث : مسحه ﷺ على الخف وأسفله .

أخرجه أبو داوود والترمذى وضعفه ، وابن ماجه من حديث المغيرة ، وهكذا ضعفه البخارى وأبو زرعة .

لم يكن له أن يصلى إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف ، ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب .

ولو أحدث بعد لبس الخف فى الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام ، لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث ، فأما إذا مسح فى الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الخف فى حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذرا من حية أو عقرب أو شوكة . فقد روى عن ابى أمامة أنه قال : دعا رسول الله ﷺ بخفيه فلبس أحدهما ، فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به ، فخرجت منه حية فقال رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خُفَّيه حتى ينفضهما[1] .

■ الرخصة الثالثة فى الصلاة المفروضة ـــ القصر

وله أن يقتصر فى كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة :

الأول : أن يؤديها فى أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام .

الثانى : أن ينوى القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك فى أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام .

الثالث : أن لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزم الإتمام بل إن شك فى أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن تيقن بعده أنه مسافر ، لأن شعار المسافر لا تخفى ، فليكن متحققا عند النية ، وإن شك فى أن إمامه هل نوى القصر أم لا ـــ بعد أن عرف أنه مسافر ـــ لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يُطَّلَعُ عليها . وهذا كله إذا كان فى سفر طويل مباح[2].

وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال ، فلابدّ من معرفته .

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) السفر المباح سيفصله المؤلف فى الصفحة التالية .

والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف[1] ليس له الترخص ، وهو الذى لا يقصد موضعا معينا .

ولا يصير مسافرا مالم يفارق عمران البلد ، ولايشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التى يخرج أهل البلدة إليها للتنزه .

وأما القرية فالمسافر منها ينبغى أن يجاوز البساتين المحيطة دون التى ليست بمحوطة .

ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه مالم يجاوز العمران . وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص ، إذ صار مسافرا بالانزعاج والخروج منه ، أما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة :

الأول : الوصول إلى العمران من البلد الذى عزم على الإقامة به .

الثانى : العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعدا إما فى بلد أو صحراء .

الثالث : صورة الإقامة وإن لم يعزم ، كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول ، لم يكن له الترخص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ولكنه يتعوق عليه ويتأخر ، فله أن يترخص وإن طالت المدة . على أقيس القوانين ـــ لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ، ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولافرق بين أن يكون هذا الشغل قتالا أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولابين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره . إذ ترخص رسول الله ﷺ فقصر فى بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد[2] . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه ، إذ لامعنى للتقدير بثمانية عشر يوما . والظاهر أن قصره كان لكونه مسافرا لا لكونه غازيا مقاتلا هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين :

---

(١) الذى يركب التعاسيف : من لم يسلك الطريق السليم . والهائم : الذى يسير على غير هدى .

(٢) أخرجه أبو داوود من حديث عمران بن حصين فى قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانى عشرة ليلة لا يصلى إلا ركعتين . وللبخارى من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة . ولأبى داوود : سبعة عشر : بتقدم السين ، وفى رواية له : خمسة عشر .

كل مرحلة ثمانية فراسخ ، كل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منهما ، ولا هاربا من مالكه ، ولا تكون المرأة هاربةً من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجها فى قطع طريق ، أو قتل إنسان ، أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم ، أو سعى بالفساد بين المسلمين .

وبالجملة لا يسافر الإنسان إلا فى غرض ، والغرض هو المحرك .

فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ، ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره ، فسفره معصية ، ولا يجوز فيه الترخص .

وأما الفسق فى السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة .

بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة . ولو كان له باعثان : أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلاً بتحريكه ، ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخص .

والمتصوفة الطوافون فى البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة فى ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخص .

ربع العادات

الكتاب الثامن :

آداب السماع والوجد

وفيه بابان :

الباب الأول

فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه ــ بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه ــ بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ[1] قال ابن مسعود والحسن البصرى والنخعى رضى الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء .

وروت عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها .[2]

فنقول : أما القينة فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب .

وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ماروى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله عنها .

---

(١) سورة لقمان (٦) .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط باسناد ضعيف ، قال البيهقى : ليس بمحفوظ .

وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد فى الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال .

فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم .

واحتجوا بقوله تعالى : أَفَمِنْ هَذَا الحَديثِ تَعْجَبُون وتَضْحَكُون ولاَ تَبْكُون وأَنْتُمْ سامِدُون[1] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير — يعنى السمد .

فنقول : ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه .

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ، فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى : والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهم الغَاوُون[2] وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضى الله عنه أنه ﷺ قال : كان إبليس أول من ناح ، وأول من تغنى[3] .

فقد جمع بين النياحة والغناء .

قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ، ونياحة المذنبين على خطاياهم . فكذلك يستثنى الغناء الذى يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد فى بيت الرسول ، وغناؤهن عند قدومه عليه السلام :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

---

(١) سورة النجم (٥٩ — ٦١) .

(٢) سورة الشعراء (٢٢٤) .

(٣) لا أصل له ، ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب .

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه ﷺ أنه قال : ما رفع أحد صوته بالغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك[1] .

قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذى قدمناه ، وهو الذى يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين .

فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب ، فهذا كله يُضَادُّ مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التى نقلناها من الصحاح ، فالتجويز فى موضع واحد نص فى الإباحة ، والمنع فى ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل .

أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وماأبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال : كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل ، إلا تأديبَه فرسهَ ورميةَ بقوسِه وملاعبتَه لامرأتهِ[2] .

قلنا : فقوله (باطل) لا يدل على التحريم ، بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك . على أن التلهى بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام . بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله ﷺ : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث[3] فإنه يلحق به رابع وخامس . فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ .

وفى هذا دليل على أن التفرج فى البساتين وسماع أصوات الطيور ، وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها . وإن جاز وصفه بأنه باطل .

واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت[4] ولا مسست ذكرى بيمينى مذ بايعت رسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى والطبرانى فى الكبير ، وهو ضعيف .

(٢) أخرجه أصحاب السنن الأربعة ، وفيه اضطراب .

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود . والثلاث هى : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمارق من الدين التارك للجماعة .

(٤) التمنّى مراد به هنا : الكذب .

قلنا : فليكن التمنى ومس الذكر باليمنى حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء ، فمن أين يثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت فى القلب النفاق . وزاد بعضهم ــ كما يثبت الماء البقل[1] . ورفعه بعضهم إلى رسول الله ﷺ وهو غير صحيح . قالوا : مر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم مُحْرِمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله لكم ، ألا لا أسمع الله لكم .

وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق فسمع زمارة راع فوضع إصبعيه فى أذنيه ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا . فأخرَج إصبعيه .

وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع[2] .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رُقية الزنا .

وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد الفجور .

وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر . فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنا .

فنقول : قول ابن مسعود رضى الله (ينبت النفاق) أراد به فى حق المغنى ، فإنه فى حقه ينبت النفاق ، إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لا يوجب تحريما .

فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجه[3] وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط ، بل

---

(١) قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن فى اسناده من لم يسم . رواه أبو داود وهو فى رواية ابن العبد ليس فى رواية اللؤلؤى ، رواه البيهقى مرفوعا وموقوفا .

(٢) رفعه أبو داوود ، وقال : هذا حديث منكر .

(٣) المهملجة : المذللة سلسة القياد .

المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا . ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهذا النفاق من المباحات .

أما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء ، بل كانوا مُحْرمين ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى ، بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا ، بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام .

وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال .

وأما وضعه إصبعيه فى أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعا بذلك ولا أنكر عليه سماعه . وإنما فعل ذلك هو ، لأنه رأى أن ينزه سمعَه فى الحال ، وقلبَه عن صوت ربما يحرك اللهو ، ويمنعه عن فكر كان فيه ، أو ذكر هو أولى منه .

وكذلك فِعْلُ رسول الله ﷺ ـــ مع أنه لم يمنع ابن عمر ـــ لا يدل على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه .

ونحن نرى أن الأولى تركه فى أكثر الأحوال . بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر فى القلب .

فقد خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه[1] .

أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ .

فلعله ﷺ كان فى حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله عن تلك الحالة ، كما شغله العَلَمُ عن الصلاة .

بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور ، بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كمالا بالإضافة إلى غيره . ولذلك قال الحصرى :[2]

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) الحصرى : القيروانى الشاعر المشهور . كان عالما بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس للقرآن ، له ديوان شعر ، ومن قصائده القصيدة التى أولها : ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
توفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . (وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣١) .

ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يُسْمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم . فالأنبياء عليهم السلام على الدوام فى لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل : هى رقية الزنا . وكذلك ما عداه من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان . ولو كان ذلك عاماً لما سمع من الجاريتين فى بيت رسول الله ﷺ .

وأما القياس :

فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أو يقال هو لهو ولعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لهو ولعب .

قال عمر رضى الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة فى زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد . وكذلك المزح الذى لا فحش فيه حلال .

نقل ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة . كما سيأتى تفصيله فى كتاب (آفات اللسان) إن شاء الله . وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟

على أنى أقول : اللهو مروح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجد . فالمواظب على التفقه مثلا ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام . والمواظب على نوافل الصلاة فى سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات .

فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض والحق المر إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام .

فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال . فينبغى أن يكون مباحا ، ولكن لا ينبغى أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء ، فإذن اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا فى حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها ،

بل ليس له الا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغى أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذى ذكرناه .

نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال ، فإن الكامل هو الذى لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ، ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لاغنى عنه .

ربع العادات

الكتاب التاسع : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وفيه أربعة أبـواب :

الباب الثالث

فى المنكرات المألوفة فى العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ، إذ لا مطمع فى حصرها واستقصائها فمن ذلك منكرات المساجد ، ومنكرات الأسواق ، ومنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة ، والمنكرات العامة

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة فى الأسواق : الكذب فى المرابحة ، وإخفاء العيب . فمن قال : اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا ، وكان كاذبا فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه ، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له فى الخيانة وعصى بسكوته .

وكذا إذا علم به عيبا فيلزمه أن ينبه المشترى عليه ، وإلا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام ، وكذا التفاوت فى الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيّره .

ومنها ترك الايجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك فى محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب

الإنكار فيها ، فإنها مفسدة للعقود . وكذا فى الربويات كلها وهى غالبة . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملاهى وبيع أشكال الحيوانات المصورة فى أيام العيد لأجل الصبيان ، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهى . وكذلك بيع الأوانى المتخذة من الذهب والفضة ، وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلانس الذهب والحرير أعنى التى لا تصلح إلا للرجال ، أو يعلم بعادة البلد أنه لايلبسه الا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور ، وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التى يُلَبِّسُ على الناس بقصارتها وابتذالها ، ويَزْعمُ أنها جديدة ، فهذا الفعل حرام ، والمنع منه واجب . وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفْوِ ، وما يؤدى إلى الالتباس .

وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه . فليقس بما ذكرناه مالم نذكره .

منكرات الشوارع

فمن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء الدِّكَّات متصلة بالأبنية المملوكة وغرس الأشجار ، وإفراج الرواش[1] والأجنحة ، ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر ، إن كان يؤدى إلى تضييق الطرق واستضرار المارة ، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه .

نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة فى الطريق ، فى القدر الذى ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك فى الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه .

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يُضَيِّقُ الطريق ويُنَجِّسُ المجتازين منكرٌ يجب المنع منه ، إلا بقدر حاجة النزول والركوب .

وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة ، وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة ، والْمَرْعِيُّ هو الحاجة التى ترد الشوارع لأجلها فى العادة ، دون سائر الحاجات .

---

(١) الرواش : جمع الروش ، وهو الشرفة .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس ، فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل .

وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالا تطيقه منكرٌ يجب منع الملاك منه .
وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح فى الطريق حِذَاءَ باب الحانوت ، ويلوث الطريق بالدم ، فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ فى دكانه مذبحا ، فإن فى ذلك تضييقا بالطريق وإضرار بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استقزاز الطباع للقاذورات .

وكذلك طرح القمامة على جوادّ الطرق ، وتبديد قشور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يُخْشَى منه التزلق والتعثر ، كل ذلك من المنكرات .

وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط فى الطريق الضيقة ، فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه فى الطرق الواسعة ، إذ العدول عنه ممكن .

فأما ترك مياه الأمطار والأوحال والثلوج فى الطرق من غير كسح فذلك منكر .
ولكن ليس يختص به شخص معين ، إلا الثلج الذى يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذى يجتمع على الطريق من ميزاب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، إن كان من المطر ، فذلك حسبة عامة ، فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها . وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط . وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه . وإن كان لا يؤذى إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه . وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكلبه أولى بالمنع .

المنكـرات العامـة

اعلم أن كل قاعد فى بيته — أينما كان — فليس خاليا فى هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع فى شروط الصلاة فكيف فى القرى والبوادى ؟ . ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق .

وواجب أن يكون فى كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا فى كل قرية ، وواجب على كل فقيه — فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية — أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد من العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم ، فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين ، والإعم الحرج الكافة أجمعين .

أما العالم فتقصيره فى الخروج . وأما الجاهل فتقصيره فى ترك العلم .

وكل عامى عَرَفَ شروط الصلاة فعليه أن يُعَرِّفَ غيره وإلا فهو شريك فى الإثم .

ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمرى الإثم على الفقهاء أشد ، لأن قدرتهم فيه أظهر ، وهو بصناعتهم أليق ، لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش ، فهم قد تقلدوا أمرا لابد منه فى صلاح الخلق .

وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله ﷺ ، فإن العلماءِ هم ورثة الأنبياء . وليس للإنسان أن يقعد فى بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهى .

وكذا كل من تيقن أن فى السوق منكرا يجرى على الدوام أوفى وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود فى البيت ، بل يلزمه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة مالا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح ، فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم

يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى اهل بلده ثم إلى أهل السوادى[1] المكتنف[2] ببلده ، ثم إلى أهل البوادى من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم . فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد ، وإلا خرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله على تجزئة الأوقات فى التفريعات، النادرة والتعمق فى دقائق العلوم التى هى من فروض الكفايات ، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

(١) ما حول المدن من القرى والريف .

(٢) المحيط .

ربع العادات

الكتاب العاشر : آداب المعيشة وأخلاق النبوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وتربيته ، وأدب نبيه محمدا ﷺ فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا.

أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق ، والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هى مغارس الأفعال ومنابعها . وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها .

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه . ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية .

ولقد كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربع العبادات قد أتى على جملة من الآداب ، فاستثقلت تكريرها وإعادتها ، فإن طلب الإعادة ثقيل ، والنفوس مجبولة على معاداة المعادات .

فرأيت أن أقتصر فى هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله ﷺ ، وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد ، فأسردها مجموعة فصلا فصلا محذوفة الأسانيد ليجتمع فيه

مع جميع الآداب تجديد الإيمان ، وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى شهد احادها على القطع بأنه أكرم خاق الله تعالى وأعلاهم رتبة وأجلهم قدرا ، فكيف مجموعها .

ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ، ثم ذكر معجزاته التى صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنتزعاً عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصم .

والله تعالى ولى التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين فى الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ، ومجيب دعوة المضطرين .

ولنذكر فيه أولا : بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن ، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ، ثم بيان كلامه وضحكه ، ثم بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام ، ثم بيان أخلاقه وآدابه فى اللباس ، ثم بيان عفوه مع القدرة ، ثم بيان إغضائه عما كان يكره ، ثم بيان سخاوته وجوده ، ثم بيان شجاعته وبأسه ، ثم بيان تواضعه ، ثم بيان صورته وخلقته ، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته ﷺ .

« بيان جملة من محاسن أخلاقه التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار » .

كان ﷺ أحلم الناس[1] ، وأشجع الناس[2] ، وأعدل الناس[3] ، وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه[4] ، وكان أسخى الناس[5] ، لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء

---

(١) رجه أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عبد الرحمن بن أبزى وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام ، فى قصة إسلام زيد بن شعنه من أحبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه النبى ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما فقد اختبرتهما .

(٢) متفق عليه من حديث أنس . (٣) أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب .

(٤) أخرجه الشيخان من حديث عائشة .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس . ورجاله ثقات

ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه[١] ، ولا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله[٢] ، لا يُسأل شيئا إلا أعطاه[٣] ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء[٤] ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ، ويخدم فى مهنة أهله[٥] ، ويقطّع اللحم معهن[٦] ، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد[٧] ، ويجيب دعوة العبد والحر[٨] ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ، ويكافىء عليها[٩] ويأكلها ولا يأكل الصدقة[١٠] ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين[١١] ،

يغضب لربه ولا يغضب لنفسه[١٢] ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك[١٣] ، وجد من فضلاء أصحابه ، وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يَحْفُ عليهم ولا زاد على مر الحق،بل وداه بمائة ناقة ، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به[١٤] وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع[١٥] ، ومرة يأكل ما حضر ولايرد ما وجد

---

(١) أخرجه أبو داوود من حديث بلال ، والبخارى من حديث عقبة بن الحارث .

(٢) متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب .

(٣) أخرجه الطيالسى والدارقى من حديث سهل بن سعد ، وللبخارى ولمسلم من حديث أنس .

(٤) هذا معلوم ويدل عليه ما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عباس .

(٥) أخرجه أحمد من حديث عائشة ، ورجاله رجال الصحيح ، وللبخارى من حديث عائشة : كان يكون فى مهنة أهله (٦) أخرجه أحمد من حديث عائشة وكذلك فى الصحيحين .

(٧) أخرجه الشيخان من حديث أبى سعيد الخدرى (٨) أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس . قال الحاكم : صحيح الاسناد . (٩) أخرجه البخارى من حديث عائشة وكذلك أحمد . وفى الصحيحين من حديث أنس (١٠) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(١١) أخرجه النسائى والحاكم من حديث عبيد الله بن أبى أوفى بسند صحيح ، ورواه الحاكم أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى . وقال : صحيح على شرط الشيخين . (١٢) أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة . (١٣) أخرجه مسلم من حديث عائشة .

(١٤) متفق عليه من حديث سهل بن أبى حثمة ورافع بن خديج ، وداه : دفع لأهله الدية .

(١٥) متفق عليه من حديث جابر .

ولايتورع عن مطعم حلال . وإن وجد تمرا دون خبز أكله[1] ، وإن وجد شواء أكله ، وإن وجد خُبْزَ بُرٍّ أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله ، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله .

لا يأكل متكئا ولا على خوان ، منديله باطن قدميه ، لم يشبع من خبزبر ثلاثة أيام متوالية ، حتى لقى الله تعالى إيثارا على نفسه ، لا فقرا ولا بخلا ، يجيب الوليمة[2] ، ويعود المرضى .[3] ويشهد الجنائز ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس . أشد الناس[4] تواضعا وأسكنهم فى غير كبر ، وأبلغهم فى غير تطويل[5] ، وأحسنهم بشرا ، لا يهوله شيء من أمور الدنيا .

ويلبس ما وجد فمرة شَمْلة ، ومرة بُرْدْ حبره يمانيا ، ومرة جُبة صوف ، ما وجد من المباح لبس . وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر[6] .

يردف خلفه عبده أو غيره ، يركب ما أمكنه ، مرة فرسا ، ومرة بعيرا ، ومرة بغلة شهباء ، ومرة حمارا ، ومرة يمشى راجلا حافيا ، بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة .

يعود المرضى فى أقصى المدينة ، يحب الطيب ، ويكره الرائحة الرديئة[7] ، ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم[8] .

يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم[9] لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقا[10] ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره[11] ، يسابق أهله[12] ، وترفع الأصوات عليه فيصبر[13] ، وكان له لقاح

---

(١) للشيخين من حديث عائشة . كذلك رواه الترمذى من حديث ابن عباس .

(٢) فى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه الترمذى وضعفه ابن ماجة والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف

(٤) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عائشة .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم من حديث عائشة . (٦) أخرجه مسلم من حديث أنس . (٧) أخرجه النسائى من حديث أنس . (٨) أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على الطويل . (٩) أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس . (١٠) أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة . (١١) أخرجه الشيخان من حديث عائشة . (١٢) أخرجه أبو داوود والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة . (١٣) أخرجه البخارى من حديث عبد الله بن الزبير .

وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس .[1]

ولايمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه[2] ، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا ، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة ، والسياسة التامة ، وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب .

نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقره وفى رعاية الغنم يتيما ، لا أب له ولا أم ، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة ، وأخبار الأولين والآخرين ، وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ، ولزوم الواجب وترك الفضول[3] .

وفقنا الله لطاعته فى أمره والتأسى به فى فعله ، آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

مما رواه البحترى قال : ما شتم رسول الله ﷺ أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة[4] ، وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة[5] ، وقيل له وهو فى القتال :

لو لعنتهم يا رسول الله فقال : إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا .[6] وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له[7] .

وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شىء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله . وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس من ذلك[8] .

وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته .

وقال أنس رضى الله عنه : والذى بعثه بالحق ما قال لى فى شىء قط كرهه '' لم فعلته ؟ ''

---

(١) أخرجه محمد بن سعد فى الطبقات من حديث سلمى . واسناده ضعيف .

(٢) رواه مسلم من حديث أنس . (٣) رواه الترمذى من حديث على بن أبى طالب .

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٥) متفق عليه من حديث عائشة . (٦) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٧) أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة . (٨) متفق عليه من حديث عائشة .

ولا لامنى نساؤه إلا قال : دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر[1] .

قالوا : وما عاب رسول الله ﷺ مَضْجَعا ، إن فرشوا له اضطجع ، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض .[2]

وقد وصفه الله تعالى فى التوراة قبل أن يبعثه فى السطر الأول فقال : محمد رسول الله عبدى المختار لا فظ ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشام ، يأتزر على وسطه ، هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم ، يتوضأ على اطرافه . وكذلك نعته فى الإنجيل . وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام[3] .

ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها[4] ، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله[5] ، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال : ألك حاجة ؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته[6] ، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة[7] .

ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه[8] لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ، وما رؤى قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بها على أحد ، إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه . وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه ، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل ، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه ، حتى يعطى كل من

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أنس . (٢) فى الصحيحين من حديث عمر . (٣) أخرجه الترمذى من حديث هند بن أبى هالة . (٤) أخرجه أبو داوود من حديث أبى ذر . (٥) أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث على . (٦) لا أصل له .

(٧) أخرجه أبو داوود والترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى (٨) أخرجه أبو داوود والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى ذر .

جلس إليه نصيبه من وجهه ، حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى : فَبِماَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .[1] .

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم[2] ، ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ، ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدىء لهن الكنى . ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم ، وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، وكان أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس .

ولم تكن ترفع فى مجالسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

ثم يقول : علمنيهن جبريل عليه السلام[3] .

---

(١) سورة آل عمران (١٥٩) .

(٢) فى الصحيحين من حديث أنس .

(٣) أخرجه النسائى والحاكم من حديث رافع بن خديج .

الربع الثالث

المهلكات

وهو عشرة كتب :

الكتاب الأول : شرح عجائب القلب

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

بعد المقدمة : بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى :

اعلم أن هذه الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط ومنشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى ، واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلبْ

وهو يطلق لمعنيين : أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر

١

من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه . ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ، ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للميت .

ونحن إذا أطلقنا القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة ، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين .

والمعنى الثانى : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق . وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، والمدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ، إذ تعلقه به يضاهى الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين :

أحدهما : أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا فى هذا الكتاب إلا علوم المعاملة .

الثانى : أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح ، وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ[1] فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها ، لا ذكر حقيقتها فى ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثانى : الروح

وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين :

أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح .

يدار فى زوايا البيت ، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه .

والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى :

هو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان . فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا .

المعنى الثانى : هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى [1] . وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته .

اللفظ الثالث : النفس

وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان :

أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الاشارة بقوله عليه السلام : أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك[2] .

المعنى الثانى : هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الانسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، قال تعالى فى مثلها : يأَيَّتُهَا النَّفْس المُطْمَئِنَّة ارجْعى إلى ربِّك رَاضِيَةً مَرْضِيَّة[3] . والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله وهى من حزب الشيطان .

---

(١) سورة الاسراء (٨٥) .   (٢) أخرجه البيهقى فى كتاب (الزهد) من حديث ابن عباس .

(٣) سورة الفجر (٢٧) و (٢٨) .

وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ، ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال تعالى : ولا أُقْسِمُ بالْنَفْسِ اللّوامَةِ[1] .

وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز : وماَ أُبَرِّىءُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوء[2] . وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول .

فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الانسان أو ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل

وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان :

أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب .

الثانى : أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة .

ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يدرك ويراد به محل الادراك ، أعنى المدرك وهو المراد بقوله ﷺ : أول ما خلق الله العقل[3] . فان العلم عرض ، ولا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن خطاب معه . وفى الخبر أنه قال له تعالى : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر .. الحديث .

---

(١) سورة القيامة (٢) .

(٢) سورة يوسف (٥٣)

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة ، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين .

فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة .

ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالمة المدركة من الانسان . والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة . والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الأسامى .

وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الاشياء ، وقد يكنى عنه القلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ، لكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب ، وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسى . ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكة الانسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسى بالنسة إلى الله تعالى . ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه .

الباب الرابع

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصورها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينهما إلا على سماسرة العلماء بالشرع .

فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : عفى عن أمتى ما حدثت به ما لم تتكلم به أو تعمل به[1] . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول للحفظة : إذا همَّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها ،فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا ، وقد أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين . وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة . وفى لفظ آخر : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هَمَ بحسنة ، فعلها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ، وإن عملها كتبت سيئة واحدة . وفى لفظ آخر : وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها . وكل ذلك يدل على العفو .

أما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه : إنْ تُبْدوا ماَ فى أَنْفُسِكُم أَوْ تُخْفُوهُ يُحاَسِبْكُم بِهِ الله فَيَغْفِر لِمَنْ يَشاَءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاَءُ[2] . وقوله تعالى : ولا تَقْفُ ماَ لَيْسَ لَكَ بِه عِلمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كاَنَ عَنْهُ مَسْئُولاً[3] . فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر ، فلا يعفى عنه .

وقوله تعالى : ولاَ تكْتُمُوا الشَّهاَدَة ومَنْ يِكْتُمْها فَإنَّه آثمٌ قَلْبُه[4] .

وقوله تعالى : لاَ يُؤاخذُكُم الله باللَّغْوِ فِي أَيْماَنِكُمْ ولكن يُؤاخِذْكُم بِماَ كَسَبَتْ قُلُوبُكُم[5] .

والحق عندنا فى هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها ، إلى أن يظهر العمل على الجوارح . فنقول :

أول ما يرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر مثلا صورة امرأة ، وأنها وراء ظهره لو التفت إليها لرآها .

والثانى : هيجان رغبة النظر وهو حركة الشهوة فى الطبع ، وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ، ويسمى الأول حديث النفس .

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) سورة البقرة (٢٨٤) .

(٣) سورة الاسراء (٣٦) .. الفؤاد : القلب .

(٤) سورة البقرة (٢٨٣) .

(٥) سورة البقرة (٢٢٥) .

والثالث : حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل ، أى ينظر إليها ، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ، ما لم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات ، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل ، وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل .

الرابع : تصميم العزم على الالتفات ، وجزم النية فيه وهذا ما نسميه همًّا بالفعل ونيّة وقصدا . وهذا الهمّ قد يكون له مبدأ ضعيف ، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم ، وصار إرادة مجزومة ، فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل لبه ، ولا يلتفت إليه ، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل .

فهاهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة :

الخاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ثم الاعتقاد ، ثم الهمّ .

فنقول : أما الخاطر فلا يؤاخذ به ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار ، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار . وهما المراد بقوله ﷺ : عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها . فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ، ولا يتبعها عزم على الفعل .

فأما الهمّ والعزم فلا يسمى حديث النفس ، بل حديث النفس كما روى عثمان بن مظعون حيث قال للنبى ﷺ : يا رسول الله ، نفسى تحدثنى أن أطلق خولة . قال : إن من سنتى النكاح . قال : نفسى تحدثنى أن أجب نفسى[1] قال مهلا ، خصاء أمتى دءوب الصيام قال : نفسى تحدثنى أن أترهب . قال : مهلا ، رهبانية أمتى الجهاد والحج . قال : نفسى تحدثنى أن أترك اللحم . قال : مهلا ، إنى أحبه ، ولو أصبته لأكلته ، ولو سألت الله لأطعمنيه[2] . فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل هى حديث النفس . ولذلك شاور رسول الله ﷺ إذ لم يكن معه عزم وهمٌّ بالفعل .

---

(١) جَبُّ نفسه : أى استأصل خصيته .

(٢) أخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » . كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وللدارانى من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ آخر ، وللبغوى والطبرانى فى معجمى الصحابة بإسناد حسن .

وأما الثالث : وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل ، فهذا تردد أن يكون اضطرارا أو اختيارا ، والأحوال تختلف فيه ، فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لا يؤاخذ به .

وأما الرابع : وهو الهم بالفعل : فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر ، فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى ، وندما على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة ، وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة .

والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة ، فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى ، والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع ، فكتب له حسنة لأنه رجح جده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل ، وأن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة ، فإن همه فعل من القلب اختيارى .

والدليل على هذا التفضيل ما روى فى الصحيح[1] مفصلا فى لفظ الحديث ، قال رسول الله ﷺ : قالت الملائكة عليهم السلام : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ــ وهو أبصر به ــ فقال : ارقبوه ، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرّائى[2] . وحيث قال : فإن لم يعملها ، أراد بها تركها لله ، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة ؟ .

وقد قال ﷺ : إنما يحشر الناس على نياتهم[3] . ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما ، أو يزنى بامرأة ، فمات تلك الليلة ، مات مصرّا ، ويحشر على نيته ، وقد هم بسيئة ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، فقيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟

---

(١) هو صحيح مسلم .

(٢) رواه مسلم من حديث أبى هريرة . من جرائى : من أجلى

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث جابر ومن حديث أبى هريرة وإسنادهما حسن ، ومسلم من حديث عائشة ، وله من حديث أم سلمة .

قال : لأنه أراد قتل صاحبه[1] . وهذا نص فى أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما .

فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمّ ؟ . بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفّره بحسنة ، ونقض العزم بالندم حسنة ، فلذلك كتبت له حسنة ، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة .

وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار ، فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق ، ولذلك لما نزل قوله تعالى : وإن تُبْدُوا ماَ فِي أَنْفسِكُم أَوْ تُخْفُوه يُحَاسِبْكم بِهِ الله[2] ـــ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ وقالوا : كلفنا مالا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك . فقال ﷺ : لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا ، قولوا سمعنا وأطعنا . فقالوا : سمعنا وأطعنا[3] . فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله : لاُيكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَهَا[4] ، فظهر به أن كل مالا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذى لا يؤاخذ به .

فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس .

وكل من يظن أن كل ما يجرى على القلب يسمى حديث النفس ، ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلابد وأن يغلط ، وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب ؟ .

بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . أى ما يدخل تحت الاختيار ، فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذ به ، فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار . فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى ، بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل .

قال رسول الله ﷺ : التقوى ههنا وأشار إلى القلب[5] .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى بكرة . (٢) سورة البقرة (٢٨٤) .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وابن عباس .

(٤) سورة البقرة (٢٨٦) . (٥) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

وقال الله تعالى : لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم[1] .

وقال ﷺ : الاثم حواز القلوب[2] . وقال : البر ما اطمأن إليه القلب ، وإن افتوك وأفتوك[3] . حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتى بإيجاب شيء وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه ، بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى ، فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه .

ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها ، وإن كانت أجنبية ، فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح ....

---

(١) سورة الحج (٣٧) .

(٢) أخرجه البيهقى فى (شعب الأيمان) من حديث ابن مسعود ، ورواه المدنى فى مسنده موقوفا عليه وفى موضع آخر (حزّاز) بمعنى تارك الأثر فيها .

(٣) أخرجه الطبرانى من حديث أبى ثعلبة ، ولأحمد نحوه من حديث وابصة .

ربع المهلكات

الكتاب الثانى : رياضة النفس

وفيه أربعة أبواب :

الباب الثانى
بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها .

كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه ، فلنتخذ البدن مثلا : فنقول : مثال علاج النفس فى علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة اليها مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه ، وكما أن أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه[1] — أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل — وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة

---

(١) يمجسانه : يعلمانه المجوسية ، وهى عبادة النار .

اليه ، فكذلك النفس منك إن كانت زكية[1] طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها .

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجهابضدها .

فيعالج مرض الجهل بالتعليم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا .

وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر على المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى . فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد ، وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص — ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة — ولابد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد — فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لا بد له من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان ، وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ، ثم يعالج بحسبها .

فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ، ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع الأمراض بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم .

---

(١) زكية : نقية صافية .

بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ، ويبنى على رياضته . فإن كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات ، وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا معصية فيأمره أولا بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهّر عن المعاصى الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه .

فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه على الخيرات ، وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه ، فيأمره أن يخرج للأسواق للكدية[١] والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ، ولاذل أعظم من ذل السؤال ، فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه ، فإن الكبر من الأمراض المهلكة ، وكذلك الرعونة[٢] . وأن رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة ، وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة ، والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طوال النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما ، فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله . ومن راعى فى ثوبته شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة أن يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه .

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، فينبغى أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لا يزيل الدم . كما يرغب الصبى فى المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة .

---

(١) الكدية : حرفة السائل الملحّ .

(٢) الرعونة : (عند الصوفية) الوقوف مع حظوظ النفس ، ومقتضى طباعها .

فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه ، وكذلك سائر الصفات .

وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيىء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره ، وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه . فلا علاج فى مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسكوت ، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء الخلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه .

كما حكى عن بعضهم أنه كان يعودّ نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ، ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه ، حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل .

وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب ، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طوال الليل على نصبة واحدة[1] .

وبعض الشيوخ فى إبتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع .

وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به فى البحر ، إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء والبذل .

فهذه أمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب ، وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض — فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتاب .

وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه ، وقد جمع الله تعالى ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة فقال تعالى : وأما مَنْ خاف مَقَامَ رَبهِّ ونَهى النَّفْسَ عَنْ الهَوىَ فِإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوىَ[2] .

---

(١) ما يسمى برياضة اليوجا .

(٢) سورة النازعات (٤٠) و (٤١)

والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم ، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ، ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغى أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه تركِ العزم ألفت ذلك ، نفسدت ، وإذا اتفق مع نقص العزم فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ــ كما ذكرنا فى معاقبة النفس فى كتاب المحاسبة والمراقبة .

وإذا لم يخوف نفسه بعقوبة غلبته ، وحسنت عنده تناول الشهوة ، فتفسد بها الرياضة بالكلية .

الباب الرابع

بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم .

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها[1] ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والولى له .

وقد قال الله عز وجل : يَاأَيُّها الذِّينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكَمُ وأَهْلِيكُم نَاراً[2] . ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى .

وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر ، فيهلك هلاك الأبد . بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوّ الصبى

---

(١) أوكد : أوثق وأحكم وأشد .

(٢) سورة التحريم (٦) .

انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث . ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل فيه . حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحى من شىء دون شيىء ، وهذه هدية من الله تعالى وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق ، وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ .

فالصبى المستحيى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه .

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول باسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن يسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعوّد الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، ويمدح عنده الصبى قليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن ، أى طعام كان .

وأن يحبب إليه الثياب البيض دون الملون والإبريسم[1] ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبى ثوبا من إبريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه ، ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه أو يرغبه فيه .

فإن الصبى مهما أهمل فى ابتداء نشوه خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ، ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين . ويحفظ من الأشعار التى فيها

(١) الابريسم : أحسن الحرير .

ذكر العشق وأهله . ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن غافل ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ، ولا يهتك سره ويكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولاسيما إذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه ، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس .

ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فإنه يهّون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه .

وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح وينبغى أن يمنع منه النوم نهارا فإنه يورثه الكسل ، ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ، ولايسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم ، بل يعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم . وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله فى خفية فإنه لا يخفيه إلا ويعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل القبيح .

ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود ألا يكشف أطرافه ، ولا يسرع المشى ، ولا يرخى يديه بل يضمها إلى صدره .

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والده أو بشىء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره ، والتلطف فى الكلام معهم . ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من

أولاد المحتشمين ، بل يعلم أن الرفعة فى إلاعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك دأب الكلب فإنه يبصبص[1] فى انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة يُقبّح إلى الصّبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضا ، وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولايتثاءب بحضرة غيره ، ولايستدبر غيره ، ولايضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة ، وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين[2] رأساً — صادقا كان أم كاذبا — حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر ، ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم الا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه . ويمنع من لغو[3] الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك ، فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء .

وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء .

وينبغى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان .

وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبى من اللعب وارهاقه

---

(١) يبصبص : يحرك الكلب ذنبه طمعا أو ملقا .
(٢) اليمين : الحلف والقسم .
(٣) اللغو : القول الباطل .

إلى التعليم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا .

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، ومن هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم .

ومهما بلغ سن التمييز فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج[1] والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع..

---

(١) الديباج : صنف من الحرير الخالص .

ربع المهلكات

الكتاب الثالث :

كسر الشهوتين

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله ﷺ : جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك[1] . ولعلك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى .. فإن كان كذلك فينبغى أن يعظم الأجر فى كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه ، وقطعه للحمه ، وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه .

فاعلم أن هذا يضاهى قول من شرب دواء فانتفع به ، وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط . بل نفعه فى خاصية فى الدواء ، وليس كونه مُرا . وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء ، ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء فى الشرع من مدح الجوع ، انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أن من شرب

(١) لا أصل له .

الدواء انتفع به وإن لم يعلم علة كونه نافعا . ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقى من درجة الإيمان إلى درجة العلم .

قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1] .

فنقول فى الجوع عشر فوائد :

الفائدة الأولى :

صفاء القلب ، وإيقاد العزيمة ، وإنفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة ، ويعمى القلب ، ويكثر البخار فى الدماغ ، شبه السُكْر حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيثقل القلب بسببه عن الجِريان فى الأفكار ، وعن سرعة الإدراك ، بل الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه ، وفسد ذهنه ، وصار بطىء الفهم والإدراك .

وقال أبو سليمان الدارانى : " عليك بالجوع فإنه مذلة النفس ، ورقة القلب ، وهو يورث العلم السماوى " .

وقال ﷺ : أحيوا قلوبكم بقلة الضحك ، وقلة الشبع ، وطهّروها بالجوع تصفو وترق[2] . ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة كالمطر .

وقال النبى ﷺ : من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه[3] .

وقال ابن عباس : قال النبى ﷺ : من شبع ونام قسا قلبه ، ثم قال : لكل شىء زكاة ، وزكاة البدن الجوع[4] .

وقال الشبلى : ما جعت لله يوما ، إلا رأيت بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط .

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه ، والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة ، فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة .

---

(١) سورة المجادلة (١١) . (٢) لا أصل له .

(٣) لا أصل له . (٤) أخرجه ابن ماجة من حديث أبى هريرة .

ولهذا قال لقمان لابنه : يا بنى ، إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد أمطر القلب حكمة .

وقال النبى ﷺ : نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة من الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم [1] .

لا تشبعوا ، فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح .

الفائدة الثانية :

رقة القلب وصفاؤه ، الذى به يتهيأ لادراك لذة المثابرة ، والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ، ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأنه بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه .

وقال أبو سليمان الدارانى : أحلى ما تكون إلىّ العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى .

وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة .

وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وعطش ، صبا ورق ، وإذا شبع عمى وغلظ ، فإن تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة ، وهى فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة :

الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر[2] الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى . فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع ، فعندما تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها ، وضاقت حيلتها بلقيمة

---

(١) ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة .

(٢) الأشر : البطر والاستكبار .

طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنها ، وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهداً للاضطرار بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى ﷺ ، قال : لا بل أجوع يوما وأشبع يوما ، فإذا جعت صبرت وتضرعت ، وإذا شبعت شكرت[1] . أو كما قال : فالبطن والفرج باب من أبواب النار ، وأصله الشبع .

والذل والانكسار باب من أبواب الجنة ، وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة ، لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد عن الآخر .

الفائدة الرابعة :

أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فإن الشبعان ينسى الجائع ، وينسى الجوع ، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره ، إلا ويتذكر بلاء الآخرة . فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع[2] والزقوم[3] ويسقون الغساق[4] والمهل[5] . فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف . فمن لم يكن فى ذلة ولا علة ولا قلة وبلاء نسى عذاب الآخرة ولم يتمثل فى نفسه ، ولم يغلب على قلبه ، فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع ، فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة .

وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) الضريع : السلاّء ، وكذلك النبات الشائك المسمى بالعوسج .

(٣) الزقوم : شجرة مرة كريهة الرائحة ثمرها طعام أهل النار . وهناك شجيرة كلها أشواك تنبت فى صحراء السعودية يطلقون عليها اسم الزقوم .

(٤) الغسّاق : ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم .

(٥) المهل : المعدن المذاب كالفضة والحديد وكذلك القطران الرقيق ، وكذلك القيح .

ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع ، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل ، والشبعان فى غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة :

وهى من أكبر الفوائد : كسر شهوات المعاصى كلها ، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة .

وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح (١) الا بضعف الجوع ، فإذا شَبِعَتْ قَوِيَتْ وشَرَدَتْ وجَمَحَتْ . فكذلك النفس .

كما قيل لبعضهم : ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهدّ ؟ فقال : لأنه سريع المرح ، فاحش الأشر ، فأخاف أن يجمح بى فيورطنى ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلىّ من أن يحملنى على الفواحش .

وقال ذو النون : ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أول بدعة بعد رسول الله ﷺ : الشبع .

الفائدة السابعة :

تيسير المواظبة على العبادة ، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردداه على بيت الماء لكثرة شربه .

والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه .

قال السرى : رأيت مع على الجرجانى سويقا (٢) يستف منه فقلت : ما حملك على

---

(١) الجموح : النافرة .

(٢) السويق : مدقوق القمح والشعير .

هذا ؟ قال : إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة .

فانظر كيف أشفق على وقته و لم يضيعه فى المضغ . وكل نَفَسٍ من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها ، فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها ، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته .

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة ، وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته .

ومن جملته الصوم ، فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها : يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون [1] .

وقد أشار أبو سليمان الدارانى إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات :

فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة :

يستفيد من قلة الطعام صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل ، وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق .

ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ، ويمنع من الذكر والفكر ، وينغص العيش ، ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصى ، واقتحام الشهوات ، وفى الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن هارون الرشيد جمع أربعة أطباء : هندى ورومى وعراق وسوادى ، وقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه .

---

(١) سورة الروم (٧) .

فقال الهندى: الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الإهليلج الأسود [1] .

وقال العراقى : هو حب الرشاد الأبيض .

وقال الرومى : هو عندى الماء الحار .

وقال السوادى ـــ وكان أعلمهم ـــ: الإهليلج يعفص المعدة [2]، وهذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخى المعدة ، وهذا داء . قالوا : فما عندك ؟

فقال : الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تأكل الأكل حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه .

فقالوا : صدقت .

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى ﷺ : ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس [3] فتعجب منه وقال : ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا ، وإنه لكلامُ حكيم .

وقال ﷺ : البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء ، وعودوا كل جسم ما اعتاد [4] . وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك .

وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بأدب ، لم يعتل إلا علة الموت ، قيل : وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع بعد الشبع .

وقال بعض أفاضل الأطباء فى ذم الاستكثار : إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان ، وأضر ما أدخل معدته المالح ، ولأن يقلل الملح خير له من أن يستكثر الرمان .

وفى الحديث : صوموا تصحوا[5] . ففى الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرها ...

---

(١) الاهليلج : شجر ينبت فى الصين والهند ، ثمره على هيئة حب الصنوبر .

(٢) يعفص : يجعل فيها مرارة وتقبضا .

(٣) متفق عليه .

(٤) لا أصل له .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الطب النبوى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

ربع المهلكات

الكتاب الرابع :

آفات اللسان

وفيه عشرون آفة :

الآفـة الثالثة

الخـوض فى الباطـل

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال الناس ومجالس النساء ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وهو حرام .

وأما الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم .. من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض فى الباطل .

وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض فى الباطل .

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها ، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا . وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها . فقد قال بلال بن الحارث قال رسول الله ﷺ : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله

بها رضوانه إلى يوم القيامة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة [1].

وقال النبى ﷺ إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا [2] .

وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة .

وقال ﷺ : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل[3] . وإليه الإشارة بقوله تعالى : وكُنا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِين[4]، وبقوله تعالى : فلا تَقْعُدُوا معَهَم حتى يَخُوضُوا فى حَدِيث غَيْره إنْكُم إذاً مِثْلُهُم[5] .

وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله .

وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم . فيقول لهم : توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث .

فهذا هو الخوض فى الباطل ، وهو وراء ما سيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها ، أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم . وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض فى الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفة وكرمه .

---

(١) اخرجه ابن ماجة والترمذى وقال حسن صحيح .

(٢) اخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابى هريرة نسبه حسن ، وللشيخين والترمذى قال : حسن غريب ، والثريا : نجم معروف والتعبير كناية عن الهوى السحيق .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ، ورجاله ثقاة ، ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعد بسند صحيح .

(٤) سورة المدثر (٤٥) .

(٥) سورة النساء (١٤٠) .

الآفة السادسة :

التقعر في الكلام

بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف الممقوت الذى قال فيه رسول الله ﷺ : أنا وأتقياء أمتى برءاء من التكلف .

وقال رسول الله ﷺ : إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منىّ مجلسا الثرثارون والمتفيهقون المتشدقون فى الكلام [١].

وقالت فاطمة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : شرار أمتى الذين غُذُوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام [٢].

وقال صلى الله عليه وسلم : ألا هلك المتنطعون [٣]ثلاث مرات . والتنطع هو التعمق والاستقصاء .

وقال عمر رضى الله عنه : شقاشق[٤] الكلام من شقاشق الشيطان .

وجاء عمر بن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدى حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت بحاجتك بأبعد منها اليوم ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها [٥]

وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة .

وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات ، إذ قضى رسول

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبى ثعلبة ، وهو عند الترمذى من حديث جابر وحسنه .
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب ـــ المتشدق : الذى يلوى شدقه بكلام يتفصح .
(٣) من حديث ابن مسعود .
(٤) شقاشق : (ج) شقشقة وهى الضجة أو الفتنة أو الثورة فى الكلام .
(٥) رواه أحمد من حديث سعد بن أبى وقاص .

الله ﷺ بغُرّة فى الجنين ، فقال بعض قوم الجانى : كيف نَدى من لا شرب ولا أكل ولا صاحِ ولا استهل ؟ ومثل ذلك يُطَلُّ[1] . فقال : أسجعا كسجع الأعراب[2] .
وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بيّن عليه ، بل ينبغى أن يقتصر فى كل شىء على مقصوده .

ومقصود الكلام : التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير أفراط واغراب . فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به .

فأما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق ، والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة ، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه .

الآفة الحادية عشرة

السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى : يأَيُّها الذِّينَ آمَنواُ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم ولا نِساَءٌ مِنْ نِساَءٍ عَسَى أَنْ يكنّ خَيْراً مِنْهُن[3] .

ومعنى السخرية الاستهانه والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

---

(١) يُطَلُّ ، بالبناء للمجهول : يهدر ، ولادية له .
(٢) أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة ، وكذلك عند البخارى .
نَدِى : أى ندفع دية القتيل ، وقد قضى رسول الله ﷺ ، بأن تكون الدية غُرة ، أى عبدا أو أمة .
(٣) سورة الحجرات (١١) .

قالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لى النبى ﷺ : والله ما أحب أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا[1] .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : يا وَيْلَتَنَا ماَ لِهَذَاَ الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صغِيرَةً ولاَ كَبِيرةً إلا أَحْصَاهَا[2] . إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر .

وعن عبد الله بن زمعة أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال : علام يضحك أحدكم مما يفعل[3] .

وقال ﷺ : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال : هلم هلم ، فيجىء بكربه وهمه ، فإذا أتاه أغلق دونه ، فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له : هلم هلم ، فلا يأتيه[4] .

وقال معاذ بن جبل : قال النبى ﷺ : من عيرّ أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله[5] .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه استهانة به واستصغارا له . وعليه نبه قوله تعالى : عَسَى أَنْ يكُونُوا خَيْراً مِنْهُم ، أى لا يستحقره استصغاراً ، فلعله خير منه .

وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح — وقد سبق ما يذم منه وما يمدح — وإنما المحرّم استصغارا يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذى وصححه .

(٢) سورة الكهف (٤٩) .

(٣) متفق عليه ، والفرطة : الريح المصوت ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يوصى هنا بأدب رفيع يحفظ العلاقات الأخوية بين الناس .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا .

(٥) أخرجه الترمذى وقال حسن غريب وليس إسناده متصلا .

أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب .

فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها .

الآفة الثانية عشرة :

إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا حدّث الرجل ثم التفت فهى أمانة [١].

وقال مطلقا : الحديث بينكم أمانة [٢] .

وقال الحسن : إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك .

ويرى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه ، فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلىّ حديثا ، وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك ؟ قال : لا تحدثنى به فإن من كتم السر كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه . فقال : قلت : يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بنى ، ولكن ألا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال : ياولد أعتقك أبوك من رق الخطأ فإنشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار ، وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة .

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذى وحسنه من حديث جابر .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

الآفة السابعة عشرة :

كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعادين ، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين ، وذلك عن النفاق .

قال عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة[1].

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بحديث[2].

وفى لفظ آخر : الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .

وقال أبو هريرة : لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة : بطلت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين .

وقال ﷺ : وأبغض خليقة الله إلى يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ، والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بُطآء ، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا[3] .

وقال ابن مسعود : لاَ يَكُنْ أحدُكم إِمَّعَةً . قالوا : وما الإِمَّعَةُ ؟ قال : الذى يجرى مع كل ريح .

واتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد ، وأبو داوود بسند حسن .

(٢) متفق عليه . ولفظ البخارى (تجد من شر الناس) .

(٣) لا أصل له .

وللنفاق علامات كثيرة ، وهذه فى جملتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ : مات فلم يصلّ عليه حذيفة ، فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم . فقال : نشدتك الله ، أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ، ولا أومن منها أحدا بعدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين ؟ وما حد ذلك ؟
فأقول : إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقا فيه ، لم يكن منافقا ولا ذا لسانين . فإن الواحد قد يصادق متعاديين ، ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة . إذ لو تحققت الصداقة لا قتضت معاداة الأعداء . كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة .

نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين ، وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاما ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهو ذو لسانين . وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه ، فهو ذو لسانيين .

بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ، ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه .

قيل لابن عمر رضى الله عنهما : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ [1] ، وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه .

فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن — فهو نفاق ، لأنه الذى أحوج نفسه إلى ذلك . فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه ، فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى — فهو منافق .

---

(١) أخرجه الطبرانى .

وهذا معنى قوله ﷺ : حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [1] لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر [2] فى وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله ﷺ : فقال : ائذنوا له ، فبئس رجل العشيرة هو . ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت : يا رسول الله ، قلت له ما قلت ثم ألنت له القول ؟ فقال : يا عائشة ، إن شر الناس الذى يكرم اتقاء شره [3] .

ولكن هذا ورد فى الإقبال ، وفى الكشر والتبسم ، فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله — كما ذكرنا فى آفة الكذب — بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ، ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه ..

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ، إلا أنه قال (العشب) بدل البقل .

(٢) التكشير أظهار الأسنان فى الضحك وغيره ، والمراد هنا : إظهار السرور .

(٣) متفق عليه .

ربع المهلكات

الكتاب الخامس : ذم الغضب والحقد والحسد

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى : والكاظمين الغَيْظ [1]. وذكر ذلك فى معرض المدح .

وقال رسول الله ﷺ : من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته[2] .

وقال ﷺ : أشدكم من غلب نفسه عند الغضب ، وأحلمكم من عفا عند

(١) سورة آل عمران (١٣٤) .
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط فى شعب الإيمان ، واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ، ولا بن أبى الدنيا من حديث ابن عمر .

القدرة[1] . وقال ﷺ : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا . وفى رواية : ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا[2] .

وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى[3].

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال ﷺ : إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غضبه بمعصية الله سبحانه وتعالى .

وقال ﷺ : ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد ، وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيمانا[4].

وقال ﷺ : من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يَشْفِ غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

وقال لقمان لابنه : يابنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك .

وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا .

واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة اليربوعى ، والفضيل بن عياض فتذكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر على الجزع .

وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل[5] . فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه . فقال له رجل : يا أمير

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف ، والبيهقى فى الشعب من رواية عبد الرحمن ابن عجلان بإسناد جيد ، وللبزاز والطبرانى فى مكارم الأخلاق .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى .

(٣) أخرجه ابن ماجة من حديث ابن عمر .

(٤) أخرجه ابن الدنيا من حديث ابن عباس ، وفيه ضعيف .

(٥) الجزل : الجيد .

المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول : خُذِ العفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عنِ الجَاهِلِين[1] . فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت . فكأنما كانت نارا فأطفئت .

وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

وجاء رجل إلى سَلمْان فقال : يا عبد الله أوصنى . قال : لا تغضب . قال : لا أقدر . قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

الباب الثانـــى

القول فى معنى الحقد ونتائجــه

أعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً .

ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال رسول الله ﷺ : المؤمن ليس بحقود[2] . فالحقد ثمرة الغضب . والحقد يثمر ثمانية أمور :

الأول : الحسد : وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه ، فتَغْتم بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين ، وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى .

الثانى : أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء .

الثالث : أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه ، وإن طلبك وأقبل عليك .

---

(١) سورة الأعراف (١٩٩) .

(٢) لا أصل له .

الرابع : وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له .
الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة .
السادس : أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه .
السابع : إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه .
الثامن : أن تمنعه من حقه من قضاء دين أو صلة رحم أورد مظلمة ، وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى ، والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك الدعاء له والثناء عليه ، أو التحريض على بره ومواساته .

فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل ، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه ألا ينفق على مسْطَح ــ وكان قريبه ــ لكونه تكلم فى واقعة الافك ، نزل قوله تعالى : ولا يَأْتَلِ أُوُلوُا الفَضْلِ مِنْكُم ... إلى قوله تعالى : ألا تُحِبوُن أنْ يَغْفِرَ الله لَكُم[1].
فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه [2]

والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد فى الإحسان مجاهدة للنفس ، وإرغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين ، وهو من فضائل أعمال المقربين .
فللحقود ثلاثة أعمال عند القدرة :
أحدها : أن يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل .
الثانى : أن يحسن إليه بالعفو والصلة ،وذلك هو الفضل .

---

(١) سورة النور (٢٢) : ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله عفور رحيم) .
(٢) وكان مسطح قريبا لأبى بكر ، ومن الذين روّجوا إشاعة الافك عن عائشة رضى الله عنها وقد أقيم عليه حد القذف بعد أن نزلت براءة أم المؤمنين من فوق سبع سماوات .

الثالث : أن يظلمه بما لا يستحقه ، وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل . والثانى هو اختيار الصديقين .

والأول هو منتهى درجات الصالحين ....

الباب الثالث

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، وإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : **احداهما** : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا ، فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص وتسمى منافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولاحجر فى الأسامى بعد فهم المعانى ، وقد قال ﷺ : ان المؤمن يغبط والمنافق يحسد(١).

فأما الأول : فهو حرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها كافر أو فاجر ، وهو يستعين بها على تهييج الفتنةوافساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلة فساد ، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ....

وأما المنافسة فليست بحرام ، بل هى إما واجبة وإما مندوبة واما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة ، والمنافسة ، بدل الحسد .

قال قثم بن عباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبى ﷺ فيسألاه أن يأمرهما على الصدقة — قالا لعلى حين قال لهما : لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها — فقالا

(١) لا أصل له مرفوع ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد .

له : ما هذا منك إلا نفاسة ، والله لقد زَوّجك ابنته فما نَفْسناَ ذلك عليك . أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة [1] .

والمنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة ، والذى يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى : وفى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ المُتَنَافِسُون[2] . وقال تعالى : سَابِقُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِكُمْ [3] وإنما المسابقة عند خوف الفوت ، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ، فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل أتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويعلمه الناس[4] .

وأما مراتبه (أى الحسد) فأربع :

الاولى :

أن يحب زوال النعمة عنه ، وإن كان ذلك لا ينتقل إليه ، وهذا غاية الخبث .

الثانيـة :

أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فى نفس النعمة ، مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة نالها غيره ، وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبة تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهة فقد النعمة لا تنعم غيره بها .

الثالثـة :

أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما .

---

(١) روى مسلم أن المقصود هو المطلب بن ربيعة بن الحارث ، وليس قثم بن العباس ، قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب ، فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين قالا للمطلب وللفضل بن عباس : ائتيا رسول الله ﷺ فكلماه ... وذكر مسلم الحديث .

(٢) سورة المطففين (٢٦) .

(٣) سورة الحديد (٢١) .

(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

الرابعة :

أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض .

وتسمية الرتبه حسدا فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى : ولاَتَتَمَنَّوا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعَضَكُم عَلَى بَعْضٍ [1] ، فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

---

(١) سورة النساء (٣٢) .

ربع المهلكات

الكتاب السادس : ذم الدنيا

وبه خمسة فصول :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرّف أولياءه غوائل (١) الدنيا وآفاتها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا فى شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها وسيئاتها ، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها فى صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين فى وصالها ، ثم هى فرّارة عن طلابها ، شحيحة باقبالها ، واذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ، وإن أحسنت ساعة أساءت سنة . وإن أساءت مرة جعلتها سُنّة . فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجارى أحوالها بذل طلابيها ناطقة ، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره ، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره .

شأنها الهرب من طالبها ، والطلب لهاربها ، ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها

---

(١) غوائل : (ج) غائلة : وهى الداهية .

واته ، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ، ولا ينفك سرورها عن المنغصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم [١]، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم ، فهى خداعة مكارة ، طيارة فرارة ، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها ، وشوشت عليهم مناظم أسبابها بينما أصحابها منها فى سرور وإنعام ، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد[٢] ، ووراتهم فى أكفانهم تحت الصعيد [٣].

إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا ، وتعدهم غرورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح قصورهم قبورا ، وجمعهم بورا [٤]، وسعيهم هباء منثورا ، ودعاؤهم ثبورا [٥]، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا .

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا ، وعلى من كان من أهله وأصحابه له فى الدين ظهيرا ، وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا ، أما بعد :

فان الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأولياء الله ، أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها .

وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل ، فإنها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها .

وأما عداوتها لأعداء الله : فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا [٦] عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها . فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد .

---

(١) الهرم : الشيخوخة .

(٢) الحصيد : الزرع المحصود .

(٣) الصعيد : وجه الأرض .

(٤) البور : الفاسد الذى لا خير فيه .

(٥) الثبور : الهلاك .

(٦) عوّل على : اعتمد واتكل واستعان .

فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكايدها يستغيثون ولايغاثون . بل يقال لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون[1] . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون[2] . وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها ، فلابد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هى ؟ وما الحكمة فى خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجه إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها ، إن شاء الله تعالى وهو المعين على ما يرتضيه .

الفصل الخامس :

بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، وللإنسان فيها حظ ، وله فى إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك .

أما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها ، قال تعالى : إنا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهاَ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً[3] فالأرض فراش الآدميين ، ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح . ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن والنبات والحيوان .

أما النبات :فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى .

---

(١) سورة المؤمنون (١٠٨) .

(٢) سورة البقرة (٨٦) وقد جاءت هذه الآيه وسابقتها فى النص الأصلى بصورة توحى بأنهما آية واحدة والصواب ما أثبتناه .

(٣) سورة الكهف (٧) .   نبلوهم : نختبرهم .

وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأوانى ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد .

وأما الحيوان : فينقسم إلى الإنسان والبهائم :

أما البهائم : فيطلب منها لحومها للمأكل ، وظهورها للمركب والزينة .

وأما الانسان : فقد يطلب الآدمى : أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ، أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام ، وهو الذى يعبر عنه بالجاه ، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هى الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى فى قوله : **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ** . وهذا من الإنس . **وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهبِ والْفِضَّةِ** ــ وهذا من الجواهر والمعادن ، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلى واليواقيت وغيرها ، **وَالْخَيْلِ الْمسَوَّمة والأَنْعام** . وهذه البهائم والحيوانات **وَالْحرثِ**[1] ــ وهو النبات والزرع . فهذه هى أعيان الدنيا . إلا أن لها مع العبد علاقتين :

علاقة مع القلب : وهو حبه لها وحظه منها ، وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو كالمحب المستهتر بالدنيا . ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة ، وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر .

وهذه هى الدنيا الباطنة ، أما الظاهرة فهى الأعيان التى ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن : وهو إشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل .

---

(١) النص متضمن للآية (١٤) من سورة آل عمران (زين للناس حب الشهوات ..) إلى آخره .

ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التى سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التى يسير بها إلى الله تعالى ، وأعنى بالدابة البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل فى طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال [1] .

ومثال العبد فى الدنيا نسيانه نفسه ومقصده ، مثال الحاج الذى يقف فى منازل الطريق ، ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها ألوان الحشيش ، ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه فى البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذى يقوى به على المشى فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج ، وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة .

فكذلك البصير فى السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام فى البطن وبين إخراجه من البطن فى أن كل واحد منهما ضرورة للبدن ، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها .

وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضرورى ، وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا عليهم ، واتصل بعضها ببعض ، وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا فى كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

---

(١) الجلال : الغطاء .

ربع المهلكات

الكتاب السابع : ذم البخل وذم حب المال

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

بيان تفصيل آفات المال وفوائده .

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه ، فمن عرف غوائله وفوائده أمكن أن يحترز من شره ويستدر من خيره .

أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية :

أما الدنيوية : فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها .

وأما الدينية : فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة .

أما فى العبادة : فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات ، والفقير محروم من فضلهما .

وأما ما يقويه على العبادة : فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح

وضرورات العيش ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، وما لا يُتوصَل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس : وهو أربعة أقسام :
الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها ، وأنها لتطفىء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .

وأما المروءة فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف ، فى ضيافة وهدية وإعانة وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج ، إلا أن هذه من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ويلتحق بزمرة الأسخياء . فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة .
وهذا أيضا يعظم الثواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفاقة والفقر فى مصارفها .

وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضا مع تنجز فوائده فى العاجلة من الحظوظ الدينية .

قال رسول الله ﷺ : ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة[1] .

وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة ، والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج اليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذى هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة

---

(١) رواه أبو يعلى من حديث جابر .

نفسه ، من شراء الطعام وطبخه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه ، وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصور أن يقوم به غيرك ، فتضييع الوقت فى غيره خسران .

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام : كبناء المساجد والقناطر والرباطات [1] ودور المرضى ونصب الجِباب [2] فى الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهى من الخيرات المؤبدة ، الدارَّة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية ، وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال فى الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة فى القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

أما الآفات : فدينية ودنيوية :

أما الدينية : فثلاث :

الأولى : أن تَجُرّ إلى المعاصى ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء وبين المعصية ، ومن العصمة أن لا يجد ، ومهما كان الإنسان آيسا [3] عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته ، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور ، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك ، وإن صبر وقع فى شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السرّاء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أن يَجُرّ إلى التنعم فى المباحات وهذا أول الدرجات ، فمتى يقدر صاحب

---

(١) الرباطات : (ج) الرباط : وهو ملجأ الفقراء من الصوفية .

(٢) الجباب : (ج) جب : وهو البئر .

(٣) الآيس : منقطع الرجاء .

المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما السلام فى ملكه ، فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ، ويجرّ البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، فإن من كثر ما له كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلابد أن ينافقهم ، ويعصى الله فى طلب رضاهم .

فإن سلم الانسان من الآفة الأولى وهى مباشرة الحظوظ ، فلا يسلم عن هذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضا إلى سائر الجوارح .

وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أن يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : فى المال ثلاث آفات :

أن يأخذه من غير حله . فقيل : وإن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه فى غير حقه . فقيل : فإن وضعه فى حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى .

هذا هو الداء العضال فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكير فى جلاله ، وذلك يستدعى قلبا فارغا ، وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى المال والحدود ، وخصومة أعوان السلطان فى الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير فى العمارة ، وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم .

وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره فى العمل وتضييعه للمال .

وكذلك صاحب المواشى ، وهكذا سائر أصناف الأموال .

وأبعدها عن كثرة الشغل : النقد المكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفى كيفية حفظه ، وفى الخوف مما يعثر عليه ، وفى دفع أطماع الناس عنه .

وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها ، والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساد ، وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه .

فإذن ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقى إلى الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير .

الباب الرابع

بيان مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله .

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ، ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ، ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى : أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ، ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة ، وهتك المروءة وما يجرى مجراه .

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ، ومعياره الحاجة

والحاجة : ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى وأوسط وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ، ومتقربا من حد الضرورة ، كان محقا ويجيء من جملة المحقين ، وإن جاوز ذلك وقع فى هاوية لا آخر لعمقها ــ وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى حق المَخْرَج ، ويقتصد فى الانفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما أكتسبه من حِلّه فى حقه ، ولا يضعه فى غير حقه ، فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه والوضع فى غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته فى الأخذ والترك ، والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يستعين به على العبادة ويترك ما يترك زاهدًا فيه واستحقارا له ، إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو أن رجلا أخذ جميع ما فى الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع لم يرد به وجه الله تعالى ليس بزاهد .

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على عبادة . فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة ، وهما مُعينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة فى حقك .

وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين ، وما فضل عن الحاجة ، ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنعه منه عند حاجته . فمن فعل ذلك فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها فلا تضره كثرة المال .

ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه ، وعظم فيه علمه ...

ربع المهلكات

الكتاب الثامن : ذم الجاه والرياء

وفيه ستة أبواب :

الباب الأول

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم ، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه .

قال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : حسب امرىء من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه إلا من عصمه الله (1).

وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله ﷺ : بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه . إن الله لاينظر

(1) أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم [1].

ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلا ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد ، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع . فقال : إنه لم يعن هذا ، وإنما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه .

وقال على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الكفار ...

وعن خالد بن معدان أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة .

وعن أبى العالية أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام .

وعن سليم بن حنظلة : بينما نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال : انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوما من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال : علام تتبعونى ؟ فوالله لو تعلمون ما اغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان ...

---

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف ، مقتصرين على أوله ، ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره . ورواه الطبرانى والبيهقى من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ : هلاك المرء وإسنادهما ضعيف .

الباب الثانـــى

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها .

وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الاغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابه فى أغراضه ومآربه .

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات ، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده ، وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده ، فإن انقياد القلب حال للقلب .

وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها ، كما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يَسترق الأحرار ويستبعدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا ، والعبد متأب بطبعه ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة .

وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ، ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير .

فإذن معنى الجاه : قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى : اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان

القلوب تكون القدرة على القلوب ، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه .

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات كالمدح والإطراء ، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده ، فيثنى عليه ، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر فى المحافل ، والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب .

ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب ، أو ولاية أو جمال فى الصورة أو قوة فى بدن ، أو شيء ممايعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب ، فتكون سببا لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم .

الباب الثالث

بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول

وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال ، فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فادراكه لذيذ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فإن الوصف الذى به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهراً ، أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لا يخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون ، فإن هذا نوع من الكمال ، ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته .

فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف

مما يتطرق إليه الشك كانت اللذة فيه أعظم ، كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق .

فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه ، وفى كمال علمه ، وفى كمال ورعه ، ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير متيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور ، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقه باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها ، لا يجازف فى القول إلا عن تحقيق ، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه فى غاية اللذة .

وإن صدر ممن يجازف فى الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة ، وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لأنه يشعر بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت الشعور له مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه فى المدح .

السبب الثانى

أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب ، والشعور بحصوله لذيذ ، وبهذه العلة تعظم اللذة ، مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه به ، ولا يقدر على شىء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وبهذه العلة يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم .

السبب الثالث

أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه ، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ ، فلاجرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألذ ، والذم أشد على النفس .

السبب الرابع

أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد فى الباطن ما مدح به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه .

فلا جرم أن تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع فى مدح المادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها .

أما العلة الأولى . وهى استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب [1] أو سخى أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات .

فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء ، فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب .. بطلب اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة ، فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم .

وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة ، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته .

إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض ، والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى .

---

(١) النسيب : الرجل الشريف معروف الحسب والأصول .

ربـــع المهلكـــات

الكتاب التاسع : ذم الكبر والعجب

وفيه شطران فى ثلاثة أبواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارىء المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه .

فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة [1] عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة [2] عظمته وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه .

جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر

---

(١) الأكاسرة : (ج) كسرى وهو ملك الفرس .

(٢) القياصرة : (ج) قيصر وهو ملك الروم .

ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف[1] العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فيهما قصمته[2]. وقال ﷺ : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه[3].

فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب ، فإنهما من قبائح المرديات[4]...

الباب الأول

باب ذم الكبـــر

قد ذم الله الكبر فى مواضع فى كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى :
سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِين يَتَكَبَّرُون فى الأَرض بِغَيْرِ الحَقِّ[5]. وقال تعالى :
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[6]. وقال عز وجل :
واسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[7]. وقال تعالى :
إنّه لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِين[8]. وقال تعالى :
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فى أنفسِهِم وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرا[9] وقال تعالى :

---

(١) أكناف : أنحاء وجوانب .
(٢) أخرجه الحاكم فى (المستدرك) دون ذكر العظمة ، وقال : صحيح على شرط مسلم .
(٣) أخرجه البزاز والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .
(٤) المرديات : المهلكات .
(٥) سورة الأعراف (١٤٦) .
(٦) سورة غافر (٣٥) .
(٧) سورة ابراهيم (١٥) .
(٨) سورة النحل (٢٣) .
(٩) سورة الفرقان (٢١) . عتو : تجاوزا وظلموا .

إن الذيِّن يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبادَتى سَيْدخُلُون جَهنَّم داَخِرِين .[1]

وذم الكبر فى القرآن كثير .

وقال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان[2].

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى[3].

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمر على الصفا ، فتواقفا فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكى ، فقالوا : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا — يعنى عبد الله بن عمرو — زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه[4].

وقال رسول الله ﷺ : لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب[5].

وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما — للطير والإنس والجن والبهائم — : أخرجوا ، فخرجوا فى مائتى ألف من الإنس ومائتى ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته .

وقال ﷺ : لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيىء الملكة .

وقال ﷺ : تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ،

---

(١) سورة غافر (٦٠) . دخر : صغر وذل وهان . وهو داخر .

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٣) أخرجه مسلم وأبو داوود وابن ماجه ، واللفظ له ، وقال أبو داوود : قذفته فى النار . وقال مسلم : عذبته .

(٤) أخرجه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان بإسناد صحيح . وأبو سلمة : هو بن عبد الرحمن ابن عوف .

(٥) أخرجه الترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله : من العذاب .

وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى . وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها [1].

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر المرء الا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ، وجماع ذلك يرجع إلى كمال دينى أو دنيوى .

فالدينى هو : العلم والعمل .

والدنيوى هو : النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار .

فهذه سبعة أسباب .

السبب الأول : العلم

وما أسرع الكبر إلى العلماء ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : آفة العلم الخيلاء [2]. فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر فى نفسه كمال العلم وجماله ، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره إلى البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدؤه بالسلام ، فإن بدأ واحد منهم بالسلام أورد عليه ببشر ، أو قام له ، أو أجاب له دعوة ، رأى ذلك صنيعة عنده ، ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغى أن يرقوا له ويخدموه شكرا له على صنيعه . بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ، ويزورونه فلا يزورهم ، ويعودونه فلا يعودهم ، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره فى حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه . وكأن تعليمه العلم صنيعه منه إليهم ، ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعلق بالدنيا .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) المعروف هو : آفة العلم النسيان ، وآفه الجمال الخيلاء ، وهكذا رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف .

أما فى أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما ، بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء ، وعظم خطر العلم فيه ، وهذا العلم يزيده خوفا وتواضعا وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم ، ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجعا . وهو كما قال ...

السبب الثالث : التكبر بالحسب والنسب

والذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ، ويأنف من مخالطتهم ، ومجالستهم ، وثمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره : يا نبطى يا هندى يا أرمنى . من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان وأين لمثلك أن يكلمنى ، أو ينظر الى ؟ ومع مثلى تتكلم ؟ وما يجرى مجراه .

وذلك عرق دفين فى النفس لا ينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا إنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته ، وترشح منه ، كما روى عن أبى ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبى ﷺ ، فقلت له : يا ابن السوداء . فقال النبى ﷺ : يا أبا ذر طفّ الصاع طفّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل [1]. فقال : أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت ، وقلت للرجل : قم ، فطأ على خدى .

فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل ، وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه ، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل .

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف ، ولأحمد من حديثه أن النبى ﷺ قال له : أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى .

ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لا أم لك ؟ فقال رسول الله ﷺ : افتخر رجلان عند موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة ، فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام : قل للذى افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم [1].

وقال رسول الله ﷺ : ليدعن قوم الفخر بآبائهم ، وقد صاروا فحما فى جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تذرف بآنافها القذر [2]

السبب الرابع : التفاخر بالجمال

وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ، ويدعو ذلك الى التنقص والثلب [3] والغيرة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبى ﷺ ، فقلت بيدى هكذا ، أى : إنها قصيرة ، فقال النبى ﷺ : قد اغتبتها [4].

وهذا منشؤه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ما قالت .

السبب الخامس : الكبر بالمال

وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم ، وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين [5] فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ، ويقول له : أنت مكد [6] ومسكين ، وأنا لو أردت لا شتريت

---

(١) رواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى .

(٢) أخرجه أبو داوود والترمذى ، وحسنه ، وابن حبّان من حديث أبى هريرة .

(٣) الثلب : العيب والتنقص .

(٤) أخرجه أبو داوود والترمذى وصححه .

(٥) الدهاقين : (ج) دهقان : وهو رئيس القرية أو الإقليم .

(٦) المكدّ : الفقير .

مثلك ، واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأثاث بيتي يساوى أكثر من جميع مالك . وأنا أنفق فى يوم ما تأكله فى سنة . وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهَوَ يُحاوِرِهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرَاً [1]. حتى أجابه فقال : إنْ تَرنِ أَنَاَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنّتِكَ ويُرسِل عَلَيْها حُسْبَاناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ، أو يُصْبِح ماؤهاَ غوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيع لَهُ طَلَباً [2]. وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا [3].

ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره : فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذينَ يُرِيدُونَ الحياةَ الدُّنْيَا يا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ إنّه لَذُو حظٌ عظيمٍ [4] .

الباب الثالث

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه — كما ذكرناه — فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى ، هذا مع العباد ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ، ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له .

---

(١) سورة الكهف (٣٤) .
(٢) سورة الكهف (٣٩ — ٤١) الحسبان : الصواعق .
الصعيد : التراب . الزلق : الموضع الأملس . غورا : بعيدا .
(٣) سورة الكهف (٤٢) .
(٤) سورة القصص (٧٩) . قارون : من قوم موسى .

وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها . ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا عجب بها عمى عن آفاتها .

ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة وعطيه من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة والاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ، ولايسمع نصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان فى أمر دينى ، ولا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ، ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب ، فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يغتر فى السعى لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه .

نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العجب والادلال وحدّهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف، هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال وغيره **حالتـان** :

إحداهما : أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله ، فهذا ليس بمعجب .

والأخرى : أن يكون خائفا من زواله ولكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه ، وهذا أيضا ليس بمعجب .

وله حالة ثالثة : هى العجب وهى أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئنا إليه من حيث إنه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له ، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله ، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه .

فإذن : العجب هو استعظام النعمة والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعلمه كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفسّاق ، سمى هذا إدلالا بالعمل .

فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه ، فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات ، أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه .

قال قتادة فى قوله تعالى ولاَ تَمنُنْ تَستَكثِر [1] أى لا تدل بعملك ....

---

(١) سورة المدثر (٦) .

رُبع المهلكات

الكتاب العاشر : ذم الغرور

وفيه بابان :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور [1] وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على مر الدهور ، وكر الساعات والشهور .

أما بعد : فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة ، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعى إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة .

فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم : كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجاَجَةٍ الزُّجاَجَةُ كأَنَّهْا كَوكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُبَارَكةٍ زَيْتُونَةٍ ، لا شَرْقِيةٍّ ولا غَرْبَيةٍّ يَكَادُ زَيتُها يُضِيءُ ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ [2].

---

(١) الديجور : الظلمة الشديدة .

(٢) سورة النور (٣٥)   المشكاة : الكوة أو النافذة

والمغترون قلوبهم : كظلمات فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نَوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [1].

فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدوء ، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .

والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا : وَمَنْ كَانَ فِي هَذِه أعمى فَهُوَ فِى الآخِرةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً [2].

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلابد من شرح مداخله ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه .

فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور ، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء .

وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العباد .
الصنف الثالث من المتصوفة . الصنف الرابع من أرباب الأموال .

والمغتر من كل صنف فرق كثيرة ، وجهات غرورهم مختلفة ، فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المساجد ، ويزخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز

---

(١) سورة النور (٤٠) لجّى : شديد السواد والظلمة متردد الأمواج .
(٢) سورة الاسراء (٧٢) .

بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف .. إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثله . ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحدّه .

الباب الأول :

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى : فَلاَ تَغُرَّنَكُم الحَيَاةُ الدّنْيا ولاَ يَغُرنَّكُم باللهِ الغَرورُ [1] وقوله تعالى :

ولَكِنكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ [2] .. الآية ، لكافٍ فى ذم الغرور .

وقد قال رسول الله ﷺ حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم . ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين[3].

وقال ﷺ : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[4] .

---

(١) سورة لقمان (٣٣) .

(٢) سورة الحديد (١٤) .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب « اليقين » من قول أبى الدرداء ، وفيه انقطاع .
الاكياس (ج) كيّس : وهو الفطن

(٤) أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث شداد بن أوس .

وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويهواه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور .

بل يستدعى الغرور : مغْرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به ، وهو الذى يغره .

فمهما كان المجهَّل[1]، المعتقد شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ، ولا تكون دليلا ، سمى الجهل الحاصل به غرورا .

فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور .

واكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور ...

الباب الثانـــى

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف

وهم أربعة أصناف :

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل

والمغرورون منهم فرق كثيرة ، فمنهم من غروره فى الصلاة ، ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ، ومنهم في الحج ، ومنهم فى الغزو ، ومنهم فى الزهد . وكذلك

(١) فى الأصل المجهدل : ولم ترد هذه البنية فى لسان العرب .

كل مشغول بمنهج من مناهج العمل ، فليس خاليا من غرور إلا الأكياس ، وقليل ما هم .

فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة . وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هنا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام .

ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه [1] ، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه[2] . إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنّى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك .

وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة ، فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلايحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

---

(١) حديث النهى عن الاسراف فى الوضوء أخرجه الترمذى وضعّفه ، وابن ماجة من حديث أبى بن كعب .
(٢) له مندوحة عنه : يمكن أن يستغنى عنه ليشتغل بما هو ألزم .

وفرقة أخرى : تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة ، وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء ، وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته ، لا يهمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلا عن معنى القرآن ، والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسراره .

وهذا من أقبح أنواع الغرور ، فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القران من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام .

ومثال هؤلاء من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ، ويعيدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل .

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن ، فيهذُّونه هذًّا[1] ، وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى ، إذ لايتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة .

فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالاوامر والنواهى ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه ، والعمل به ، ولكن اقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة ، فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور .

نعم تلاوته إنما تراد لكى لا ينسى بعد حفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به ، والانتفاع بمعانيه .

---

(١) هذّ القرآن : أسرع فى قراءته .

وقد يكون له صوت طيب ، فهو يقرؤه ويلتذ به ، ويغتر بالتذاذه ، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى ، وسماع كلامه ، وإنما هى لذته فى صوته ، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور ، إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه لا بصوته .

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، وخواطرهم عن الرياء ، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار ، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ، ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه ، وذلك غايةالغرور ...

الربع الرابع

المنجيات

وهو عشرة كتب :

الكتاب الأول : التوبة

وهو خمسة أبواب :

الباب الأول

الركن الأول : فى نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدِّها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل .

فالعلم الأول ، والحال الثانى ، والأول موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت .

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة ، تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوِّت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوِّت لمحبوبه

ندما ، فإذا غلب هذا الألم على القلب ، واستولى وانبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال والماضى والاستقبال .

أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوِّت للمحبوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضى فبتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر .

فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات ، وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن : التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان ، مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس ، وقد كان فى ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك .

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى ، ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق ، والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر .

وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام : الندم توبة [1] إذ لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفا بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمره ، وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة إنه : ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، فإن هذا يعرض لمجرد الألم .

ولذلك قيل : هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ، ونشر بساط الوفاء .

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبّان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث فى التوبة .

والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ، وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر على الاحاطة بجميع معانيها .

وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة ....

الباب الخامس

فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإسراف

اعلم أن الناس قسمان :

القســم الاول : شاب لا صبوة [1] له نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : تعجب ربك من شاب ليست له صبوة [2]. وهذا عزيز نادر .

القسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرّين وإلى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء ، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعة وإبطاله . ولايبطل الشىء إلا بضده ، ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة ، ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا ، قال الله تعالى : وأولَئِكَ هُمْ الغَافِلُون . لا جَرَمَ أَنَّهم فى الآخِرة هُمْ الخَاسِرُون[3] .

---

(١) الصبوة : الفتوة واللهو من الغزل .

(٢) أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر .

(٣) سورة النحل (١٠٨) و (١٠٩) . لا جَرمَ : لا ريب .

فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر ، وكما يجمع "السكنجبين"[1] بين حلاوة السكر وحموضة الخل .

ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعها فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء .

فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر ، ولابد من بيانهما . فإن قلت : أينفع كل علم لحل الاصرار ، أم لابد من علم مخصوص ؟

فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ، ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص ، فكذلك دواء الاصرار .

فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب ، فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه[2] مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع ، وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية ، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع . وهذا لابد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثانى : أنه لابد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه لا يلبّس[3] ولا يكذب ، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان .

ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول ﷺ ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف .

---

(١) دواء مجهز لعلاج الصفراء . (٢) وزانه : ما يعادله .
(٣) يَلبس : يدلس .

الثالث : أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه ، والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء ، فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء .

ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى ، والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج .

الرابع : أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ، ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء ، بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص .

ووزانه فى الدين أن كل عبد ليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ، وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين ، وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء ، فالعاصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم . وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد ، فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغى أن يصبر إلى أن يسأل عنه ، بل ينبغى أن يتصدى إلى دعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء .

والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادون فى مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب ، لا يعرفون مرضهم ، كما أن الذى ظهر على وجهه برص [1]، ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يُعرِّفْه غيره .

(١) البرص : بياض يقع فى الجسم لعلة .

وهذا فرض[1] عين على العلماء كافة ، وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية ، وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم ، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلابد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع .

والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ، والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام[2] دار المرضى ، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره ، كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى ، أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال يكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل :

أحداها : أن المريض به لا يدرى أنه مريض .

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم . بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب . وهو غير مشاهد فى هذا العالم ، فقلت النفرة[3] عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال ، فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة[4] فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟

فبهذا السبب عم على الخلق الداء ، وعظم الوباء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء ،

---

(١) فرض عين : ما يلزم كل فرد أداؤه .
فرض كفاية : اذا فعله البعض سقط عن الباقين .

(٢) قوام : (ج) قيم : وهو المسئول .

(٣) النفرة : الابتعاد والدفع . (٤) السلوة : رخاء العيش وطيب النفس .

بل اشتعل الأطباء بفنون الاغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا ، وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا . وليتهم سكتوا وما نطقوا ، فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا ما يرغب العوام ، ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ فى الأسماع وأخف على الطباع ، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ، ومزيد ثقة بفضل الله .

ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائبا أهلك بالدواء حيث يضع فى غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى العلة .

أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه ما لاتطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر سورة[1] إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال . وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس ، استعظاما لذنوبه التى سبقت فيعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب .

فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور[2] بالعسل طلبا للشفاء ، وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذن فساد الأطباء هى المعضلة الزباء [3] التى لا تقبل الدواء أصلا .

فإن قلت فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه .

نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ : ما من يوم طلع فجره ، ولا ليلة غاب شفقها ، إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات . يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق

---

(١) سورة : حدة وشدة .

(٢) المحرور : المريض بالحمى .

(٣) الزباء : الشديدة .

لم يخلقوا . ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا . فيقول الآخر : يا ليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا – وفى بعض الروايات ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا – ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا [1] .

وقال بعض السلف : إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال – وهو أمير عليه – أن يرفع القلم عنه ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه ، وإن لم يستغفر كتبها عليه .

وقال بعض السلف : ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا [2]، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه . فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفرِ له ، ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى : إن اللَّهَ يُمسِكُ السَّمواتِ والأَرْضَ أنْ تَزُولاَ ولئِن زَالتَا إنْ أَمْسكَهُما مِنْ أحدٍ مِنْ بَعْدِه [3].

وفى حديث عمر رضى الله عنه : الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها ....

---

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند (الفردوس) . من حديث ابن عمر بسند ضعيف .
(٢) كسف : (ج) كسفة وهى القطعة .
(٣) سورة فاطر (٤١) .

ربـــع المنجيـــات

الكتاب الثانى : الصبـــر والشكر

وفيه خمسة أبواب من شطرين :

الباب الأول

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليها جميعا ، وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا .

واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، فيكون للإيمان ركنان : **أولهما اليقين . ثانيهما الصبر .**

والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يُعرِّفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل ، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار .

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال ، لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ، كما أن اليقين أحد الشطرين بالإعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى النبى ﷺ[1] .

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا على مقتضى الشهوة ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال ﷺ بهذا الاعتبار : الصوم نصف الصبر[2]. لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوه والغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان .

فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبتها إلى الإيمان ، والأصل فيها أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة ..

الباب الثالث

الركن الثانى من أركان الشكر : وهو النعمة

فلنذكر فيه حقيقة الشكر وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم ، فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر . كما قال تعالى : وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهاَ[3] . فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

---

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس .
(٢) أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم ، وابن ماجة من حديث أبى هريرة .
(٣) سورة النحل (١٨) .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة الحقيقية هى السعادة الأخروية ، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز ، فتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشئ صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية .

واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

■ **القسمة الأولى** : أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى :

- ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق .
- وإلى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق .
- وإلى ما ينفع فى الحال ويضر فى المآل [١] كالتلذذ باتباع الشهوة .
- وإلى ما يضر فى الحال ويؤلم ، ولكن ينفع فى المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس .

فالنفع فى الحال وفى المآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق ، والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما . والنافع فى الحال والمضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ، ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا . وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال ، ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبى الجاهل إذا كلف بشربه ظنّه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنّة ممن يهديه

---

(١) المآل : المصير والمستقبل ويعني الآخرة .

إليه ، ويقربه منه ، ويهيىء له أسبابه ، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة [1] والأب يدعو إليها ، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها ولقصورها تلحظ الحال . والصبى لجهله يتقلد منّة من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ، ويقدر الأب عدوا له ، ولو عقل لعلم أن الأم عدوا باطنا فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو .

■ **القسمة الثانية** : اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والأقارب وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكبر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص المال الكثير والجاه الواسع . وإلى ما يكافىء ضرره نفعه ، وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ، ويصرفه فى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه .

■ **القسمة الثالثة** : اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره .

فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها .

الثانى : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير ، فإن الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهّال محبوبة فى نفسها حتى يشبعوها

---

(١) الحجامة : امتصاص الدم من المكان المصاب وهى من أساس الطب القديم .

ويكنزوها ، ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ، ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصد أيضا لذاتها ، فإن الإنسان — وإن استغنى عن الشيء — الذى تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول . فأما الذى لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين [1] فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان .

فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكن أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر [2]، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة .

■ **القسمة الرابعة** : واعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل . فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال . والنافع هو الذى يفيد فى المآل ، والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الأحوال .

والشرور أيضا تنقسم الى : ضار وقبيح ومؤلم .

وكل واحد من القسمين[3] ضربان : مطلق ومقيد .

الضرب الأول المطلق : هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة . أما فى الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما فى الشر

---

(١) النقدان : الذهب والفضة .

(٢) المدر : الطين اللزج .

(٣) أى الخيرات والشرور .

فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا . فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك [1] النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة .

الضرب الثانى المقيد : وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة ، والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع . فقد قيل : استراح من لا عقل له فإنه لا يهتم بالعافية فيستريح فى الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها .

والنافع قسمان : ضرورى كالإيمان وحسن الخلق ، فى الإيصال إلى سعادة الآخرة ، وأعنى بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا "كالسنجبين" مثلا فى تسكين الصفراء فإنه يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامها .

■ **القسمة الخامسة** : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها ، أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ــ بدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ــ بدنية مشتركة مع جميع الحيوانات .

أما العقلية : فكلذة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها . أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل الحكمة والعلم وما أكثر

---

(١) درك الشىء : أسفله .

المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ودائمة لا تمل .

فالطعام يُشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يُفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ، ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد إذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد ، فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وإدباره ، وأقل أمر فيه :

إن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال . إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال .

والعلم يزيد بالإنفاق ، والمال ينقص بالإنفاق .

والمال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدى السراق بالأخذ ، ولا أيدى السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا .

والعلم نافع وجميل ولذيذ فى كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع وإن سماه خيرا فى مواضع .

وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم : فإما لعدم الذوق ، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق .

وإما فساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا . وإما لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته للبن تدل على أنه ألذ الأشياء ، فالقاصرون عن درك [1] لذة العلم والحكمة ثلاثة :

إما من لم يَحْيَ باطنه كالطفل . وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات

---

(١) درك : اسم مصدر من الادراك .

وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى : فى قُلُوبِهم مرض[1] ، إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل : لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا[2] ، إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حى بالبدن ميت بالقلب ، فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجّهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون[3] ، فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان ...

الباب الخامس

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شىء واحد

لعلك تقول ما ذكرته فى النعم إشارة إلى أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا ، فما معنى الصبر إذن ؟ فإن كان البلاء موجودا ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلا على الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء ؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه ؟ والصبر على البلاء يستدعى ألما ، والشكر يستدعى فرحا ، وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده .

فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول باثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء ، لأنهما متضادان ، ففقد البلاء نعمة ، وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى :

نعمة مطلقة من كل وجه . أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول إلى جوار الله تعالى ، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق ، وما يعين عليهما .

---

(١) سورة البقرة (١٠) . (٢) سورة يس (٧٠) .

(٣) اشارة لقوله تعالى : ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوُا فى سَبِيل الله أمْوَاتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون. سورة آل عمران (١٦٩) .

وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه . فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد . أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا ، وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق .

وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التى لا تكون بلاء فى الدين بل فى الدنيا .

فالشكر المطلق للنعمة المطلقة ، وأما البلاء المطلق فى الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعصية . بل حق الكافر أن يترك كفره ، وكذا حق العاصى . نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر ، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها ، فلا صبر عليه ، والعاصى يعرف أنه عاص ، فعليه ترك المعصية . بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلايؤمر بالصبر عليه . فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن تكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر .

فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله ، فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضا كذلك ، فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ، ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ، ولكن بالإضافة إلى حاله ، فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى . قال الله تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرضْ[(١)] . وقال تعالى : كَلاَّ إِنَّ الإِنْسان لَيطغَى أَنْ رآَهُ استغْنَى[(٢)] .

وقال ﷺ : إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه[(٣)] .

---

(١) سورة الشورى (٢٧) .

(٢) سورة العلق (٦) و (٧) .

(٣) أخرجه الترمذى وحسّنه والحاكم وصححه .

ربع المنجيات

الكتاب الثالث : الخوف والرجاء

وفيه ثلاثة أبواب فى شطرين :

الباب الأول

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما فى وقت الموت :

قال الله تعالى : لاَ تَقْنَطُوا منْ رَحْمةِ الله[1]، فحرم أصل اليأس .

وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟.

وقال ﷺ : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن[2] . وقال ﷺ :

---

(١) سورة الزمر (٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر . وقد سقطت كلمة (الظن) من رواية الإحياء .

يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما يشاء[1] .

ودخل ﷺ على رجل ، وهو فى النزع ، فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى . فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا ، وأمنه مما يخاف[2]

وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط[3] لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .

وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجاه غفرانه ، غفر الله له ذنبه . قال : لأن الله عز وجل عّير قوما فقال : وذلك ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم[4] .

وقال تعالى : وظَنَنْتُم ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُم قَوْماً بُوراً[5] .

وقال ﷺ : إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته قال : يارب رجوتك وخفت الناس . فيقول الله تعالى : قد غفرته لك[6] .

وفى الخبر الصحيح : أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر ، فلقى الله ولم يعمل خيرا قط . فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا[7] ؟ فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات .

---

(١) أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع ، وهو فى الصحيحين (البخارى ومسلم) من حديث أبى هريرة دون قوله : فليظن بى ما يشاء .

(٢) رواه الترمذى : قال غريب . ورواه النسائى فى الكبرى ، ورواه ابن ماجه من حديث أنس ، وقال النووى : إسناده جيد .

(٣) القنوط : شدة اليأس .

(٤) سورة فصلت (٣٣) . أرداكم : أوردكم البوار والهلاك .

(٥) سورة الفتح (١٢). قوما بوارا : قوما خاسرين .

(٦) أخرجه ابن ماجه عن حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد .

(٧) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

وقال تعالى : إنَّ الذِّين يَتْلُون كِتَابَ الله وأَقَامُوا الصلاَةَ وأَنفقُوا مِماَ رَزَقنَاهُم سِراً وَعَلاَنِيةً يَرْجُون تِجَارةً لَنْ تَبُور[1] .

ولما قال ﷺ : لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم ، وتجأرون إلى ربكم[2] فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنّط عبادى ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم .

وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داوود عليه السلام : أحبنى وأحب من يُحبنى وحببّنى إلى خلقى فقال : كيف أحببّك إلى خلقك ؟ فقال : أذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى ، وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل[3] .

ورئى أبّان بن أبى عيّاش فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال : اوقفنى الله تعالى بين يديه فقال : ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت أردت أن أحببك إلى خلقك . قال : قد غفرت لك .

ورئى يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفنى الله بين يديه وقال : ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت . فأخذنى من الرعب ما يعلم الله . ثم قلت : يارب ، ما هكذا حدثت عنك . فقال : وما حدثت عنى ؟ فقلت : حدثنى عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى ما يشاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبنى . فقال الله عز وجل : صدق جبريل ، وصدق نبيى ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرازق ، وصدقت . قال : فالبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة . فقلت : يا لها من فرحة .

وفي الخبر . أن رجلا من بنى اسرائيل كان يقنّط[4] الناس ويشدد عليهم ، قال :

---

(١) سورة فاطر (٢٩)

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، وأوله متفق عليه من حديث أنس . أخرجه أحمد والحاكم . تلد مون صدوركم : تضربونها .

(٣) لا أصل له .

(٤) يقنط : يدفعهم الى القنوط واليأس .

فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها[1] .

وقال ﷺ : إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي : يا حنان يامنّان . فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فاتنى بعبدى ، فيجيء به ، فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول شر مكان فيقول ردوه إلى مكانه . فيمشي ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عز وجل : إلى أى شيء تلتفت ؟ فيقول لقد رجوت ألا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة[2] . فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته .
نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه ....

الباب الثانى

بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط .

بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبهيمة أن لاتخلو من سوط ، وكذا الصبى ، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال .

والمحمود هو الاعتدال والوسط ، فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء ، وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع ، وهو كالقضيب

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم ، فذكره مقطوعا .
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وضعفه .

الضعيف الذى تضرب به دابة قوية ، لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء .

ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف ،بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وبأفعاله ، وذلك مما قد يعز وجوده الآن .

ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ـــ كفرت ، وإن قلت : نعم ـــ كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ، ويقيدها بالطاعات ، وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا .

وأما المفرط فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز .

أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفا لأن المخوف هو الذى يتردد فيه .

وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه ، فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى ، وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والمقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال فى ذاته .

وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذى يقتل الصبى والسوط الذى يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها

وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط ، أو أحد هذه الأمور .

فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم . وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والذكر والفكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم ...

الباب الثالث

بيان معنى سوء الخاتمة

فإن قلت إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة . فمامعنى سوء الخاتمة ؟

اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين أحدهما أعظم من الأخرى .

فأما الرتبة العظيمة الهائلة فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك وإما الجحود[1] فتقبض الروح على حال غلبت الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد .

والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفا وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . وأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول النار : جُزْ يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبى .

---

(١) الجحود : النكران .

فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه . إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح ، وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ، فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة .

إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة ، وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت ...

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى البصائر ما صحت به الأخبار وهو أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[1] ، وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم[2] كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الخاتمة ....

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب .
(٢) لا أصل له .

ربــع المنجيات

الكتاب الرابع : الفقر والزهد

وهو شطرين فى ثلاثة أبواب :

الباب الثانى

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة ، وتشديدات ، وورد أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال ﷺ : للسائل حق ولو جاء على فرس[1] .

وفى الحديث : ردوا السائل ولو بظلف محرق[2] .

ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه ، والإعطاء إعانة ، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل ، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بد فهو حرم ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى : إذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة .

---

(١) رواه أبو داوود من حديث الحسين بن على ومن حديث على ، وذكر ابن الصلاح فى علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال : أربعة أحاديث تدور فى الاسواق ليس لها إصل منها : للسائل حق .

(٢) رواه أبو داوود والترمذى وقال حسن صحيح ، والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد ، وقال ابن عبد البر حديث مضطرب .

الثانى : أن فيه اذلال للسائل نفسه لغير الله تعالى ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة ، وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول .

الثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبا لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء ، فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا أو تأذى فى نفسه بالمنع إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ، ففى البذل نقصان ماله ، وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الايذاء ، والإيذاء ، حرام إلا بضرورة .

ومهما فهمت هذه المحذورات ، فقد فهمت قوله ﷺ : مسألة الناس من الفواحش ماأحل من الفواحش غيرها [١]. فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره .

قال ﷺ : من سأل عن غِنًى فإنما يستكثر من جمر جهنم[٢] .

وقال : ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم وفى لفظ آخر .. كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه[٣] . وهذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد .

وبايع رسول الله ﷺ :قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية : لا تسألوا الناس شيئا[٤] .

---

(١) لا أصل له .

(٢) رواه أبو داوود وابن حبّان من حديث سهل بن الحنظلة . مقتصرا على ما ذكر منه . ولمسلم من حديث أبى هريرة : من يسأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا ، وللبزاز والطبرانى من حديث مسعود بن عمر : ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخرق وجهه — أى يبلى — وفى إسناده لين . وللشيخين من حديث ابن عمر : ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد .

(٣) رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود . الكدوح :(ج) كدح وهو كل أثر من عض أو جرح .

(٤) أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعى .

وكان رسول الله ﷺ يأمر بالتعفف عن السؤال فيقول : من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب الينا[1] .

وقال ﷺ : استغنوا عن الناس ، وما قل عن السؤال فهو خير ، قالوا : ومنك يا رسول الله ؟ قال : ومنى[2] .

وسمع عمر رضى عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه : عَشِّ الرجل . فعشّاه ، ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال : ألم أقل لك عشِّ الرجل ؟ قال : قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا ، فقال : لست سائلا ولكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة . وضربه بالدِّرة[3] وقال : لا تعد .

ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ، ولا أخذ مخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنة ؛ الضيق الحويصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة ، والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال ، فكيف استجازه ؟

وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه ، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واطلاعه على أسرار دين الله ، ومصالح عباده ؟ ؟

أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ، أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله ، وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله ، وهيهات ، فإن ذلك أيضا معصية ، بل الفقه الذى لاح فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس ، وعسر تمييز ذلك ، ورده إلى أصحابه ، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ...

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى (القناعة) والحارث بن أبى أسامة فى (مسنده) ، من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه البزار والطبرانى من حديث ابن عباس .

(٣) الدِّرة : السوط يضرب به ، ودرة عمر مشهورة .

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء : إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستغنى عنه . فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه : فهو سُؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا فى الباطن ، وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب ،فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس[1] له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة[2] .

وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ، ولكن لا يخلو عن خوف ؛ وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكِراء[3] وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محققة . ولكن الصبر عنه أولى ، وهو بالسؤال تارك للأولى ، ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال : ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ، ولكن يشق علىّ . فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سُؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه ، عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز ، وكمن يسأل كراء الفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل[4] وهو قادر على الراحلة .

---

(١) هذه اللفظة غير واردة فى الأصل ولكننا نرى أنها ضرورية لاستقامة المعنى .

(٢) الوراقة : نسخ الكتب وبيعها .

(٣) الكراء : أجرة الركوب . (٤) المحمل : الهودج .

فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام .

وإن لم يكن ، وإن كان فيه شيء من المحذورات الثلاثة : من الشكوى والذل وإيذاء المسئول ، فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة ...

الباب الثالث

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ، ولا زموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة .

بل لا بد من الزهد فى المال والجاه جميعا ، حتى يكمل الزهد فى جميع حظوظ النفس فى الدنيا ، بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة[1] ، كما قال الخواص فى وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلة غيرهم ، هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وألجئوا الى المضايق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ، ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبوعون للهوى .

فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ، فإذن معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل وينبغى أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : لِكَيْلاَ

---

(١) الثياب الرفيعة : الثياب الغالية .

تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِماَ آتَاكُمْ [1]. بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك . وهو يحزن بوجود المال ويفرح بفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامّه ومادحه ، فالأول علامة الزهد فى المال ، والثانى علامة الزهد فى الجاه .

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، فالغالب على قلبه حلاوة الطاعة ، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبة : إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأنس بالله ، فأما الأنس بالدنيا وبالله لا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب ، أحب الدنيا والآخرة جميعا ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام : اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين ، ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام العارفين .

والزاهد لا بد أن يكون فى أحد هذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه عند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلا عن المال على فقد زهده أصلا .

وقال ابن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان ، أكان داوود الطائى زاهدا ؟ قال : نعم . قلت : بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يكون الزهد إلا بالزهد فى جميعها ، فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه .

---

(١) سورة الحديد (٢٣) .

فإذن علامة الزهد : استواء الفقر والغنى ، والعز والذل ، والمدح والذم ، وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع من هذه العلامات علامات أخرى لا محالة مثل : أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هى ، فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجدا .

وقال يحيى بن معاذ[1] : علامة الزهد السخاء بالموجود .

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل .

وقال سرى[2] :لا يطيب عيش الزاهد إذا إشتغل عن نفسه ، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة .

وقال أيضا : الزاهد لله يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر .

وقال أيضا : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ما شطتها ، والزاهد فيها يسخم[3] وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد ، وأحكامه ، وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل ، فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو يحيى بن معاذ الرازى ، واعظ زاهد ، لم يكن له نظير فى وقته ، أقام فى بلخ ، ومات فى نيسابور سنه ٢٥٨ هـ .

(٢) هو السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٣ هـ .

(٣) يسخم : يُسَوِّدُ بالفحم .

ربع المنجيات

الكتاب الخامس : التوحيد والتوكل

وهو شطرين فى ثلاثة أبواب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . الرافع السماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب ، إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه ، والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها ، فما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السُّنة وقدح فى الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل والشرع فى غاية

١

الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلم الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب[1] عما شاهدوه من حيث استنطقوا ....

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إنَّ كُنْتُم مُؤْمِنِين [2]

وقال عز وجل : وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكل المُتَوكِلُون [3]

وقال تعالى : ومَنْ يَتَوَكَّل عَلى اللهِ فَهُوَ حَسبُه [4]

وقال سبحانه وتعالى : إنَّ اللهِ يُحبُّ المتُوكِلِين [5]

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب . وقال تعالى : أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَه [6] ، فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية . فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى : هَلْ أَتَى عَلى الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَهْر لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذكوراً[7] . وقال عز وجل : ومَنْ يَتَوَكَل عَلى اللهِ فإنْ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم[8] . أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .

وقال تعالى : إنّ الذِّين تَدْعوُن مِنْ دوُن اللهِ عِبَادٌ أَمْثالُكُم[9] . بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه ؟ .

---

(١) الإعراب : البيان .

(٢) سورة ابراهيم (١١) .

(٣) سورة ابراهيم (١٢) .

(٤) سورة الطلاق (٣) .

(٥) سورة آل عمران (١٥٩) .

(٦) سورة الزمر (٣٦) .

(٧) سورة الانسان (١) .

(٨) سورة الانفال (٤٩) .

(٩) سورة الاعراف (١٩٤) .

وقال تعالى : إن الذِّين تَعْبُدون مِنْ دُون الله لا يَمْلِكُون لَكُمْ رِزقاً فأبتغوُا عِنْدَ اللهِ الرزّقَ واعبُدُوُه[١] .

وقال عز وجل : ولله خَزَائِن السَّموات والأَرضَ وَلَكن المُنافِقِينَ لاَ يَفقَهُونَ[٢] .

وقال عز وجل : يُدِبّر الأَمْر ما مِنْ شَفِيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إذْنِه[٣] .

وكل ما ذكر فى القرآن من التوحيد هو قطع الملاحظة عن الأغيار[٤] ، والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود : أُريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل ، فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت : نعم . قيل : ومِنْ هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين لا يكتوون ، ولا يتطيرون ، ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال رسول الله ﷺ : اللهم أجعله منهم . فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة[٥] .

وقال ﷺ : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[٦] . وقال ﷺ : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها[٧] .

---

(١) سورة العنكبوت (١٧) .

(٢) سورة المنافقون (٧) .

(٣) سورة يونس (٣) .

(٤) الأغيار : هم غير الله من الشركاء .

(٥) رواه ابن منيع باسناد حسن ، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس :
يكتوون : يطلبون الكى علاجا .
يتطيرون : من الطيرة أى يتشاءمون .
يسترقون : يعتمدون على الرُقية .

(٦) أخرجه الترمذى والحاكم ، وصححاه من حديث عمر . الخماص : (ج) خمصاء وهى الجائعة .

(٧) أخرجه الطبرانى فى الصغير وأبن أبى الدنيا ، ومن طريقة البيهقى فى الشعب ، من رواية الحسن عن عمران بن حصين ، ولم يسمع منه .

وقال ﷺ : من سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده[1] .

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربى عز وجل . قال عز وجل : وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها[2] .

وقال ﷺ : لم يتوكل من استرقى واكتوى[3] .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليه السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وفاءً بقوله : حسبى الله ونعم الوكيل . إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى ، فأنزل الله تعالى : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى .[4]

وأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام : ياداوود ، ما من عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب ، فأقسمت على أمى لتسترقينى ، فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ .

وقرأ الخواص قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ[5] فقال : ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ الى أحد غير الله تعالى ...

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام . الخصاصة : الضيق والشدة . الآيه : (١٣٢) من سورة طه .

(٣) أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائى فى الكبير ، والطبرانى واللفظ له .

(٤) سورة النجم (٣٧) .

(٥) سورة الفرقان (٥٨) . وتكملة الآية : وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا .

الباب الأول

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من : علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل .

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة .

ونحن نحتاج منها إلى ما نبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد الذى يترجمه قولك : لا اله إلا الله وحده لا شريك له .

والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك : له الملك .

والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك : وله الحمد .

فمن قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه .

فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له فنقول :

التوحيد أربع مراتب : ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر .

ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن ، ولب اللب .

فالرتبة الأولى من التوحيد هى أن يقول الانسان بلسانه : لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين .

والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام .

والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار .

والرابعة أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهو مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية : الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا ، فلا يرى نفسه أيضا ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق .

فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان .

والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ، ولم تضعف بالمعاصى عقدته . ولهذا لعقد حيل يقصد بها تضعيفه ، وتحليله بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل التضعيف ، ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاما . والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لاتنحل عقدته .

والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا ، إذ انكشف له الحق كما هو عليه ، ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه ، لأنه مكلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد ، بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة .

والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من

حيث إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد .

فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب .

وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن ، ولكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت . والقشرة السفلى هى القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاه فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت ، فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده .

وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا ، ولكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب . وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ [1] . وبقوله عز وجل : أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِه [2] .

وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالاضافة الى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب [3] ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

---

(١) سورة الأنعام (١٢٥) .

(٢) سورة الزمر (٢٢) .

(٣) الشوب : ما أختلط بغيره من الأشياء ، وخاصة السوائل .

الباب الثالث

بيان أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر ، وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات . لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل ، فكتمانه أسلم عن الآفات . ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر[1] يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه . وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى فىّ .

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض ، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم .

قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى .

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه : كيف أنت ؟ قال : بشر . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية . فقال . أتجلد على الله ؟

فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة ، وتأدب فيه بأدب النبى ﷺ إياه حيث مرض على كرم الله وجهه ، فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء . فقال ﷺ : لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية .

---

(١) هو بشر الحافى .

ربــع المنجيــات

الكتاب السادس : المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو ستة أبواب :

الباب الأول

بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرضٌ ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ؟ والطاعة تبع الحب وثمرته .

فلابد أن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : يُحِبهُم ويُحِبُّونه [1] وقوله تعالى : والذين آمَنُوا أشَدّ حُبا لله [2] . وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه ، وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة .

إذ قال أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما [3] . وفى حديث آخر : لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما [4] . وفى حديث آخر : لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين [5] وفى رواية: ومن نفسه .

---

(١) سورة المائدة (٥٤) .

(٢) سورة البقرة (١٦٥) .

(٣) أخرجه أحمد بزيادة فى أوله .

(٤) متفق عليه من حديث أنس بلفظ : لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله .

(٥) متفق عليه من حديث أنس ، واللفظ لمسلم ، وقال البخارى : من والده وولده . وللبخارى من حديث عبد الله بن هشام : قال عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى فقال : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى . فقال : الآن يا عمر .

وقد قال تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأبنَاؤكُم وإخْوَانُكم[1] الآية . وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار .

وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال : أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم ، وأحبونى لحب الله إياى [2] . ويروى أن رجلا قال : يا رسول الله ، إنى أحبك . فقال ﷺ : استعد للفقر ، فقال : إنى أحب الله تعالى . فقال : استعد للبلاء [3]

وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا ، وعليه إهاب كبش قد تنطق [4] به . فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى نورّ الله قلبه ، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون[5] .

وفى الخبر المشهور أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه . قال : يا ملك الموت الآن فاقبض . وهذا لا يجده إلا عبدٌ يحب الله من كل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه .

وقد قال نبينا ﷺ : اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك ، واجعل حبك أحب لى من الماء البارد .

وجاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ فقال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا إنى أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : المرء مع من أحب[6] . قال أنس :

---

(١) سورة التوبة (٢٤) . والآيه : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب .

(٣) أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل ، وقال : حسن غريب ..

(٤) تنطق به : أى جعله حول وسطه .

(٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن .

(٦) متفق عليه من حديث أنس ، ومن حديث أبى موسى الاشعرى وابن مسعود .

فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر .

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن ، وقال أبو سليمان الدارانى : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى . فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة . فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرائى[1] من النور فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل . فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون .

قال عبد الواحد بن زيد[2] : مررت برجل قائم فى الثلج فقلت : أما تجد البرد ؟ فقال : من شغله حب الله لم يجد البرد .

وعن سرى السقطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائهم عليهم السلام فيقال : يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، ويا أمة محمد ، إلا المحبين لله تعالى فإنهم ينادون : يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

وقال هرم بن حيان[3]: المؤمن إذا عرف الله عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل

---

(١) المرائى : (ج) مرآة .

(٢) هو عبد الواحد بن اسماعيل الرويانى ، فقيه شافعى ، من رويان وراء النهر ، رحل إلى بخارى وغزنة ونيسابور وآمل ، ومات بها سنة ٥٠٢ هـ ، له تصانيف فى فقه الإمام الشافعى .
الأعلام ج ٤ ص ١٧٥ .

(٣) هرم بن حيان العبدى الأزدى من بنى عبد قيس ، قائد فاتح أيام عمر وعثمان رضى الله عنهما ، ومن كبار النساك ، ومن كبار التابعين ، توفى فى البصرة بعد سنة ٢٦ هـ . (وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٥ والأعلام ج ٨ ص ٨٢) .

إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا ، وتروحه فى الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب ، فكيف رضوانه ، ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ، وحبه يدهش العقول ، فكيف وده ، ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه .

وفى بعض الكتب : عبدى أنا ، وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبا .

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال يحيى بن معاذ : إلهى ، إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى [1] فى رياضك ملازما لأمرك ، ومشغوفا بقولك ، فلما طر [2] شاربى ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا ، وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه ، فلنشتغل به ....

الباب الثانى

بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة ، وفى حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم ، فتلقنوها

---

(١) أهمله : خلى بينه وبين نفسه والمراد أن الله تعالى وكله إلى إرادته وحريته .

(٢) طر : نبت شعره .

وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ، ولا تخيلوا لهامعنى فاسدا ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون .

وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى : فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم [1] .. الآية .

فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة ، فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول : أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله ــ الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ، وحامد خصاله ، ولكن العامى يعرف علمه مجملا ، والفقيه يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به ، وحبه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله وأحبه لا محالة ، ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل ، والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ، ولكن لا يدرى ما فى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحبه ميل مجمل . والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف .

والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيعه .

والعامى يعلم ذلك ويعتقده ، وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لا محالة عظمته وجلاله وكمال صفاته فى قلبه ، فيزداد له حبا .

---

(١) سورة الواقعة (٨٨ : ٩٣) . والتكملة : .. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم .
رَوْح : رحمة الحميم : الماء الحار ، والجمر المشتعل .

وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله ــ بحر لا ساحل له فلا جرم أن تفاوت أهل المعرفة فى الحب لا حصر له ، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب (١) الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء .

أما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة . والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ، ولذلك قال الله تعالى : وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢) .

الباب الرابع

القول فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقة ما ورد فى فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين ، وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التداخل والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل ، وفهّمه وفقّهه فى الدين .

---

(١) الأسباب الخمسة هى : ١ ــ حب الإنسان نفسه ، وبقاءه ودوام وجوده وكماله ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذا جبلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى .
٢ ــ هو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ، ولاطفه بكماله ، وأمده بمعونته وانتدب لنصرته ، وقمع أعداءه .. وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط .
٣ ــ وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه .. وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى لأن الله هو المحسن إلى الكافة ، المتفضل على جميع أصناف الخلائق .
٤ ــ وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ ينال من وراء إدراك الجمال .
٥ ــ والسبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشىء ينجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ... وقد فصل المصنف هذه الأسباب تفصيلا دقيقا .

(٢) سورة الاسراء (٢١) .

فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ، ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي ، وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار ، من باب التسليم لقضاء الله تعالى .

ولو انكشفت هذه الآثار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله ﷺ لابن عباس حيث قال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل[1] .

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ، ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره ، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى : رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ[2]. وقد قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الإِحسان إلا الإحسان[3] . ومنتهى الإحسان رضا الله على عبده ، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى .

وقال تعالى : ومَسَاكِن طَيبة فِي جَنَاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ الله أَكْبَر[4] . فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : إنَّ الصَّلاَةَ تنهى عَن الفَحشاءِ والمُنْكَر ولَذِكْرُ اللهِ أَكْبَر[5] فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة ، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة ، بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفى الحديث إن الله تعالى : يتجلى للمؤمنين فيقول : سلونى . فيقولون : رضاك[6] فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل .

---

(١) متفق عليه دون قوله : وعلمه التأويل ، ورواه أحمد بهذه الزيادة .

(٢) سورة التوبة (١٠٠) .

(٣) سورة الرحمن (٦٠) .

(٤) سورة التوبة (٧٢) .

(٥) سورة العنكبوت (٤٥) .

(٦) أخرجه الجزار والطبرانى فى (الأوسط) من حديث أنس فى حديث طويل ، بسند فيه لين ، ورواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أذهان الخلق عن دَرَكِه ، ومن يقوى عليه ، فيستقل بادراكه عن نفسه .

وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات ، وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دواما ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب ، وقال الله تعالى : ولَدَيْنَا مَزِيد [١].

قال بعض المفسرين : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين :

إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى : فَلاَ تَعْلَمُ نَفسٌ مَا أُخْفِى لَهُمْ مِنْ قُرّةِ أعْيُن[٢].

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا ، وهو قوله تعالى : سَلاَمٌ قَولاً مَنْ رَبٍّ رَحِيم[٣] .

والثالثة : يقول الله تعالى : إنى عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى : وَرِضْوَانٌ مِن اللهِ أكْبَرَ . أى من النعيم الذى هم فيه ، فهذا فضل من الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

---

(١) سورة ق (٣٥) .

(٢) سورة السجدة (١٧) .

(٣) سورة يس (٥٨) .

ربــع المنجيات

الكتاب السابع : النية والإخلاص والصدق

وفيه ثلاثة أبواب

الباب الأول

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل .

العلـم : يقدمه لأنه أصله وشرطه .

والعمل : يتبعه لأنه ثمرته وفرعه .

وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختيارى ، فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ؛ فلا بد أن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد ، فلا بد من إرادة . ومعنى الإرادة : انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال ، أو فى المآل[1]، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ، ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافى عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشىء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها .

فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا ، وهى الحواس الظاهرة والباطنة ـــ وليس ذلك من غرضنا ـــ ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول ، ما لم يكن فيه ميل إليه ، ورغبة فيه ، وشهوة له باعثة عليه ، إذ المريض يرى الغذاء يعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول ، لعدم الرغبة فيه والميل إليه ولفقد

---

(١) المآل : المستقبل .

الداعية المحركة إليه ، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة ، وأعنى نزوعا به فى نفسه إليه وتوجها فى قلبه إليه ، ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه ، مريد تناوله ، عاجز عنه لكونه زمنا[1].

فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشىء موافق فلابد أن يفعل ، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء ، فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة .

فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهى الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة ، والميل إلى ما هو موافق الغرض ، إما فى الحال وإما فى المآل .

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المَنْوى ، والانبعاث هو المقصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل .

إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع . وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضدا له ومناهضا .

الباب الثانى

فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الاخلاص :

قال الله تعالى : وماَ أُمِروُا إلاَ لِيَعْبُدُوا الله مُخلْصِينَ لَهُ الدِّينَ[2] . وقال : ألاَ لله

(١) الزُمن : الضعيف المريض .

(٢) سورة البينة (٥) .

الدينُ الخَالِصُ[1] . وقال تعالى : إلا الذين تَابُوا وأصلحوُا واعْتَصَمُوا بالله وأَخْلَصُوا دِينَهُم لله[2].

وقال تعالى : فَمَنْ كَانَ يَرجوُ لِقَاء رَبه فَلْيَعملْ عَمَلاً صالحا ولاَ يُشْرك بعبادَةِ رَبِّه أحداً[3] .

نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه .

وقال النبى ﷺ : ثلاث لا يَغُل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله[4] .

وعن مصعب بن سعدعن أبيه قال : ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم[5] .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى[6].

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول فإن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل : أخلِص العمل يجزك منه القليل[7].

وقال عليه السلام : ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه[8] . وقال عليه الصلاة والسلام : أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة ، رجل آتاه الله العلم ، فيقول الله تعالى : ما صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى : كذبت .

---

(١) سورة الزمر (٣) . (٢) سورة النساء (١٤٦) . (٣) سورة الكهف (١١٠) .

(٤) أخرجه الترمذى وصححه من حديث نعمان بن البشير ، وكذلك رواه بن ماجه ، وصححه قال : قام رسول الله ﷺ بالخيف من مِنَى فقال : نَضّر الله امرأ سمع مقالتى فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه : ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم .

(٥) رواه النسائى ، وهو عند البخارى بلفظ : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم .
ومصعب : هو ابن سعد بن أبى وقاص .

(٦) رواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف.

(٧) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ ، وإسناده منقطع .

(٨) أخرجه ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى .

وتقول الملائكة : كذبت . بل أردت أن يقال : فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك . ورجل أتاه الله مالا فيقول الله تعالى : لقد أنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به فى آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى : كذبت . وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، وقد قيل ذلك . ورجل قتل فى سبيل الله تعالى ، فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ فيقول : يا رب أمرت بالجهاد ، فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله : كذبت . وتقول الملائكة ، كذبت ، بل أردت أن يقال : فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك . قال أبو هريرة : ثم خبط رسول الله ﷺ فخذى وقال : يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة[1] .

فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ، ثم قال : صدق الله إذ قال : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا[2] .. الآية .

وفى الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهرا طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن هاهنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك و أخذ فأسه على عاتقه ، وقصد قطع الشجرة . فاستقبله إبليس فى صورة شيخ ، فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة . قال : وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك ؛ واشتغالك بنفسك ، وتفرغت لغير ذلك . قال : إن هذا من عبادتى . قال : فإنى لا أتركك أن تقطعها . فقاتله فأخذه العابد ، فطرحه إلى الأرض ، وقعد على صدره . فقال له إبليس : أطلقنى حتى أكلمك ، فقام عنه . فقال إبليس : يا هذا إن الله تعالى أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبدها أنت ، وما عليك من غيرك ، ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها . فقال العابد : لا بد من قطعها . فنابذه[3] القتال فغلبه العابد

---

(١) رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال : حديث حسن .

(٢) سورة هود (١٥) و (١٦) . والتكمله : (.. نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) .

(٣) نابذه : عاود مقاتله .

وصرعه ، وقعد على صدره ، فعجز إبليس فقال له : هل فى أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع . قال : وما هو ؟ قال : أطلقنى حتى أقول لك . فأطلقه . فقال أبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك ، إنما أنت كَلٌّ[1] على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك ، وتشبع وتستغنى عن الناس ؟ قال : نعم . قال : فأرجع عن هذا الأمر ، ولك على أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما، فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع الشجرة التى يغرس مكانها ، ولا يضرهم قطعها شيئا ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها .

فتفكر العبد فيما قال ، وقال : صدق الشيخ ، لست بنبىّ فيلزمنى قطع هذه الشجرة ، ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة .

فعاهده على الوفاء بذلك ، وحلف له . فرجع العابد إلى متعبده ، فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما ، وكذلك الغد .

ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه ، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة . فقال : كذبت ، والله ما أنت بقادر على ذلك ، ولا سبيل لك إليها ... فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة ، فقال : هيهات . فأخذه إبليس فصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه ، وقعد أبليس على صدره ، وقال : لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك .

فنظر العابد فإذا لا طاقة له فقال : يا هذا ، غلبتنى فخلّ عنى ، وأخبرنى كيف غلبتك أولا ، وغلبتنى الآن ؟ فقال : لأنك غضبت أول مرة لله ، وكانت نيتك للآخرة ، فسخرنى الله لك ، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى : إلا عِبَادَك مِنْهُم المُخْلَصِين[2] ، إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ...

---

(١) كلٌّ : عالة .

(٢) سورة الحجر (٤٠) .

الباب الثالث

فى الصدق وفضيلته وحقيقته

بيان حقيقة الصدق ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان :

صدق فى القول .

صدق فى النية والإرادة .

صدق فى العزم .

صدق فى الوفاء بالعزم .

صدق فى العمل .

صدق فى تحقيق مقامات الدين كلها .

فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك ، فهو صديق لأنه مبالغة فى الصدق ثم هو أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شىء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الصدق الأول : صدق اللسان : وذلك لا يكون إلا فى الأخبار ، أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه ، والخبر إما يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والحلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ....

الصدق الثانى : فى النية والإرادة ، ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن ما زجه من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كذابا كما روينا فى فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة ، حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا . فقال الله تعالى : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم .

فإنه لم يكذّبه ، ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذبه فى إرادته ونيته .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد ، وكذلك قوله تعالى : واللهُ

يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون[1] . وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب . وكأن التكذيب لايتطرق إلى الخبر .

وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول ، فكذب فى دلالته بقرينة الحال على ما فى قلبه ، فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا .

الصدق الثالث : صدق العزم ، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول فى نفسه : إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره ، وإن لقيت عدوا فى سبيل الله قاتلته ، ولم أبالى وإن قتلت .

وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق ، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة .

فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال : لفلان شهوة[2] صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى ، أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى .

والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

وهو كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لأن أُقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

---

(١) سورة المنافقون (١).

(٢) الشهوة : الشهية والرغبة .

ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل فى الصادقين المؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبوبكر كانت حياته أحب من حياة أبى بكر .

الصدق الرابع : فى الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ؛ انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى :

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه[1] .

فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، أما والله لَئِن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع . قال : فشهد " أُحدًا " فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال : واها لريح الجنة ، إنى أجد ريحها دون أُحد ، فقاتل حتى قتل ، فوُجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة . فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخى إلا بثيابه . ونزلت هذه الآية :

رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه[1] .

الصدق الخامس : فى الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائى هو الذى يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته ، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب ، وهو مطالب بالصدق فى الأعمال . وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا

---

(١) سورة الأحزاب (٢٣) .

غير صادق فى عمله ، وإن لم يكن ملتفا إلى الخلق ولا مرائيا إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ...

ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كى لا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن ...

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق فى مقامات الدين . كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم له غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هى الشهوة الصادقة .

وقال الله تعالى : إنَّما المُؤمِنُونَ الذِّينَ آمَنُوا بالله وَرَسُوله ثُمَ لَمْ يَرتابُوا .. إلى قوله : أُولَئِكَ هُمُ الصادقون[1] . وقال تعالى : وَلَكِنَّ البِّر مَنْ آمنَ بِالله وَاليَوم الآخِر ... إلى قوله : أُولئك الذِين صَدَقوُا[2] . وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآيه ، فقيل له سألناك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية ...

(١) سورة الحجرات (١٥) .
(٢) سورة البقرة (١٧٧) .

ربـــع المنجيات

الكتاب الثامن : المراقبة والمحاسبة

وفيه بابان عبارة عن ست مقامات :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت[1] ، المطلع على ضمائر القلوب، إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لا يعزب[2] عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت . المحاسب على النقير[3] والقطمير[4] ، والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة[5] لخابت وخسرت .

(١) اجترحت : اكتسبت ، وأكثر ما يستعمل فى الجرائم .

(٢) يعزب : يبعد ويخفى .

(٣) النقير : ثقب دقيق فى ظهر النواة .

(٤) القطمير : القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها .

(٥) المزجاة : القليلة .

فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت ، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت .

فمنه العطاء والجزاء ، والإبعاد والإدناء ، والإسعاد والإشقاء .

والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : وَنَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيوم القِيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفسٌ شيئاً وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهاَ وَكَفى بِنَا حَاسبين[1] .

وقال تعالى : وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المُجْرمِينَ مُشْفقينَ مِمَّا فيه ويَقُولونَ يا وَيْلَتَنا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إلاَ أَحْصاهَا وَوجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أحداً[2] .

وقال تعالى : يَوْمَ يَبْعَثُهم اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِئُهم بِماَ عَمِلوُا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ[3] .

وقال تعالى : يَوْمئِذٍ يَصْدُرُ النَاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أعمَالَهُم فَمَنْ يَعْملْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ[4] . وقال تعالى : يَوْمَ تَجد كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِن خَيْرٍ مُحْضَراَ ومَا عَمِلَتْ مِنْ سوُءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ويحَذرُكُم اللهُ نَفْسه[5] . وقال تعالى : واعْلَموُا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفِسِكُم فاحْذَرُوه[6] . وقال

---

(١) سورة الأنبياء (٤٧) .

(٢) سورة الكهف (٤٩) .

(٣) سورة المجادلة (٦) .

(٤) سورة الزلزلة (٦) و (٧) .

(٥) سورة آل عمران (٣٠) .

(٦) سورة البقرة (٢٣٥) .

تعالى : ثم تُوفَّى كُلُ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونْ[1] .

فعرف أربابُ البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطر واللحظات ، وتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات .

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل : يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا[2] . فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة .

فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها ، وبيان حقيقتها ، وفضيلتها ، وتفصيل الأعمال فيها ، وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة[3] ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة .

فلنذكر شرح هذه المقامات ، وبالله التوفيق .

المرابطة الرابعة : فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه ، فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى ، فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغى أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا

---

(١) سورة البقرة (٢٨١) .

(٢) سورة آل عمران (٢٠٠) .

(٣) المشارطة : ادراك المتعامل فى التجارة لسلامة الربح والمقصود هنا يقين المؤمن بجزاء ربه .

نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة ، فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العُبّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست .

وروى أنه كان فى بنى اسرائيل رجل يتعبد فى صومعة ، فمكث كذلك زمنا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة ، فقال : ما هذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله الى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود فى صومعتى ، لا يكون والله ذلك أبدا ، فتركها معلقة فى الصومعة ، تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل فى بعض كتبه ذكره .

ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريب يقول : أصابنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت فى نفسى تأخرا وتقصيرا ، فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح ، وأسخن الماء أو أدخل الحمام ، ولا أعنى على نفسى ، فقلت : واعجبا أنا أعامل الله فى طول عمرى ، فيجب له على حق ، فلا أجدّ فى المسارعة ، وأجد فى الوقوف والتأخر ، وآليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه وآليت أن لا أنزعها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها فى الشمس .

ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت[1] ، وقال إنك للحاظة إلى ما يضرك .

ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش .

---

(١) بُقرت : شُقت .

ويحكى عن الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع ...

المرابطة الخامسة : المجاهــدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل ، أو ورد من الأوراد ، فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ، وتداركا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى .

فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة .

وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ما شيا أو التصدق بجميع ماله ، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين[1] . ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به .

إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلاشيء أنفع من سماع أحوالهم

---

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين أخرجها أبو داوود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وللنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، وللترمذى من حديث بلال .

ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم ، وبقى ثوابهم ونعيمهم أبدا الآباد لا ينقطع . فما أعظم ملكهم ، وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبدا الآباد . نعوذ بالله تعالى من ذلك ...

رُبع المنجيات

الكتاب التاسع :

التفكر

وفيه بابان :

الباب الأول

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى : الَّذِين يَذْكُرُوْن الله قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهم وَيَتَفكَّرُوْن فِي خَلْق السَّموات والأَرْض رَبّنا مَا خَلَقْتَ هَذاَ باطلا[1] .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل ، فقال النبى ﷺ : تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروا قدره[2] . وعن النبى ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون ، فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ قالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل . قال : فكذلك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ولا تتفكروا فيه .

وعن عطاء[3] قال : انطلقت يوما وعبيد الله بن عمير إلى عائشة رضى الله

---

(١) سورة آل عمران (١٩١).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى (الحلية) بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهانى فى (الترهيب والترغيب) ، ورواه الطبرانى فى (الأوسط) ، والبيهقى فى (الشعب) من حديث ابن عمر .

(٣) هو عطاء بن رباح .

عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ، ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله ﷺ : زر غبا تزدد حبا . قال ابن عمير : فاخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ . فبكت ، وقالت : كل أمره كان عجبا . أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ، ثم قال : ذرينى أتعبد لربى عز وجل ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلى ، فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه لصلاة الصبح ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال ، وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة : إنَّ فى خَلْقِ السَّمواَتِ والأَرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيلِ والنَهَّارِ لآياتٍ لِأولِي الأَلْبَابِ[1] ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[2] .

قيل للأوزاعى[3] : ماغاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن ويعقلهن .

وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر — بعد موت أبى ذر — فسألها عن عبادة أبى ذر . فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر .

وعن الحسن قال :تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة . فقال : الفكرة مخ العقل . وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وعن طاووس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : يا روح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم ، من كان منطقه ذِكْراً ، وصمته فِكْراً ، ونظره عِبْرةً ، فإنه مثلى .

---

(١) سورة آل عمران (١٩٠) .

(٢) فى صحيح ابن حبّان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى ، إمام الدار الشامية فى الفقه والزهد ، ولد فى بعلبك عام ٨٨ هـ ، ونشأ فى بيروت ، وتوفى بها عام ١٥٧ هـ . (الأعلام ج٣ ص ٣٢٠) .

الباب الثانــى

بيان كيفية التفكير فى خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ، ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى :

ــ ما لا يعرف أصلها فلا يمكّننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التى لانعلمها ، كما قال الله تعالى :

وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمون[1] ــ وقال : سُبْحانَ الذِّي خَلقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهاَ مما تُنْبِتُ الأَرْضَ وَمِنْ أَنْفُسِهم ومما لا يَعلمُون[2] وقال : وَنُنْشِئكُم فِيماَ لا تَعْلَمُون[3] .

ــ وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ، ولا يعرف تفصيلها . وهى منقسمة إلى : ما أدركناه بحسن البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر .

أما الذى لا ندركه بالبصر : فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى ، وغير ذلك . ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض .

فلنعد إلى الأقرب إلى الإفهام ، وهى المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع ، والأرض وما بينهما ، فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها .

وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها . فهذه هى الأجناس المشاهدة من السموات

---

(١) سورة النحل (٨) .

(٢) سورة يس (٣٦) .

(٣) سورة الواقعة (٦١) .

والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم إلى أصناف ، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة .

وجميع ذلك مجال الفكر ، فلا تتحرك ذرة فى السموات ولا فى الأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة .

كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهى الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى : إنّ فى خَلْقِ السّمواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ اللّيْلِ والنّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَاب . وكما قال تعالى : وَمِنْ آياتِهِ — من أول القرآن إلى آخره فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات .

فمن آياته : الانسان المخلوق من النطفة — وأقرب شىء إليك نفسك — وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما ينقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه ، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : وفى أنفسكم أفلا تبصرون[1] ، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة ، فقال : قُتِلَ الإنْسَان ما أكْفَرَهُ مِنْ أىِّ شَىءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسرَهُ . ثُمَ أمَاته فَأقْبرهُ . ثُمَ إذَا شَاءَ أنْشَرَهُ[2] .

وقال تعالى : ومِنْ آيَاتِه أنْ خَلقَكُم مِنْ تُرابٍ ثُمَ إذَا أنْتُم بَشَرٌ تَنْتشِرُونَ[3] . وقال تعالى : ألَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىٍّ يُمْنى . ثم كَانَ عَلقَةً فَخَلَقَ فَسَوى[4] . وقال تعالى : ألَمْ نَخْلقْكمْ مَنْ ماءٍ مَهِين . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرارٍ مَكِين . إلى قَدَرٍ مَعْلُوم[5] . وقال :

---

(١) سورة الذاريات (٢١) .

(٢) سورة عبس (١٧ : ٢٢) . النطفة : الماء الصافى .

(٣) سورة الروم (٢٠) .

(٤) سورة القيامة (٣٧) و (٣٨) .

(٥) سورة المرسلات (٢٠ : ٢٢) .

أَوَلَمْ يَرَ الإنْسانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذاَ هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[1] . وقال : إنا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ[2] .

ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة[3] ، والعلقة مضغة[4] ، والمضغة عظام . فقال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ . ثُمَ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً[5] ... الآية . فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير فى معناه ، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب[6] ، وكيف جمع الذكر والأنثى ، وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة ، وسقاه بماء الحيض ، وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس ، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل .

ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص .

ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر . فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة ، لو فقدت طبقة منها أو زالت

---

(١) سورة يس (٧٧) خصيم مبين : مجادل بحجة ومنطق فصيح .

(٢) سورة الإنسان (٢) . أمشاج : (ج) مشج ومشيج : وهو الشيء المختلط .

(٣) العلقة : الدم الغليظ المتجمد .

(٤) المضغة : القطعة من اللحم .

(٥) سورة المؤمنون (١٢ : ١٤) . والتكملة : (.. ثم جعلنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما . ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

(٦) الترائب : عظام الصدر فيما يلي موضع القلادة .

صفة من صفاتها ، تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى نصف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضى فيه الأعمار ....

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس ، وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظمة مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ــ كما تراه ــ فمنها ستة تخص القحف[1] ، وأربعة عشر للحى الأعلى ، وإثنان للحى الأسفل ، والبقية هى الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع وهى : الأنياب والأضراس والثنايا .

ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات[2] مجوفات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات ، لينطبق بعضها على بعض . ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصعص ، وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف ، وعظام اليدين ، وعظام العانة ، وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين ، وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك .

ومجموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل ، فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة[3]

---

(١) القحف : أحد أقحاف ثمانية تكون علبة عظمية هى الجمجمة ، وفيها الدماغ .

(٢) يقصد الفقرات العظمية .

(٣) لعل فى حديث المؤلف هذا ما يشير إلى تأثره بالمعارف الطبية والتشريحية التى كانت لدى الأطباء السابقين على عصره من أمثال الرازى وابن سينا .

ربــــع المنجيـــات

الكتاب العاشر : ذكر الموت وما بعده

وفيه إثنا عشر بابا فى شطرين :

الباب الأول

فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا ، المكب على غرورها ، المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه ونفر منه ، أولئك

هم الذين قال الله فيهم : قُلْ إنَّ المَوْتَ الِذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنهُ مُلاقِيكُم ثُم تُرَدُّون إلى عَالِمِ الغَيْب والشَّهَادة فَيُنَبِّئُكُم بِماَ كُنْتُم تعملون[1] .

ثم الناس إما منهمك ، وإما تائب مبتدىء ، أو عارف منته .

أما المنهمك فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ، ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا .

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة ، وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ : من كره لقاء الله كره الله لقاءه[2] . فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف قرب لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارها للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا .

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد لقائه بحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين .

كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة ، والموت أحب إلىّ من العيش ، فسهل علىّ الموت حتى ألقاك .

فإذن التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه . فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغاية والمنتهى .

---

(١) سورة الجمعة (٨) .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا ، إذ ينغص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة ...

الباب الرابع

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

لما احْتُضِر أبو بكر رضى الله عنه جاءت عائشة رضى الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يُغْنِى الثَّراءُ عن الفتى إذا حشْرَجَتْ يَوماً وضاق بها الصدرُ[1]

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قولى : وَجَاءَتْ سَكَرَةُ المَوت بِالحَقِّ ذَلكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ[2] . انظروا ثوبّى هذين فاغسلوهما ، وكفنونى فيهما ، فإن الحى إلى الجديد أحوجُ من الميت .

وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل[3]

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله ﷺ .. ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوا لك طبيبا ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إلّى طبيبى ، وقال : إنى فعال لما أريد .

ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله عنه يعوده فقال : يا أبا بكر ، أوصنا . فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنَّ منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله ، فلا تخفرن[4] الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك .

---

(١) تقصد الروح ، والبيت لحاتم الطائى .

(٢) سورة ق (١٩) .

(٣) الربيع : النهر الصغير ، والأخضر من النبات ، والمراد رحمة وعطفا على اليتامى .
وقائل هذا البيت هو أبو طالب فى قصيدة يمدح بها محمدا ﷺ .

(٤) تَخْفر : تنقض العهد ، وتغدر بالذمة .

ولما ثقل أبو بكر رضى الله عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلِف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك ؟ قال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه فجاءه فقال : إنى موصيك بوصية ، اعلم أن لله حقًّا فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تُؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء ، فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ، ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون راغبا راهبا ، ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق .

فإن حفظت وصيتى هذه ، فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولابد لك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ، ولابد لك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ زودّنا ، فإنا نراك لما بك ، فقال أبوبكر : من قال هؤلاء الكلمات ، ثم مات ، جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة رحمة ، فمن قائل هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين : فريقا للنعيم وفريقا للسعير ، فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير . اللهم أنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص[1] لهاما عملت ،

---

(١) محيص : مهرب .

فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك .

اللهم إنك قد قدرت حركات العباد ، فلا يتحرك شىء إلا باذنك ، فاجعل حركاتى فى تقواك .

اللهم إنك خلقت الخير والشر ، وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين .

اللهم إنك خلقت الجنه والنار ، وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك ، اللهم إنك أردت بقوم الضلال ، وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى .

اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك ، فأحينى بعد الموت حياة طيبة ، وقربنى إليك زلفى[1] .

اللهم من أصبح ، وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت ثقتى ورجائى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

الباب السابع

فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها .

فظن بعضهم : أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات ، وجفاف النباتات ، وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بثواب ، ما دام فى القبر إلى أن يعاد وقت الحشر .

(١) زلفى : منزلة ومكانة .

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد . وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا .

وكل هذه الظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل الذى تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد : انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، وأن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين . وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب هنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد ، إلى أن تعاد الروح إلى الجسد .

ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله أعلم بما حكم به على عبد من عباده ....

■ الشطر الثانى :

من كتاب ذكر الموت وفيه أربعة أبواب :

وفيه بيان : نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله ، وصفة طول يوم القيامة ، ودواهيها وأساميها ، وصفة المسألة عند الذنوب ، وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض ، وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة أهل الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان ، وأبوابها وغرفها ، وحيطانها وأنهارها وأشجارها ، ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى .

وباب فى سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث

بيان جمل متفرقة من أوصاف الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : ألاَهَلْ من مشمّر للجنة ، إن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة ، في مقام أبدا ، ونضرة في دار عالية ، بهية سليمة — قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله . قال : قولوا إن شاء الله تعالى[1] ثم ذكر الجهاد وحض عليه .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت .

وقال له رجل : إن الإبل تعجبني فهل في الجنة إبل ؟ فقال : يا عبد الله ، إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك[2] .

نختم الكتاب بباب

في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل[3] ، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى .

فقد قال الله تعالى : إنْ اللهَ لا يَغْفرُ أن يُشْرِكَ بِه ويَغْفرُ ماَ دَونَ ذَلِكَ لمَن يشاء[4] .

وقال تعالى : يا عبادى الذين أسْرَفُوا عَلى أنْفسِهم لا تَقْنَطوُا مِنْ رَحمةِ الله إن الله يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُو الغَفُور الرّحِيم[5] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبّان .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث بريدة ورواه ابن المبارك في الزهد .

(٣) متفق عليه من حديث أنس قال رسول الله ﷺ : يعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة .

(٤) سورة النساء (١١٦) .

(٥) سورة الزمر (٥٣) .

وقال تعالى : وَمَنْ يَعْمَل سُوءاً أو يَظْلِم نَفْسه ثم يستغفر الله يَجِدْ الله غَفُوراً رَحِيماً[1] .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم ، أو طغى به القلم في كتابنا هذا ، وفي سائر كتبنا ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ، ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه أو استفدناه .

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ، ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق فائض .

ونحن خلق من خلق الله عز وجل ، لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال ﷺ : إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وأخّر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة[2] ...

.... فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته .

---

(١) سورة النساء (١١٠) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان .

مراجع البحث

(١) القرآن الكريم .

(٢) إحياء علوم الدين ـــ الإمام الغزالى ـــ طبعة المكتبة التجارية الكبرى وطبعة الشرفية بمصر المحمية .

(٣) الأخلاق عند الغزالى ـــ الدكتور زكى مبارك ـــ دار مطابع الشعب ـــ القاهرة .

(٤) الإملاء فى إشكالات الإحياء ـــ الإمام الغزالى ـــ طبعة المكتبة التجارية .

(٥) الأعلام ـــ خير الدين الزركلى ـــ دار العلم للملايين بيروت .

(٦) البداية والنهاية ـــ الحافظ بن كثير ـــ مكتبة المعرف بيروت .

(٧) تاريخ الرسل والملوك ـــ ابن جرير الطبرى ـــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ دار المعارف مصر .

(٨) تاريخ ابن خلدون ـــ العلامة ابن خلدون المغربى ـــ دار الكتاب اللبنانى .

(٩) تاريخ فلاسفة الإسلام ـــ محمد لطفى جمعة ـــ دار الهلال بيروت .

(١٠) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ـــ العلامة عبد القادر بن عبد الله العيدروس ـــ المكتبة التجارية الكبرى .

(١١) دراسات فى علم الحديث ـــ صبحى الصالح ـــ دار العلم للملايين .

(١٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـــ عبد الحى بن العمار الحنبلى ـــ دار الفكر بيروت .

(١٣) المنخول من تعليقات الأصول ـــ الإمام الغزالى ـــ تحقيق الدكتور محمد حسن هينتو ـــ دار الفكر بيروت .

(١٤) طبقات الشافعية ـــ تاج الدين السبكى ـــ تحقيق محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو ـــ مطبعة الحلبى .

(١٥) العبر في خبر من غبر ـــ الحافظ الذهبى ـــ تحقيق الدكتور صلاح المنجد ـــ طبعة وزارة الإرشاد ـــ الكويت .
(١٦) العواصم من القواصم ـــ القاضى أبو بكر بن العربى ـــ تحقيق محب الدين الخطيب ـــ مطبعة الدار السعودية . وتحقيق عمار طالبى مطبعة الشركة الوطنية بالجزائر .
(١٧) فقه السنة ـــ الشيخ سيد سابق ـــ دار الكتاب العربى بيروت .
(١٨) القاموس المحيط ـــ الفيروز بادى ـــ طبعة الميمنية بمصر .
(١٩) لسان العرب ـــ ابن منظور ـــ دار صادر بيروت .
(٢٠) مؤلفات الغزالى ـــ الدكتور عبد الرحمن بدوى ـــ وكالة المطبوعات بالكويت ـــ الطبعة الثانية .
(٢١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـــ محمد فؤاد عبد الباق ـــ دار ومطابع الشعب .
(٢٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ـــ أ . ى . ونسنك وآخرين ـــ مطبعة برايل بمدينة ليدن .
(٢٣) المعجم الوسيط ـــ مجمع اللغة العربية بمصر ـــ دار المعارف .
(٢٤) معجم البلدان ـــ ياقوت الحموى ـــ دار صادر بيروت .
(٢٥) المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ـــ الحافظ العراق ـــ هامش الإحياء طبعة المكتبة التجارية .
(٢٦) المنقذ من الضلال ـــ الإمام الغزالى ـــ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ـــ دار الكتب الحديثة .
(٢٧) موسوعة التاريخ الإسلامى ـــ الدكتور أحمد شلبى ـــ مكتبة النهضة المصرية .
(٢٨) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـــ جمال الدين بن تغرى بردى الأتابكى ـــ دار الكتب المصرية ـــ مصورة .
(٢٩) وفيات الأعيان ـــ ابن خلكان ـــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـــ دار الثقافة بيروت .

رقم الايداع بدار الكتب

٢٠٩١ / ٨٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

أصبح تراث عباقرة العرب والمسلمين السالفين على قيمته وأهميته ، بعيداً عن فهم الأجيال الجديدة نتيجة للظروف المعقدة لعصر السرعة من حيث تصارع وسائل الثقافة ، وتزاحم مصادر التوجيه ، واختلاف القدرات وضيق الوقت عن متابعة هذه الأعمال فى صورتها الأصلية وانحصار المناهج المقررة فى كتب معينة لا تتجاوزها .

ومن هنا كان إهتمامنا بسلسلة « تقريب التراث » ، محاولة لوضع المؤلفات الكبيرة الذائعة الشهرة ، فى متناول الكثرة الغالبة من القراء ، بالاستعانة بمجموعة متميزة من العلماء والمتخصصين ، تتولى عبء تقريبها مع مراعاة الاحتياجات الفكرية للعصر .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـــ القاهـــرة

مطابع الاهرام التجارية القاهرة ـ مصر